6

الباب السادس

زعماء الإصلاح الإسلامي

obeikan.com

obeikan.com

الإمام المجدد ابن تيمية

التجديد سنة من سن الله تعالى، فخلايا الجسم الإنساني مثلا تتجدد باستمرار، ولولا هذا التجدد الخلوي لمات الإنسان ، وكل ما حول الإنسان يتجدد، ومن يرفض التجديد يرفض سنة الله تعالى في خلقه.

ولكن فرق كبير جدًا بين التجديد والتخريب، ذلك أن خلايا الإنسان الحية التي تتجدد باستمرار تتجدد من داخل الجسم نفسه، الإنسان يستخدم الطعام والشراب ويهضمه ويتمثله ويجدد به خلاياه، ويظل الإنسان هو الإنسان، ولكن إذا حدث وقطع إنسان جزء من جسمه ولصق بدلا منه جزءًا من الخارج فلربما مات الإنسان، ولم يكن هذا تجديدًا بل تخريبًا.

والتجديد الإسلامي مطلوب، ولكن من داخل الجسم الإسلامي واستنادا إلى أصوله الثابتة « الكتاب والسنة»، أما تنحية الكتاب والسنة جانبًا بدعوى التجديد، فهذا هو التخريب بعينه وهو يؤدي إلى ضياع الإسلام والمسلمين وليس تجديد حياتهم أو تحقيق نهضتهم.

وإذا كان في التجديد عن طريق إهدار الأصول الثابتة في ديننا هم دعاة تخريب في الحقيقة، فإن دعاة الجمود على اجتهاد معين أو موقف فكري معين هم في الحقيقة مغفلون لم يفهموا الإسلام ويسيئون إليه قطعًا، وإن كان لهم بعض الفائدة في مرحلة معينة إلا أن موقفهم في النهاية يعبر عن حالة لا تصلح للاستمرار، ومواجهة التحديات.

وفي أحوالنا المعاصرة فإن للجمود فائدته التي لا تنكر ذلك أننا في حالة هزيمة حضارية، وهناك تآمر غربي صليبي يهودي لطمس معالم هويتنا الحضارية وإخضاعنا للقيم الحضارية الغربية، ولا شك أن استمرارنا كأمة مرتبط برفض الخضوع والاندماج في الثقافة الغربية والتأكيد على هويتنا الحضارية والثقافية، وإذا كان الدين هو الحضارة، فإن التمسك بالدين هو الشرط الأول لاستمرارنا وعدم إبادتنا وضياعنا نحن الآن نواجه تحديا مزدوجًا، فنحن ولا شك في حالة هزيمة سياسية وعسكرية واقتصادية والمراد القضاء على عوامل الاستمرار فينا أي أن تتحول تلك الهزيمة إلى نهاية كاملة لنا، وفي هذا الصدد فإن عملاء الغرب والمروجون له عن جهل أو سوء نية أو عمالة يدعوننا إلى الدخول في قيم الحضارة الغربية بدعوى أن هناك ما يسمي بالثقافة العالمية والقيم الكوكبية « نسبة إلى كوكب الأرض » وأن العالم أصبح قرية إلكترونية صغيرة بحكم تقدم وسائل الاتصال، الذين يبشروننا بهذا -بالكوكبية والعالمية والقيم الحضارية الواحدة يكذبون علينا-، بل يريدون لنا ابتلاع وقبول الدخول في الدين والحضارة الغربية تحت غطاء الكوكبية ويتناسون أن تقدم وسائل الاتصال هي بذاتها تدعونا للتأكيد على خصوصيتنا الثقافية والحضارية، والغرب الذي حملهم مهمة التبشير يدرك هو أنهم كاذبون ويدرك أنه يدعوهم للكذب علينا، فمع كل ما يروجون له عن الكوكبية والعالمية والقيم الحضارية الواحدة فإن علماء الغرب يستفيدون ويدرسون ويعرفون أن لكل حضارة خصائصها وأن العالم عرف وسوف يعرف العديد من الحضارات وأن القرن القادم هو قرن الصراع الحضاري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية كما يقرر البروفيسور الأمريكي صمويل هينتجتون أستاذ العلوم السياسية ومدير معهد جون أولين للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفارد، وقد نشر مقالا تحت عنوان « صدام الحضارات » خلص فيه إلى الصدام بين الحضارات، وأن أقواها والمرشحة للصمود أمام الحضارة الغربية هي الحضارة الإسلامية.

نحن إذًا أمام حالة من الغزو الثقافي والحضاري والقيمي وبما أن الدين هو الحضارة كما يقرر صمويل هينتجتون بنفسه، فإن الدين الإسلامي مستهدف،

وبالطبع نحن أمام عدد من ردود الفعل تجاه هذا الغزو الحضاري، فهناك من يستطيع أن يستجيب ويستوعب الحضارة الغربية ويخضع لها، ولا شك أن هذا موصوف بالمرونة والاستنارة لديهم، وبالطبع هذا يعمل ويدعم المشروع الغربي ، وهناك الجامدون الذين يرفضون كل جديد وبالتالي يرفضون القيم الغربية بالطبع ومتمسكون بصورة حرفية وجامدة بالتراث، ولا شك أن لهؤلاء فائدتهم، فالجمود هنا أفضل من الاستجابة والخضوع، وربما كان أروع ما في الصخرة ثباتها، وهذا الجمود سيكون عائقا أمام المشروع الغربي، ومن الأفضل أن أكون مثل الصخرة الجامدة، من أن أكون مرنًا ومستجيبًا للخضوع والذوبان، ولكن علينا أن ندرك دائمًا أن هذا الجمود الذي يتصدى للخضوع للمشروع الغربي يصلح كحالة مؤقتة وإن استمراره من قبيل المستحيل، بل هو بالنظر إلى المستقبل يعبر عن حالة دنيا صورية ستنقرض حتمًا، أو يعبر عن صحوة الموت الحضاري.

أما الموقف الثالث فهو موقف التجديد، انطلاقا من داخل الجسم الثقافي والحضاري الإسلامي، أي التجديد والاجتهاد من خلال الثوابت وهي« الكتاب والسنة »، وهذا الجهد والجهاد يكون بمواجهة التحدي والإبداع والابتكار على قاعدة التمسك بالكتاب والسنة وعلى قاعدة الهوية الإسلامية، وهذا الطريق الثالث القادر وحده على الاستمرار في معركة الحياة المتجددة، وهو وحده القادر على مواجهة التحدي الثقافي الغربي ورفضه رفضا إيجابيا، ولكن ما شأن ابن تيمية بكل هذا، إن له شأن وأي شأن، فإن لابن تيمية أثر كبير في التجديد الإسلامي من خلال الثوابت في عصره، والبعض في عصرنا يتخذون منه إماما وهو مستحق ولكنهم أخطأوا فهمه.

وإذا كان فريق يتخذون من ابن تيمية إماما فإن ابن تيمية أيضًا له تأثير كبير على مجمل حركة الصحوة الإسلامية التي تقود حركة المواجهة ضد التحديات وهو يستحق أن يكون له هذا التأثير لأكثر من سبب، هو عالم مجاهد، وهو فقيه عظيم وباحث منقب، وهو صاحب عقل وجهد كبيرين في مجالات المعرفة

وحقول العلوم الإسلامية، وهو الذكي الألمعي والكاتب العبقري والخطيب المفوه، وهو العظيم في نفسه ومواقفه على حد سواء، وهو أكثر من هذا، واجه ظروفًا ومجتمعًا يحمل كثيرًا من أوجه التشابه مع ظروف عصرنا، وقد تصدي لهذه الظروف وقدم الاجتهادات المكافئة لها، فكان لهذه الاجتهادات والآراء والآثار العلمية أهميتها في ظروفنا المعاصرة بسبب أوجه التشابه بين ما واجهه ابن تيمية وما نواجهه الآن.

ولكن الفهم الصحيح لابن تيمية يقتضي فهم عوامل التشابه بين عصرنا وعصره، وكذا عوامل الاختلاف.

***

ظهر نجم ابن تيمية في الثلث الأخير من القرن السابع الهجري والثلث الأول من القرن الثامن الهجري، وفي هذا الوقت تعرض العالم الإسلامي للتحديات الخارجية الضخمة متمثلة في الهجوم الصليبي والغارة التتارية، وكانت دولة الإسلام قد انحلت إلى دويلات فناصبت بعضها بعضاً العداء وتعددت الأسر الحاكمة واضطربت الأمور وكثر التنازع والتنافس بين طلاب الملك.

ومن ناحية أخري نزعت الصوفية إلى الدعوة إلى ترك الأخذ بالأسباب والعزلة عن الدنيا، أي التخلي عن مواجهة التحدي، في حين نزعت عدد من الفرق الدينية وبعض الحكام إلى الاتصال بالأعداء وموالاتهم على حساب المسلمين.

وهذا كله وأكثر منه نعاني منه الآن، وهكذا فإن جهد وجهاد واجتهادات ابن تيمية تصلح لمواجهة حالتنا المعاصرة، بل تعتبر زادا هاما لكل من يريد الإصلاح الإسلامي حاليا، فما أحوجنا لعلماء مجاهدين يحملون السيف مثل ابن تيمية دفاعًا عن البلاد، وما أحوجنا لمن يحث الناس على الجهاد والقتال ويضغط على الحكام لمواجهة جيوش الغزاة، وما أحوجنا لمن يهاجم العزلة وترك الجهاد والانصراف عن التحدي مثلما فعل ابن تيمية في حملته على الصوفية، وما أحوجنا على من يدحض حجج النصارى « التبشير » مثلما فعل ابن تيمية في كتابه « القول الصحيح فيمن بدل دين المسيح »، وما أحوجنا إلى علماء يعرون مواقف الحكام والفرق التي تمالئ الأعداء « الغرب وإسرائيل ».

ولكن هناك أيضًا فروق نوعية وكمية بين عصر ابن تيمية وعصرنا، وإذا كان ابن تيمية قد قدم الجهد والجهاد والاجتهاد المكافئ لعصره، فإن التقليد الصحيح له يكون بتقديم الجهد والجهاد والاجتهاد المكافئ لهذا العصر.

كان عصر ابن تيمية عصر تميز بالانقسام في دول العالم الإسلامي، ولكن رغم هذه الانقسامات كانت الخلافة قائمة رغم تحولها إلى شيء شكلي، ولكن وجود الخلافة رمز وحدة المسلمين فارق نوعي كبير عن عصرنا الذي سقطت فيه الخلافة شكلا ومضمونًا، ويكفي أن نعرف أن أيا من حكام المسلمين في ذلك الوقت ما كان يجرؤ على الزعم بإنكار الخلافة، أو الدعوة إلى فكرة الوطن أو الدولة المستقلة على أساس جنسي أو عرقي أو جغرافي، بل كان كل يزعم أنه يعمل تحت راية الخلافة أو يعمل على استعادة مكانتها ولو كان كاذبًا والجميع يزعم الحرص على وحدة المسلمين، صحيح أنه كان مجرد زعم، ولكن فرق كبير بين سقوط الخلافة عمليا وبين سقوطها شكلا ومضمونًا، بل وعداء فكرتها ذاتها ومعاقبة من يجرؤ حتى على الدعوة إلى وحدة المسلمين.

كان في عصر ابن تيمية التحدي الصليبي والتتاري، ولكن هذا التحدي كان عسكريا فقط، لأن المسلمين في ذلك الوقت كانوا متفوقين علميًا وحضاريًا على الصليبيين والتتار، أي كانت لهم السيادة الحضارية والثقافية رغم وجود التحدي العسكري، ولم يكن الغرب الصليبي قد تفوق علينا علميًا كما هو الآن، أي أن التحدي لم يكن حضاريا شاملا كما هو حالنا الآن، لم يكن المسلمين قد وصلوا إلى حالة هزيمة حضارية وتخلف علمي كما هو حالنا الآن، ولا شك إن إدراك هذه المسألة يعني إدراك ضرورة تقديم اجتهاد ديني مكافئ لذلك الظرف ومستوعبًا له وآخذًا له في الاعتبار.

هاجم ابن تيمية فرق الشيعة التي مالأت الأعداء وتحالفت معهم، أي كان ابن تيمية مستجيبًا واعيًا لظروف عصره حين هاجم فرق الشيعة الموالية للأعداء، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد أبو زهرة في كتابه عن ابن تيمية صفحة ٩-: هاجم ابن تيمية الشيعة هجومًا عنيفًا بقلبه وقلمه ولسانه لأنه

حسبهم مالئوا خصوم الإسلام من الصليبيين على المسلمين وكشفوا عورات المؤمنين وحسبهم مالئوا التتار على السكان الآمنين .

سقطت إذن بعض فرق الشيعة في الخيانة في عصر ابن تيمية وبسبب خيانة هؤلاء تعرضوا لهجوم ابن تيمية واستحقوا هذا الهجوم، ونلاحظ في هذا الصدد أن ابن تيمية اهتم بالهجوم أساسا على فرق الشيعة « الباطنية والحاكمية والنصيرية ».

***

على أن أهم ملامح ابن تيمية الفكرية هي كونه مجددًا رافضًا للتقليد حتى أنه أفتى مخالفًا لكل الأئمة الكبار في بعض المسائل، بل ومخالفًا لشيخه وصاحب المذهب الذي ينتمي هو إليه « المذهب الحنبلي » في بعض المسائل، وخرج أيضًا على العقائد الرسمية في بعض القضايا، ودخل السجن بسبب هذا وذاك.

ففي العقائد – مثلا، وكما يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه عن ابن تيمية ص٨ : تكلم ابن تيمية في مسائل من علم الكلام غير متقيد إلا بالكتاب والسنة ومناهج الصحابة وكبار التابعين وبحكم العقل المستقيم، فلم يتقيد برأي من جاء بعدهم أيا كانت مكانته العلمية ومنزلته التاريخية فخالف بذلك أبا الحسن الأشعري، ومكانته بين العلماء وأتباعه كثيرون، بل هم الجمهرة العظمى من العلماء في عصره، ورمي الأشاعرة والماتريدية بأنهم في مسائل الإرادة جهمية.

وفي الفقه، وكما يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه عن ابن تيمية ص ١٥- : إن له اختيارات في الفقه، وصل فيها إلى نتائج تخالف ما عليه الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة، بما فيهم أحمد بن حنبل الذي كان ابن تيمية على مذهبه، كفتواه في الحلف بالطلاق وعدم إيقاع الطلاق بها، وكفتواه بأن الطلاق الثلاث بلفظ الثلاث أو في مجلس واحد يقع طلقة واحدة، فإنه في هذه المسائل وأشياء معها اجتاز دائرة الاختيار من المذاهب الأربعة إلى الكتاب والسنة وأقوال الصحابة غير ملتفت إلى ما وراء ذلك.

وإذا كان ابن تيمية قد اجتاز دائرة الاختيار من المذاهب الأربعة، فإن على أتباع ابن تيمية أن يجتازوا دائرة الاختيار من مذهب ابن تيمية، وأن يجددوا في

علومهم مثله باتجاه الكتاب والسنة.

كان اجتهاد ابن تيمية اجتهادا صحيحًا على أوضاع القرن السابع وعلى مقلدي ابن تيمية أن يقدموا اجتهادا على أوضاع القرن الخامس عشر وألا يقفوا عند ابن تيمية بشرط امتلاك التخصص الدقيق والعقل الكبير، لأن للاجتهاد والإفتاء شروط أولها التخصص، وليست لكل من هب ودب طبعًا.

نشأته وآثاره

هو أحمد تقي الدين أبو العباس ابن تيمية، ولد في عام ٦٦١هـ بمدينة حران حيث ظل بها سبع سنوات، ثم هاجر منها إلى دمشق مع أهله عندما هاجم التتار مدينة حران، كانت أسرته أسرة علم وفقه فكل من أبيه وجده من علماء الفقه الحنبلي.

حفظ ابن تيمية القرآن مبكرًا كما حفظ كتب الحديث حيث كان يتمتع بذاكرة قوية لفتت الانتباه، كما درس علوم الفقه والتفسير والحديث واللغة والكلام ودرس إلى جانب ذلك الفلسفة والرياضة، كما اطلع على كتب الصوفية والشيعة والنصارى وغيرها، بل يكاد يكون قد اطلع على أغلب علوم عصره.

تولي ابن تيمية التدريس في الجامع الكبير بدمشق خلفًا لوالده سنة ٦٨٢هـ ، شارك ابن تيمية في القتال دائمًا ضد التتار أو الموالين لأعداء البلاد ومثيري الفتن، وكان شجاعًا قويا، أي أنه جمع بين العلم والقتال بالسيف، ولم يحل الاهتمام بالعلوم دون مشاركته بنفسه في القتال، فكان رب السيف والقلم.

تنقل ابن تيمية بين مصر والشام حيث عاش في مصر عدة سنوات، كما دخل السجن عدة مرات في كل من مصر والشام، ومات ابن تيمية محبوسًا في الشام سنة ٧٢٨ هـ .

ترك ابن تيمية ثروة علمية كبيرة في عشرات المجلدات التي صنفها في الفقه والكلام والتفسير والأصول أو في مناظره النصارى والصوفية أو فرق الشيعة.

ويعد ابن القيم الجوزية من أهم تلاميذ ابن تيمية .

السيد عمر مكرم ومناهضة الاستعمار والاستبداد

نشأته وحياته

السيد عمر مكرم هو نقيب الأشراف في مصر قبل مجيء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨، ولد بأسيوط بالوجه القبلي ونشأ بها وهو من سلالة الحسن بن على بن أبي طالب كرم الله وجهه، كان السيد عمر مكرم شجاعًا مقدامًا، رفيع الكلمة واسع النفوذ يكره الظلم ويدافع عن حقوق الشعب، ويرفض الخضوع، عالى النفس كريمًا، ولذا اعتبره الشعب المصري في ذلك الوقت زعيمه الأول.

عندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر، قام السيد عمر مكرم بتنظيم المقاومة الشعبية وقاد المتطوعين للقتال ضد الفرنسيين في موقعة الأهرام عندما أراد الفرنسيون دخول القاهرة، فلما سقطت القاهرة في أيدي الفرنسيين فضل الرحيل إلى الشام على أن يبقى في مصر تحت سلطة الفرنسيين، رغم أن الفرنسيين عرضوا عليه عضوية الديوان فرفضها.

ثم عاد إلى القاهرة في عام ١٨٠٠م حيث شارك في ثورتها الثانية، ثم هرب إلى خارج مصر مرة أخرى بعد هزيمة ثورة القاهرة الثانية وقامت السلطات الفرنسية بمصادرة أملاكه جزاءً على مشاركته في الثورة.

وبعد رحيل الفرنسيين عاد مرة أخرى إلى مصر حيث نظم الثورة المصرية على الاستبداد ضد الوالي خورشيد باشا سنة ١٨٠٥ م وفي عام ١٨٠٧، وعندما جاءت حملة

فريزر الإنجليزية إلى مصر قام السيد عمر مكرم بتنظيم المقاومة الشعبية ونجح في هزيمة الإنجليز في رشيد، وخروجهم من مصر رغم غياب والي مصر في ذلك الوقت محمد علي لانشغاله بمحاربة المماليك في الصعيد.

وعندما تمكن محمد علي من السيطرة على الحكم في مصر قام بالتخلص من زعماء الشعب وعلى رأسهم السيد عمر مكرم فحدد إقامته بمدينة دمياط سنة ١٨٠٩، ثم مدينة طنطا سنة ١٨٢٢ حيث توفي بها.

عمر مكرم مجاهدًا

تميزت حياة السيد عمر مكرم بالجهاد المستمر ضد الاحتلال الأجنبي، والنضال الدؤوب ضد استبداد الولاة وظلمهم، وكان ينطلق في هذا وذاك من وعي إسلامي عميق وفذ وإيجابي.

ففي إطار الجهاد ضد الاحتلال الأجنبي نجد أنه عندما اقترب الفرنسيون من القاهرة سنة ١٧٩٨ م قام السيد عمر مكرم بتعبئة الجماهير للمشاركة في القتال إلى جانب الجيش النظامي « جيش المماليك في ذلك الوقت، وفي هذا الصدد يقول الجبرتي « وصعد السيد عمر مكرم أفندي نقيب الأشراف إلى القلعة فأنزل منها بيرقًا كبيرًا أسمته العامة البيرق النبوي فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوف من العامة » ويعلق الرافعي على ذلك بقوله:«وهذا هو بعينه استنفار الشعب إلى التطوع العام بعد هجمات الغازي المغير والسير في طليعة المتطوعين إلى القتال ».

وعندما سقطت القاهرة بأيدي الفرنسيين، عرض عليه الفرنسيون عضوية الديوان الأول إلا أنه رفض ذلك ، بل فضل الهروب من مصر كلها حتى لا يظل تحت رحمة الفرنسيس.

ثم عاد السيد عمر مكرم إلى القاهرة وتظاهر بالاعتزال في بيته ولكنه كان يعد العدة مع عدد من علماء الأزهر وزعماء الشعب لثورة كبري ضد الاحتلال الفرنسي تلك الثورة التي اندلعت في عام ١٨٠٠م.. فيما يعرف بثورة القاهرة الثانية، وكان السيد عمر مكرم من زعماء تلك الثورة، فلما خمدت الثورة اضطر

إلى الهروب مرة أخرى خارج مصر حتى لا يقع في قبضة الفرنسيين الذين عرفوا أنه أحد زعماء الثورة وقاموا بمصادرة أملاكه بعد أن أفلت هو من أيديهم، وظل السيد عمر مكرم خارج مصر حتى رحيل الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١ م.

وفي إطار جهاد السيد عمر مكرم ضد الاحتلال الأجنبي، نجد أن السيد عمر مكرم قاد المقاومة الشعبية ضد حملة فريزر الإنجليزية ١٨٠٧م، تلك المقاومة التي نجحت في هزيمة فريزر في الحماد ورشيد مما اضطر فريزر على الجلاء عن مصر، وفي هذا الصدد يقول الجبرتي :«نبه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب لجهاد الإنجليز، حتى مجاوري الأزهر أمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ بترك إلقاء الدروس »، ويعلق الرافعي على ذلك بقوله :«فتأمل دعوة الجهاد التي بثها السيد عمر مكرم والروح التي نفخها في طبقات الشعب، فإنك لترى هذا الموقف مماثلا لموقفه عندما دعا الشعب على التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الأهرام، ثم تأمل دعوته الأزهريين الى المشاركة في القتال تجد أنه لا ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الزمان، فعلمهم في ذلك العصر كان أعم وأعظم من عملهم اليوم».

ولعل الرافعي قد وضع يده على النقطة الحرجة في مسألة الكفاح ضد الاستعمار والنجاح في هزيمته وحماية بلادنا منه، فإذا كان الشعب المصري قد نجح مرتين في اقل من عشر سنوات في هزيمة محتلين استعماريين هما الحملة الفرنسية ١٧٩٨ م ـ ١٨٠١ م، والحملة الإنجليزية المعروفة بحملة فريزر ١٨٠٧ م فإن ذلك يرجع إلى قيام علماء الأزهر بواجبهم في قيادة الشعب للجهاد والقتال والدفاع عن الزمان، يرجع إلى وجود العلاقة الصحيحة بين الأمة، وقيام الأزهر بواجبه كقيادة طبيعية للأمة، ولكن عندما قام محمد علي ومن بعده بفصم هذه العلاقة والقضاء على دور العلماء وإحلال النخب المغتربة محل العلماء في قيادة الأمة سقطت مصر في قبضة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢م.

وفي إطار نضال السيد عمر مكرم ضد الاستبداد والمظالم، نجد أنه قاد النضال الشعبي ضد مظالم الأمراء المماليك عام ١٨٠٤م، وكذا ضد مظالم الوالي

خورشيد باشا سنة ١٨٠٥، ففي يوم ٢ مايو سنة ١٨٠٥ م بدأت تلك الثورة، حيث عمت الثورة أنحاء القاهرة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأقفلت دكاكين المدينة وأسواقها، واحتشدت الجماهير في الشوارع والميادين يضجون ويصخبون، وبدأت المفاوضات مع الوالي للرجوع عن تصرفاته الظالمة فيما يخص الضرائب ومعاملة الأهالي، ولكن هذه المفاوضات فشلت، فطالبت الجماهير بخلع الوالي، وقام السيد عمر مكرم وعدد من زعماء الشعب برفع الأمر إلى المحكمة الكبرى وسلم الزعماء صورة من مظالمهم على المحكمة وهي ألا تفرض ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء والأعيان، وأن يجلو الجند عن القاهرة وألا يسمح بدخول أي جندي إلى المدينة حاملا سلاحه.

وفي يوم ١٣ مايو قرر الزعماء في دار الحكمة عزل خورشيد باشا وتعيين محمد علي بدلا منه بعد أن أخذوا عليه شرطًا : بأن يسير بالعدل ويقيم الأحكام والشرائع، ويقلع عن المظالم وإلا يفعل أمرًا إلا بمشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه.

وفي يوم ١٦ مايو ١٨٠٥ صدرت فتاوى شرعية من المحكمة على صورة سؤال وجواب بشرعية عزل الوالي خورشيد باشا، وانتهى الأمر بعزل الوالي خورشيد باشا، ونجاح الثورة الشعبية.

وإذا تأملنا هذه الأحداث، نجد أن هذه ثورة شعبية ضد الاستبداد استندت إلى فتوى شرعية من المحكمة، وأنها قامت بتولية محمد علي حاكمًا على مصر من خلال معاهدة وشروط بين محمد علي « الوالي الجديد » وبين زعماء الشعب، وأقرت مبدأ الشورى، وعدم اتخاذ قرار بدون الرجوع لممثلي الشعب، وهم العلماء والأعيان، ولو سارت الأمور في مسارها الصحيح بعد ذلك لكان إيذانٌ بروح من الحرية والشورى واحترام إرادة الشعب وخياراته يسود مصر، ولكن محمد علي التف على هذا الأمر وأفرغه من مضمونه فيما بعد.

وكان السيد عمر مكرم هو زعيم هذه الحركة الشعبية ومحركها، وفي ذلك يقول الرافعي :«كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون في تدبير الأمور، ولكل منهم نصيبه ومنزلته، ولكن من الإنصاف أن يعرف

للسيد عمر مكرم فضله في هذه الحركة فقد كان بلا جدال روحها وعمادها ».

وإذا كان السيد عمر مكرم مجاهدًا ضد الاستعمار، مناضلا ضد الاستبداد فإنه في نفس الوقت كان يملك وعيًا إسلاميًا فذًا ومتقدمًا، ويظهر ذلك من خلال حواره مع مستشار الوالي خورشيد باشا، ووفقًا لرواية الرافعي... فقد التقى السيد عمر مكرم يومًا بعمر بك مستشار خورشيد باشا فوقع بينهما جدال..

فكان مما قاله عمر بك: كيف تنزلون من ولاه السلطان عليكم؟ وقد قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنكُمْ﴾ !!

فأجابه السيد مكرم : أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم حتى السلطان والخليفة إذا سار في الناس بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه.

فقال عمر بك: وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟

فقال السيد مكرم: قد أفتي العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم؛ لأنكم عصاة.

سليمان الحلبي
الأب الشرعي للحركة الطلابية

سليمان الحلبي هو شاب سوري ولد بمدينة حلب، وكان أبوه الحاج محمد أمين يعمل بالتجارة، التحق سليمان الحلبي بالأزهر ودرس به عدة سنوات ثم رحل عن القاهرة، ولما علم بقيام الفرنسيين بغزو مصر، وأن كليبر قد اقتحم الأزهر بالخيول وعبث بالكتب الدينية سارت في نفسه الغيرة الإسلامية وقرر اغتيال الجنرال كليبر الذي عمل قائدًا للحملة الفرنسية بعد رحيل نابليون عن مصر إلى فرنسا.

أعد سليمان الحلبي عدته وسافر إلى القاهرة التي يعرف دروبها وشوارعها جيدًا من قبل، ونزل برواق الشوام في الأزهر وانتظم في سلك التعليم بالأزهر، ثم شكل خلية طلابية من أربعة من الطلبة هم محمد الغزي وأحمد الوالي وعبدالله الغزي وعبد القادر الغزي، ومن خلال هذه الخلية الطلابية قام سليمان الحلبي ورفاقه بمراقبة الجنرال كليبر جيدًا ومعرفة تحركاته ومواعيده، وتم إعداد الخطة لاغتيال كليبر.

وفي يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠ قام سليمان الحلبي بالتنكر في زي متسول وطعن كليبر بخنجره عدة طعنات في حديقة دار القيادة العامة الفرنسية بالأزبكية مما أدى إلى مصرع كليبر.

وقد تمت محاكمة سليمان الحلبي ورفاقه الأربعة وصدرت الأحكام بإعدام سليمان الحلبي بطريقة بشعة « على الخازوق » بعد حرق يده، وترك جثته تأكلها الطير، وإعدام رفاقه الأربعة بقطع رؤوسهم وإحراق جثتهم بعد الإعدام، وقد تم تنفيذ الحكم في سليمان الحلبي وثلاثة من رفاقه، أما الرابع

لكن قد هرب وهو عبد القادر الغزي.

وهكذا فنحن أمام خلية طلابية انضمت إلى الثورة، وخططت ونفذت عملية من أخطر عمليات المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، وهذه الخلية الطلابية هي جزء من حركة طلابية أزهرية شاركت في النضال ضد الاستعمار الفرنسي، وقد تطورت هذه الحركة الطلابية فيما بعد فأصبح هناك حركة طلابية مصرية في الأزهر وغيره من الجامعات والمدارس المصرية، ولكن يبقى أن سليمان الحلبي هو الأب الشرعي للحركة الطلابية المصرية، وهذه الخلية الأزهرية هي باكورة العمل الطلابي المصري عمومًا، ولعل الحركة الطلابية المصرية قد أخذت تقاليدها في الكفاح ضد الاستعمار من هذه الخلية الأزهرية التي نفذت اغتيال كليبر.

السيد أحمد المحروقي
الرأسمالية الوطنية

إذا حاولنا أن نتتبع أحداث الصراع بيننا وبين الغرب وخاصة في المائتي سنة الأخيرة، نكتشف حقيقة مذهلة وهي أن الغرب لا يريد لنا النهضة،- أي نهضة -على أساس إسلامي أو حتى على أساس الثقافة والأيديولوجية الغربية ذاتها وبالأسلوب والنمط الحضاري الغربي ذاته.

وإذا كان مفهومًا أن الغرب لا يريد لنا نهضة على الأساس الإسلامي بسبب التعصب الصليبي، وبسبب الصراع التقليدي بين الحضارة الإسلامية التي تنحاز إلى الإنسان وترفع شأنه وتنحاز إلى الحق والعدل والحرية، وبين الحضارة الأوروبية التي قامت على القهر والعنف والنهب وتدمير القيم، وهي حضارة إغريقية وثنية ذات قشره مسيحية، فإن من العجيب أن الغرب لا يريد لنا حتى النهضة في إطار حضارته هو وثقافته هو أيضًا.

وإذا كان هناك نقطة مبدئية وهي عدم إمكان قيام نهضة في بلادنا على غير الأساس الإسلامي لأن الإسلام هو الأيديولوجية الوحيدة القادرة على تعبئة الجماهير من أجل النهضة، فإنه حتى وبصرف النظر عن هذا فإن الغرب لا يريد لنا أي نهضة على أي أساس كان.

عمل الغرب جاهدًا على ضرب الإسلام والعالم الإسلامي، وواجه العالم الإسلامي تحديات خطيرة في هذا الشأن لم تنقطع يومًا، فالحروب الصليبية التي بدأت في

المشرق الإسلامي سنة ١٠٩٨ م واستمرت قرنين كاملين وانتهت بهزيمة الصليبيين لم تنقطع في الحقيقة، بل استمرت ألف عام في بلاد المغرب العربي تونس والجزائر والمغرب، ولم تنقطع يومًا، ثم عادت من جديد مع الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨، ثم استمرت إلى يومنا هذا.

والغرب يخاف وحدة المسلمين، ولكن حتى في إطار التجزئة فإنه يكيد لبلاد الإسلام المجزأة والمفتتة، ويزيد من تفتيتها رغم أنها تقوم الآن على أساس الإقليمية وليس الإسلامية، انظر مثلا المؤامرات الاستعمارية في جنوب السودان لإضعاف السودان وخنق مصر في منابع النيل.

وإذا حاولنا أن تأخذ مصر كنموذج، فإننا نجد أن الاستعمار دائمًا كان يشجع الاستبداد ويحرض عليه، فإنجلترا وفرنسا مثلا تتقدمان بالمذكرات للخديوي توفيق بمصادرة الحريات والإمساك بكل السلطات في يده وتعده بالدعم الكامل في هذا الإطار في مذكرة مشتركة سنة ١٨٨١، ولما وجدت أن الثورة العرابية قاب قوسين أو أدني من النصر، تلاشت التناقضات الثانوية بين فرنسا وإنجلترا وضحت فرنسا بمصالحها في مصر وتركت الكعكة كلها لإنجلترا في مقابل ذبح الثورة العرابية، وما أن تحتل إنجلترا القاهرة حتى تلغي مجلس النواب وتصادر الصحف وتمنع حرية القول والاجتماع، وأي شكل من أشكال الحرية

وعلى مستوى النهضة الصناعية، فإنه بعد نجاح حركة الكفاح الشعبي في مصر ضد الفرنسيين ١٧٩٨ ـ ١٨٠١م، وضد الإنجليز ١٨٠٧م وضد الاستبداد ١٨٠٥ـ فإن من الطبيعي أن تكون هناك طاقة جبارة تتجه للتصنيع خاصة بعد صدمة الاحتكاك مع فرنسا، وكانت تلك النهضة تستند إلى أسس راسخة فالذين صنعوا المدافع والقذائف في ثورة القاهرة الثانية ضد الفرنسيين سنة ١٨٠٠م، كانوا قادرين على خوض غمار التصنيع، وكانت هناك نهضة علمية في الأزهر نفسه تسمح بهذا، بل كان التلاميذ من أوروبا يأتون لتلقي علوم الرياضة والفلك والكيمياء على يد علماء الأزهر ويوميات الجبرتي مليئة بترجمات لعلماء كانوا يدرسون الهندسة والفلك والكيمياء للتلاميذ المسلمين أو الأوروبيين على حد سواء، بل وكان التمويل موجودًا إذ كان التمويل شرطًا أساسيًا للتصنيع، فمثلا السيد أحمد

المحروقي الذي كان واسع الثراء ووصلت تجارته إلى البلاد العربية والإسلامية والأوروبية كان رجلا وطنيًا وبرغم أنه كان كبير التجار « شاه بندر التجار » فإنه شارك في الكفاح الوطني ضد الفرنسيين، وأنفق أمواله على حركة المقاومة وتعرض لبطش الفرنسيين ومصادرة أمواله بسبب مشاركته ودعمه للمقاومة، أي أنه كان وطنيًا، ومن يشارك في الثورة بديهي أنه لن يبخل في تمويل النهضة الصناعية، بل وكان هناك العديد من الصناعات كالغزل والنسيج والنحاس والحدادة والصباغة، وكانت مصر مملوءة بالحرفيين وكانت محصلة هذا كله مع حالة الشعب المعنوية المرتفعة، ومع الطاقة المتولدة عن نجاح الحركة الشعبية في هزيمة دولتين أوروبيتين في أقل من عشر سنوات ١٧٩٨ ـ ١٨٠٧ م أن تظهر نهضة صناعية، ولكن الغرب كان متربصًا، وكان لابد من وسيلة شيطانية لتبديد تلك الطاقة فجاء محمد علي واحتكر الصناعة والتجارة والزراعة ودمر الحرفيين والصناع ودمر كل مراكز الصناعة الشعبية في مقابل إقامة صناعة متقدمة ترتبط بالجيش وبه شخصيًا، وتركه الغرب يفعل ذلك بل ساعده على أساس أن ذلك كله مادام مرتبطًا بشخص ونظام فيمكن تدميره بسهوله مع تدمير الشخص والنظام، وقد كان فاستنفد محمد علي قوة مصر في الصدام مع الخلافة وبعد أداء المهمة تم ضربه واجتمعت أوروبا كلها لتحطيمه، وسقط محمد علي وسقطت معه كل الصناعات التي أنشأها والنتيجة أنه لا أبقي على الأوضاع الصناعية الشعبية والحرفية، بل دمرها ولا استطاع أن يحمي مشروعه الصناعي ذاته.

وعقب١٨٦٠م شهدت مصر سيلا هائلا من الهجرة الأوروبية، من كل حثالات أوروبا جاءوا لممارسة الربا والسلب والنهب، وأنشأوا البنوك وأغرقوا الخديوي في الديون، وشجعوا قيام مشروعات زراعية أو مشروعات طرق وسكك حديدية، وذلك بهدف أن تكون الزراعة مصدرًا للسلع التصديرية، وأن تكون الطرق والسكك الحديدية وقناة السويس وسائل مساعدة في عملية النهب، وسيطر الغرب تمامًا على كل تلك المشروعات، ولم يسمحوا بقيام صناعة من أي نوع أو شكل، بل استصدروا القرارات الخديوية بفرض الضرائب على الحرفيين والصناع، ولم يسمحوا إلا بنمط واحد من الاستثمار هو الاستثمار

الزراعي والعقاري، بل وهذا النمط استحوذوا على الكثير منه، وعندما قامت الثورة العرابية تحت تأثير أفكار السيد جمال الدين، انتبهت الثورة لهذا، وفكرت جديًا في تشجيع العلوم والفنون والصناعة، بل وفكرت في إنشاء بنك أهلي لتمويل الصناعة بعيدًا عن نفوذ البنوك الأوروبية، وأكثر من هذا استصدرت الثورة قرار بمنع تصدير الغلال حتى لا ترتفع أسعارها على الفقراء، ومعنى هذا أن هناك تفكير في منع تصدير هذا أو استيراد ذاك من السلع من أجل مصالح الفقراء، وإذا كان منع تصدير الغلال سيخفض أسعارها، فإن زيادة الرقعة الزراعية المزروعة بالغلال تحقق نفس النتيجة، أي أن زراعة القطن ستتقلص وهكذا يمكن أن تقطع كل خيوط التبعية، ويمكن تحقيق استقلال القرار الوطني.

أكثر من هذا أن الثورة استطاعت أن تحشد كل فئات الشعب خلفها الفلاحين والمثقفين، الأزهر، الأعيان، رجال الدين، بل وبعض كبار الملاك مثل البارودي، والتجار أيضا مثل السيد حسن موسى العقاد الذي ورث ١٠٠ ألف جنيه عن والده موسى العقاد، عدا العقارات والأطيان وأنفقها كلها من أجل الثورة وتمت محاكمته بعد هزيمة الثورة ونفي نفيا مؤبدًا وهو نفس الحكم الذي صدر على عرابي، وهذا يعطينا فكرة عن مدى مساهمة هذا التاجر في الثورة، وكذلك التاجر أمين الشمسي كبير تجار الزقازيق الذي كان ينسق نشاط الثورة واتصالاتها بعرابي في محافظة الشرقية، وتمت أيضا محاكمته بعد هزيمة الثورة، وصدر حكم عليه بالإقامة الجبرية ٤ سنوات وغرامة قدرها ٥٠٠٠ جنية (خمسة آلاف جنيه).

إذن فقد كانت الثورة العرابية نذيرًا بنهضة صناعية، ولكن أوروبا تركت لإنجلترا مهمة ذبح الثورة والقضاء على تلك النهضة، فجاء كرومر إلى مصر ومنع جميع أنواع التعليم العلمي وضرب جميع الصناعات، بل وأصدر قرار بفرض ضريبة على الحرفيين أسماها :" البطنطا " وهي ضريبة باهظة أدت إلى وأد الحرف، وكرر كرومر ومن بعده نفس الشيء وهو عدم السماح إلا بالاستثمار الزراعي.

وبعد ثورة ١٩١٩ م فكر المصريون في إنشاء عدد من الصناعات عن طريق بنك مصر الذي أنشأه طلعت حرب، ولكن هذا البنك وهذا الرجل تعرضا لجميع المضايقات من كل نوع وشكل، ووصلت إلى حد النيل من شرف وسمعة

طلعت حرب، ولكن البنك صمد والصناعات التي أنشأها استمرت، وجاءت الحرب العالمية الثانية وتسببت الأعمال الحربية في قطع طرق المواصلات البحرية بالذات، وكانت هذه فرصة للصناعات المصرية أن تنشط وتتسع ويقوى عودها بعيدًا عن منافسة الصناعات الاستعمارية، بل واضطر المستعمر إلى شراء المنتجات الصناعية المصرية لدعم مجهوده الحربي، وخرجت الصناعة المصرية بعد الحرب العالمية الثانية قوية متماسكة، ولكن من جديد تفكر أوروبا في ضرب تلك الصناعات، ولم يكن هذا سهلا، ولكن تجربة محمد علي تتكرر بكل أخطائها دون أن تحمل أيا من مزاياها، وجاء عبد الناصر وأمم وصادر كل الصناعات المصرية وأقام صناعات مرتبطة أيضًا بجهاز الدولة والجيش والحاكم، فلما سقط عبد الناصر بهزيمة ١٩٦٧ م سقطت معه صناعاته وتلاشت كأنها بالونة، وغرقت مصر من جديد بالبنوك الأجنبية والمرابيين وحثالات أوروبا وأمريكا وغرقت في شبكة معقدة من التبعية والنهب.

والمحصلة النهائية

أن الغرب لا يريد لنا نهضة لا على الأساس الإسلامي ولا على أساس النمط الحضاري الأوروبي، لا يريد لنا نهضة في إطار دولة الوحدة أو الخلافة الإسلامية أو حتى الوحدة العربية ولا في إطار إقليمي تجزيئي، ولا في أي إطار.

علماء مجاهدون

العلماء ورثة الأنبياء، وعلماء أمة الإسلام مثل أنبياء بني إسرائيل، وقد فرض الله تعالى على علماء الإسلام كثير من المهام والتكاليف سواء في حفظ الدين أو الدفاع عن الأمة أو نصرة المستضعفين، أو قيادة الأمة في الاتجاه الصحيح دفاعًا عن مصالحها وأهدافها.

والعلاقة بين العلماء والأمة تؤدي إلى تماسك تلك الأمة وقدرتها على المواجهة والصمود والنصر، وإذا انفصمت تلك العلاقة بسبب أو بآخر أو تقاعس العلماء عن أداء دورهم أو باعوا ضمائرهم للحكام فإن مصيرًا مظلمًا ينتظر هذه الأمة.

وعلى سبيل المثال فإنه عندما كان علماء الأزهر هم القيادة الشعبية الطبيعية للأمة، وعندما كان هؤلاء العلماء على مستوى الدور المنوط بهم نجحت مصر في صد غزوتين استعماريتين هما الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ـ ١٨٠١، والحملة الإنجليزية بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧م، بل ونجحت أيضًا في أحداث ثورة شعبية ضد الاستبداد سنة ١٨٠٥م، بل إننا نؤكد أنه لم يحدث شيء إيجابي في تاريخ هذه الأمة إلا عندما اضطلع علماء الأزهر بدورهم الطليعي والطبيعي، وعندما انقصمت هذه العلاقة تفككت التماسك الجماهيري ونجحت قوات الاستعمار في السيطرة على مصر والتنكيل بأهلها.

وقراءة يوميات المقاومة المصرية ضد الحملة الفرنسية مثلا تقول أن الأزهر كان محورًا لحركة المقاومة، وكان علماء الأزهر وطلابه هم قيادات المقاومة.

ففي ثورة القاهرة الأولى، كان الأزهر وكان العلماء، وكان قائد الثورة الشيخ محمد السادات يقول، ريبو « كان في الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبر الثورة »[١].

ويقول نابليون في مذكراته « إن الشعب قد انتخب ديوان للثورة من علماء الأزهر، وأن الشيخ السادات انتخب رئيسًا لهذا الديوان »[٢].

ويقول الرافعي :«فالأزهر إذن كان مركز الثورة »[٣].

وإذا تتبعنا أسماء هؤلاء الذين تمت محاكمتهم بتهمة قيادة الثورة نجدهم جميعًا من علماء الأزهر يقول الرافعي :«أما الذين حوكموا رسميًا من المقبوض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم الشيخ إسماعيل البراوي والشيخ المصيلحي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ سليمان الجوسقي والشيخ أحمد الشرقاوي وكلهم من أواسط علماء الأزهر »[٤].

ونظرًا لأن الأزهر كان قيادة للثورة فإن الجنود الفرنسيين قد اقتحموه وعاثوا

(١) ريبو، التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية في مصر، الجزء الرابع.
(٢) مذكرات نابليون.
(٣) الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الأول.
(٤) نفس المرجع السابق.

فيه فسادًا وذلك للقضاء على بؤرة الثورة وهو أمر يثبت بشاعة الفرنسيين ولكنه يسجل في نفس الوقت الدور المشرف للأزهر في تنظيم المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي وفي ثورة القاهرة الثانية، أو في المقاومة الشعبية في الوجهين القبلي والبحري، نجد أن علماء الأزهر كانوا دائمًا الوقود المحرك للمقاومة والقيادة الطبيعية لها، بل ونجد أن أحد طلاب الأزهر ينفذ عملية اغتيال للجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية بعد رحيل نابليون وهو سليمان الحلبي.

وفي سنة ١٨٠٧ م عندما جاءت حملة فريزر الإنجليزية، وكان الوالي محمد علي مشغولا بمطاردة المماليك في الصعيد، قام علماء الأزهر بتعطيل الدروس والتطوع في المقاومة وحشد الأهالي بما أدى إلى هزيمة الإنجليز في موقعتي الحماد ورشيد ورحيلهم عن مصر.

وفي إطار النضال ضد الاستعمار أيضًا نجد أن عبد الله النديم قد شكل جيشًا من علماء الأزهر للتحريض والتطوع وجمع الأموال من أجل المجهود الحربي للجيش المصري ضد الإنجليز سنة ١٨٨٢ م، كما تكرر الأمر في ثورة ١٩١٩ م حيث كان الأزهر أحد أهم مراكز تلك الثورة.

وفي إطار النضال ضد الاستبداد نجد أن علماء الأزهر قد قادوا الشعب المصري للثورة ضد الوالي خورشيد باشا سنة ١٨٠٥م، بل وأفتي القاضي بجواز الخروج على الوالي الظالم وجواز قتاله ولو كان مسلمًا [١]، بل ونجد أن هؤلاء العلماء قد اشترطوا على محمد علي لتوليته واليا أن يرجع في كل أموره إليهم وألا يبرم رأيًا بدون مشورة العلماء والأعيان[٢].

ويذكر التاريخ بالفخر الشيخ حسن عليش الذي أفتي بكفر الخديوي توفيق لاستدعائه الأجانب الكفار، وقد انحاز الشيخ حسن عليش ومجموعة كبيرة من العلماء إلى عرابي ضد الخديوي توفيق سنة ١٨٨٢[٣].

(١)الرافعي ، تاريخ الحركة القومية جـ ٢.
(٢) المرجع السابق .
(٣)الرافعي، الثورة العرابية.

ومن الأزهريين المجاهدين أيضًا الشيخ علي الغاياتي الذي سخر قلمه للنضال ضد الإنجليز والخديوي، وكان يكتب القصائد الشعرية الملتهبة والتي تحض على مناهضة الاستعمار ورفض الاستبداد، بل ووصل الأمر إلى حد أنه عندما أصدر ديوانًا شعريًا قامت السلطات بمحاكمته مع كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش، وصدرت ضدهم الأحكام مما اضطر الشيخ علي الغاياتي للهرب من مصر سنة ١٩١٠، حيث واصل نضاله في المنفى[١].

وفي نفس الفترة نجد العالم الأزهري الشيخ عبد العزيز جاويش يتبنى تحرير صحيفة الحزب الوطني والمجاهد الذائب ضد الاستعمار والاستبداد[٢].

ولعلنا لا ننسى أن نذكر أن علماء الدين من أمثال الشيخ عبد الحميد كشك الذي تصدي للاستبداد الناصري والساداتي، وكذا الشيخ أحمد المحلاوي الذي قاد المعارضة لاتفاقية كامب ديفيد التي وقعها السادات مع الكيان الصهيوني في عام ١٩٧٨ م.

وليس الأمر قاصرًا على الموقف من الاستعمار والاستبداد، بل إن هناك من علماء الإسلام من دافع عن الأقليات غير المسلمة، فالشيخ زنبيلي علي أفندي شيخ الإسلام هو الذي وقف أمام السلطان سليم الأول العثماني عندما أراد تهجير بعض النصارى،وقال له :«ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم »[٣].

والشيخ الباجوري شيخ الأزهر في أثناء حكم عباس الأول تصدي للخديوي عندما أراد أن يبعد النصارى المصريين إلى السودان وقال له :«الحمد لله لم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ، ولم يستول عليها خلل وهم في ذمته إلى اليوم الآخر» [٤].

---

(١) الرافعي ـ محمد فريد.

(٢) المرجع السابق.

(٣) شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي.

(٤) الشرق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية.

الأفغاني والمنهج الثورى

لم يكن السيد جمال الدين الأفغاني باعثًا لحركة الثورة الإسلامية والنهوض الإسلامي في مصر وحدها بل وفي معظم بلاد العالم الإسلامي، فحركة الأفغاني وجهاده اشتملت على أفغانستان وإيران ومصر وتركيا والهند، فحيثما حل الرجل كان ثورة، كما امتدت آثاره السياسية والفكرية إلى تونس والجزائر والمغرب والسودان والشام، يقول د. محمد محمد حسين في كتابه الإسلام والحضارة الغربية :« لم تقف جهود السيد جمال الدين الأفغاني في هذا المجال على مصر وحدها بل تعدتها إلى بلدان إسلامية أخرى كالجزائر وتونس والشام والسودان والهند، فقد أشرك زعماء الحركة الوطنية في هذه البلدان في جمعية العروة الوثقى وغيرها من الجمعيات »[1].

ولا شك أن آثار السيد جمال الدين الأفغاني امتدت بعد ذلك لتشمل كل حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار سواء كانت مسلحة أو سلمية في معظم أقطار العالم الإسلامي.

ولكن لماذا حقق السيد جمال الدين الأفغاني كل هذه الآثار وأحدث تلك الهزة العنيفة في الوجدان الإسلامي .

إن السيد جمال الدين الأفغاني لم يأت بشيء جديد، ولكنه استند إلى الوجدان الشعبي المشبع بالروح الإسلامية وراح ينفض عن كاهل الأمة غبار التخلف والجمود، وكان

(١)د. ضياء الدين الريس، الحزب الوطني والنضال السري، الهيئة المصرية للكتاب.

السيد جمال الدين الأفغاني يمتلك عقلاً جبارًا وذكاءً خارقًا وحماسًا متقدًا، وعاطفة مشبوبة، عزيز النفس مترفع عن المال والجاه إذا تحدث أثر في السامعين حتى أبكاهم، وإذا أنكب على تحصيل العلم التهمه التهامًا[1].

استطاع السيد جمال الدين الأفغاني أن يحلل أوضاع المسلمين في تلك الفترة تحليلاً دقيقًا، وأن يلمس بيده أسباب التخلف وطرق الإقلاع من هذا التخلف، وتحقيق النهضة، وإذا حاولنا أن نرسم صورة لذلك التحليل الذي وضعه السيد جمال الدين الأفغاني عن طريق القراءة في العروة الوثقى أو غيرها مما كتبه السيد جمال الدين الأفغاني أو من محاضراته أو دروسه لوجدنا أن السيد جمال الدين الأفغاني كان يرى[2] :

أن الاستبداد وطغيان الحكام هما سبب تفرق كلمة المسلمين.

أن على المسلمين لكي ينهضوا أن يثوروا على الاستبداد ويقيموا الحكم الشورى العادل [3].

أن أوروبا تتربص ببلاد الإسلام وأن على المسلمين مقاومة النفوذ الأجنبي.

أنه لا طريق إلى النهضة إلا عن طريق نشر العلوم الطبيعية والاجتهاد في تحصيلها والاهتمام بالصناعة .

أن وحدة المسلمين هي الطريق الحتمي أمامهم للوقوف أمام تحديات الغرب الصليبي .

***

كان السيد جمال الدين الأفغاني من كبار دعاة الجامعة الإسلامية، وكان يرى المحافظة على الخلافة العثمانية باعتبارها جامع يجمع المسلمين من التفرق والتشرذم، ولكن هذا لم يمنعه من أن ينتقد السلطان بسبب الفساد أو الاستبداد،

(١)صدرت الأحكام بسبب هذا الديوان على كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش وعلي الغاياتي، فصدر الحكم على محمد فريد بالحبس ستة أشهر مع النفاذ، وعلى عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر، وعلى الشيخ علي الغاياتي بالحبس سنة مع الشغل.

(٢)محمد طاهر الجبلاوي، خمسة من شعراء الوطنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

(٣)عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد، دار المعارف.

وكان السيد جمال الدين الأفغاني يرى أن توجيه النقد للسلطان والتصدي لأسباب الفساد والاستبداد داخل الخلافة لا يضعفها بل يقويها لأن الفساد والاستبداد هما اللذان سيدمرانها، وبالتالي فمن واجب المسلم التصدي لهذا الفساد والاستبداد لحماية الخلافة نفسها[1].

***

كان السيد جمال الدين الأفغاني إسلاميًا فهم الإسلام ولذلك لم يكن متعصبا، ولا طائفيًا، بل استطاع أن يحشد خلفه ليس المسلمين فقط، بل كذلك المسيحيين واليهود على قاعدة الانتماء لحضارة الإسلام، وكان يري أن الحرب مع أوروبا هي حرب صليبية أساسا، ولكن هذا شيء ومحاولة تجميع كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية في خندق واحد أمام الحضارة الأوروبية الغازية شيء آخر، كان غير المسلمين يساهمون في تأييد والتلمذة على يد السيد جمال الدين الأفغاني على قاعدة الانتماء للإسلام كضارة وكثقافة وكوطن، وهكذا وضع السيد جمال الدين الأفغاني الأساس الصحيح للعلاقة بين المسلمين وغيرهم في بلادنا، وهي العلاقة التي تقوم على ضرورة انتماء غير المسلم في هذه البلدان إلى الإسلام كثقافة وحضارة ووطن، ولم يكن عجيبًا أن إسلامية السيد جمال الدين الأفغاني كانت من النضج بحيث نجد مسيحيين كسليم نقاش وأديب إسحاق ويهود مثل يعقوب صنوع من أهم مناصري الأفغاني وتلاميذه ومؤيديه[2].

***

ولأن الأفغاني كان إسلاميا، فقد كان منحازًا إلى الفقراء والمستضعفين، فهو يقول :« أيها الفلاح، يا من تشق الأرض بفأسك، لماذا لا تشق رأس ظالميك ».

ولأن الأفغاني كان إسلاميا فقد كان ثوريا لا يؤمن إلا بالثورة كوسيلة،

(١)د. إبراهيم عبد الله المسلمي، علي الغاياتي من وطنيتي على منبر الشرق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩ م.

(٢)فتحي رضوان ، عصر ورجال ، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٧م.

للتغيير، فالحرية والاستقلال لا يوهبان عن طيب خاطر، بل إن الأمم تحصل عليها بالقوة، أو بشق رأس الظالم كما كان يقول للفلاح وكان حربًا على الخرافة، فهو يرفض من يقول بالفناء في الله ولكن الفناء في رأيه يكون بالعمل على خدمة خلق الله ومساعدتهم والدفاع عنهم[1].

وهو دعوة إلى العلم والتعليم، فهو بنفسه يدرس لتلاميذه الرياضيات والفلك والكيمياء والطبيعة إلى جانب دروس التوحيد والفقه والأخلاق والفلسفة.

وهو المدافع عن الإسلام ضد الملحدين والماديين، بل ويحرر كتابًا في الرد على الدهريين يفحمهم فيه بالحجة والبيان .

إذن فالأفغاني هو باعث النهضة الإسلامية، وهو الأب الروحي للثورة العرابية، وله آثاره الممتدة شرقًا وغربًا على حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار، وهو المكافح ضد استبداد السلطان من داخل وفي إطار الدفاع عن الخلافة الإسلامية، هو الذي يدعو إلى مقاومة النفوذ الأجنبي والاستبداد، وهو المضطهد من نفي إلى نفي، وهو حرب على الجمود والخرافة، وهو يدعو إلى وحدة المسلمين، وإلى الجهاد وإلى الحرية وهو مع قضايا الإسلام على طوال الخط، ومع ذلك نجد البعض ينتقده لأنه انضم إلى المحافل الماسونية مع أن المسألة أبسط من ذلك بكثير، فلم تكن تلك المحافل قد انكشف أمرها، وحاول الأفغاني أن يستفيد بها فلما لم يستطع الاستفادة بها لفظها ولفظته وانتهى الأمر، وشأنه في ذلك شأن أي مناضل معاصر إذا ما حاول الاستفادة من جمعيات حقوق الإنسان أو أنشأ واحدة منها أو انضم إلى إحداها، ثم اكتشف بعد ذلك أن تلك الجمعيات العاملة في مجال حقوق الإنسان ليست بريئة الغرض فهل هذا يعيب هذا المناضل، إذا فمسألة المحافل الماسونية أيام جمال الدين لا تعدو أن تكون كالجمعيات الخاصة بحقوق الإنسان ، وإلى أن يتم اكتشاف حقيقة تلك الجمعيات فإنها تظل بريئة إلى أن يثبت العكس[2].

(١)نفس المرجع السابق.

(٢)نفس المرجع السابق.

محمد عبده والمنهج الإصلاحي

الفرق بين الأفغاني ومحمد عبده هو الفرق بين المنهج الثوري والمنهج الإصلاحي، وهو فرق كبير جدًا.

وصحيح أن الشيخ محمد عبده هو تلميذ الأفغاني، وصحيح أنه شارك معه في إصدار مجلة العروة الوثقى، ولكن هذا ليس كافيًا لأن الفرق بين الرجلين وبين الدراستين وبين المنهجين كبير جدًّا[1].

ولد الشيخ محمد عبده في بلدة « محلة نصر » من محافظة البحيرة سنة ١٨٤٩ م وحفظ القرآن الكريم ثم ذهب إلى الجامع الأحمدي بطنطا حيث تلقى العلم لمدة ثلاث سنوات، ثم ذهب إلى الأزهر فقضى به عامين ثم تتلمذ على يد السيد جمال الدين الأفغاني وأخذ عنه الفلسفة والتصوف والأصول وعلوم الرياضة والأخلاق السياسة، وبدأت مواهبه تتفتح فألف الفصول الممتعة في المنطق والفلسفة والتربية والاجتماع والأدب ونشرها في الصحف السائرة في ذلك العصر مثل الأهرام، ومصر، والتجارة، ثم نال شهادة العالمية من الأزهر سنة ١٨٧٧م، وأخذ يلقي الدروس في الأزهر في التوحيد والمنطق والأخلاق بأسلوب جديد لفت إليه الأنظار وحبب الطلاب في تلك العلوم، ثم تعلم اللغة الفرنسية لكي تساعده على الاطلاع على علوم الغرب وآدابه، وعين سنة ١٨٧٨م

(١)د. محمد مورو - صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر، ١٧٩٨ ـ ١٩٥٢، الزهراء للأعلام العربي، القاهرة ، ١٩٩٢.

مدرسًا للتاريخ بمدرسة دار العلوم، ومدرسًا للغة العربية في مدرسة الألسن مع الاستمرار في التدريس بالأزهر، ولما تولي رياض باشا رئاسة الوزارة في أوائل عهد الخديوي توفيق عينه محررًا بالوقائع المصرية، ثم رئيسًا لتحريرها، ويقول الرافعي :« إن محمد عبده لم يكن من أنصار الثورة العرابية حين شبوبها، بل مؤيدًا لرياض باشا، ولم يكن يشاطر العرابيين رأيهم في الحكم الدستوري، بل كان يجادلهم في ذلك ويميل إلى نظام الحكم الفردي المقرون بالإصلاح حتى يعم التعليم وتنضج الأمة للدستور »(الرافعي، الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي ص ٤٦٨)[١].

بل ويصل إلى حد إنشاء القصائد لتأييد رياض باشا ضد الثورة العرابية عقب حوادث ٩ سبتمبر ١٨٨١ م، حيث يقول في مطلع قصيدته : قامت عصابات جند في مدينتنا لعزل خير رئيس كنت راجيه ويقصد هنا بعصابات الجند « العرابيين »، وبخير رئيس « رياض باشا ».

بل لما وقع الخلاف بين العرابيين وشريف باشا في مسألة الميزانية انحاز إلى رأي شريف باشا، وكان العرابيون يرون أن مسألة الميزانية من صميم السيادة الوطنية ويجب رفض مطالب إنجلترا وفرنسا بمنع البرلمان من نظر الميزانية وكان شريف باشا يري الاستجابة لهذا المطلب الأوروبي[٢].

ولكن حين انتصرت الثورة في تلك المعركة، وسيطرت الثورة على الوزارة، وتم تشكيلها من العرابيين برئاسة محمود سامي البارودي، انضم الشيخ محمد عبده إلى الثورة وأصبح من دعاتها، وبعد هزيمة الثورة تمت محاكمة الشيخ محمد عبده وصدر عليه حكم بالنفي من البلاد ثلاث سنوات فذهب إلي باريس والتحق بالأفغاني وأصدر العروة الوثقى التي ما لبثت أن توقفت[٣].

وعاد الشيخ محمد عبده إلى مصر سنة ١٨٨٩ م، وأنقطع عن الكفاح

(١)د. عصام ضياء الدين، الحزب الوطني والنضال السري ١٩٠٧ ـ ١٩١٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧ م.

(٢)د. عصام ضياء الدين نفس المرجع السابق.

(٣)محمود عاصم، المرافعات في أشهر القضايا، المجموعة الجنائية الأولي، القاهرة، ١٩٣٣ ص ٣٠.

السياسي، بل لعن السياسة والساسة وقال في كتابه المشهور « الإسلام والنصرانية » أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس ، بل ندم على مشاركته في الثورة العرابية، وتوقف تمامًا عن مراسلة الأفغاني، بل حتى عندما مات الأفغاني لم يكتب الشيخ محمد عبده فيه أو عنه كلمة رثاء واحدة .

وفي تلك الفترة ارتبط الشيخ محمد عبده باللورد كرومر على أساس أن يحصل على تأييده في برنامجه الإصلاحي لتحسين وإصلاح الأوقاف والتعليم في الأزهر، واستطاع الشيخ محمد عبده أن يصبح مفتيًا للديار المصرية سنة ١٨٩٩م وكذلك أصبح عضوًا في مجلس الأوقاف ومجلس شوري القوانين، وبذل جهودًا كبيرًة في تحسين أحوال التعليم الأزهري ونشر المؤلفات السلفية وإحياء العلوم العربية[١] .

ولعل أهم آثار الشيخ محمد عبده الفكرية « رسالة التوحيد » وكذلك رده على طعنات المستشرقين على الإسلام في حواره مع المستشرق هانونو، وكذلك كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» وكذلك تفسيره للقرآن الكريم.

وتوفي الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ م، ولم يترك أموالا لورثته.

***

من حق أي إنسان أن يقول أن الشيخ محمد عبده كان رجلاص نزيهًا وشريفًا، ولم يكن جامع ثروة ولا طالب سلطة، وأنه فعل مافعل من أجل إطلاق يده في الإصلاح، ومن حق أي إنسان أن يقول أن الشيخ محمد عبده قد خدم الإسلام والفكر الإسلامي من خلال مؤلفاته وردوده على المستشرقين ومن خلال عمله في الأزهر والتعليم، ومن حق أي إنسان أن يقول أنه كان طاقة عقلية جبارة حققت التجديد في الفكر الإسلامي، وأنه كان أديبًا كبيرًا ويتمتع بمواهب كثيرة، ومن حق أي إنسان أن يقول أكثر من هذا، ونحن أيضا نرى هذا وأكثر منه في الشيخ محمد

(١)تقول أبيات إحدى هذه القصائد التي قيلت يوم إعدامه : قولوا لعين الشمس ماتحماشي أحسن غزال البر صابح ماشي.

عبده ولا نشك في إخلاصه ولكن ليس من حق احد أن يقول أن الشيخ محمد عبده كان امتدادا للأفغاني، وانه ينتمي إلى المنهج الثوري الإسلامي أو حتى لفكر الحركة الإسلامية، هذا شيء آخر تمامًا.

والمشكلة هنا أن بعض الدارسين وبعض الإسلاميين، بل وقطاعات كبيرة من الحركة الإسلامية تجعل الشيخ محمد عبده أحد روافد الفكر الثوري الإسلامي، وهنا مكمن الخطأ والخطر، فالشيخ محمد عبده لم يكن ثوريًا يومًا ما ولم يكن ينتمي إلى هذا المنهج أبدًا حتى ولو كان قد شارك في آخر مراحل الثورة العرابية، وحتى لو كان تلميذًا للأفغاني، وشارك معه في إصدار « العروة الوثقى » نعم لكل هذه الأمور أسبابها وظروفها التي لا تنفي ثورية الشيخ محمد عبده فحسب، بل تؤكد عدم إيمانه بهذا المنهج إطلاقًا، نعم من حق أي إنسان أن يشيد بالشيخ محمد عبده وهو يستحق الإشادة، ومن حقه أن يعتبره مصلحًا وأن يقول أنه قدم خدمات للإسلام والفكر الإسلامي، ولكن هذا شيء والنهج الثوري شيء آخر تمامًا[1].

بل من حق أي إنسان أن يفضل المنهج الإصلاحي على المنهج الثوري ويفضل بالتالي محمد عبده على الأفغاني والنديم ومصطفى كامل وحسن البنا، ولكن ليس من حقه أن يخلط بين هذا المنهج وذاك وليس من حقه أن يجعل محمد عبده أحد رواد الفكر الثوري أو فكر الحركة الإسلامية .

أكثر من هذا من حق أي إنسان أن يقول: إن الطريق الصحيح للنهضة الإسلامية يكمن في المنهج الإصلاحي وفي سلوك محمد عبده وأنه يجب إصلاح التعليم والتربية أولا .

من حقه أن يدين أسلوب الثورة الإسلامية ويقول أنه لن يؤدي إلى نتائج، بل حتى من حق أي إنسان أن يقول أنه لا أمل في إصلاح المسلمين لا بالثورة ولا بالإصلاح، ويجب بالتالي الاهتمام بدعوة أهل أوروبا أو أمريكا أو روسيا أو اليابان إلى الإسلام وبعد إسلام هؤلاء أو جزء منهم يمكنهم تحقيق النهضة

(١)د. محمود متولي، مصر وقضايا الاغتيالات السياسية، دار الحرية، القاهرة ١٩٨٥ م.

الإسلامية بما يمتلكونه من تقدم مادي، من حق أي إنسان أن يفكر ويختارالطريق الصحيح للنهوض الإسلامي، ولكن ليس من حق أحد أن يخلط الأوراق ويجعل الشيخ محمد عبده مفكرًا ثوريا أو أحد روافد الفكر الإسلامي[1].

ولكن من حقنا أن نتكلم عن المنهج الإصلاحي من خلال الشيخ محمد عبده، فالشيخ محمد عبده كان يريد البدء بإصلاح التعليم وترقية عقول الأمة حتى ولو من خلال السكوت على النفوذ الأجنبي أو تأييد المستبدين، فنجده يهاجم الثورة العرابية ويؤيد رياض باشا أكبر مستبد في عصره، بل ويؤيد أو يسكت عن النفوذ الأجنبي ويتحالف مع كرومر من أجل إطلاق يده في الإصلاح، وحتى في الفترة التي أيد فيها الثورة العرابية كان من منطلق أنها أصبحت القوة المسيطرة وبالتالي فلابد من التحالف معها لتحقيق الإصلاح، ولكن هل حقق الشيخ محمد عبده شيئًا؟

يقول زكريا سليمان بيومي في كتابه دراسة تاريخية في فكر الشيخ محمد عبده ص١١ :« كان تأييد كرومر له في خطواته الإصلاحية تأييدًا محدودًا، ومات الشيخ محمد عبده دون أن يحقق ما يصبو إليه » .

هذه مأساة الإصلاحيين، الذين يظنون أن بالإمكان الإصلاح في ظل الاحتلال الأجنبي أو الاستبداد، ويكتشفون في النهاية أنهم ماتوا ولم يصلحوا شيئًا، لأن الاحتلال والاستبداد ضد الإصلاح ويسمح بقدر منه في إطار الاستفادة من ذلك في ضرب الثورة لا أكثر ولا أقل.

وبديهي أن المنهج الثوري أكثر وعيًا وشمولية، لأنه يدرك منذ اللحظة الأولى أن النفوذ الأجنبي والاستبداد لن يسمحا بالإصلاح لأنه خطر عليهما، ولأن المنهج الثوري يعتقد أن القضاء على النفوذ الأجنبي والاستبداد مقدمان على كل شيء، بل النضال ضدهما هو الطريق الوحيد للإصلاح، والأمة تتعلم من خلال الثورة وتتطور أيضا من خلال النضال.

والمنهج الثوري أكثر شمولا، لأنه يأخذ في اعتباره الاستفادة من المصلحين

(١)طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق، القاهرة.

والإصلاحيين، ولكن دون أن يفرط في منهجه ولا في أهدافه ولا في وسائله، بل يستفيد من كل شيء ممكن مادام مشروعًا ومادام في صالح الثورة الإسلامية[1] .

المنهج الثوري منهج متسق مع نفسه، واضح المعالم، أما المنهج الإصلاحي فمنهج متردد، فترى أحد الإصلاحيين يؤيد الاستبداد ثم يلحق بالثورة ثم يعود فيندم على مشاركته في الثورة، بل ويلعن السياسة وكل مشتقاتها اللغويه.

المنهج الثوري يعرف أن الحليف الطبيعي والقادر على إنجاز النهضة هو الأمة ـ الشعب ـ الجماهير، أما المنهج الإصلاحي فيعمل من خلال النظام مهما كانت عيوبه، حتى ولو كان نظام احتلال أو خديوي مستبد، حتى ولو كان كرومر الذي جمد الاقتصاد المصري، وطارد الوطنيين، وألغي الحريات النيابية والصحافية، بل وحاول تدمير التعليم الوطني والقضاء على اللغة العربية، وهو الأمر الذي يهتم به المصلحون مثل الشيخ محمد عبده، ومع ذلك كان اللورد كرومر صديقًا للشيخ محمد عبده .

المنهج الثوري هو الأفغاني والنديم ومصطفى كامل والمنهج الإصلاحي هو محمد عبده .

(١)د. محمود متولي، مرجع سابق.

عبد الله النديم

عاش فقيرًا ومات فقيرًا، وظل دائمًا ملتصقًا بالشعب محبًا له لا يطيق الابتعاد عنه، وبادله الشعب حبًا بحب فأعطاه ثقته وحمايته، وسمع له دائمًا واستجاب .

عبد الله النديم، رجل متعدد المواهب، فهو خطيب فذ، بل هو أعظم من عرفت مصر من الخطباء، وهو كاتب يقطر قلمه حماسًا أو سخرية، وصحفي لامع تنفذ صحفه فور صدورها ويتخاطفها الناس، وهو زعيم الثورة العرابية الحقيقي، وهو كاتب مسرحي كبير.

لم يستغل عبد الله مواهبه المتعددة ولا ذكائه المتقد في جمع المال أو البحث عن الوظائف، وقد كان هذا ممكنًا، بل وطريقًا اتخذه الآخرون، ولكن ربط ثقافته بالشعب وجعل ثقافته من الشعب وإلى الشعب، فمات معدمًا في حين مات الطهطاوي وهو أقل ذكاءً وموهبة من النديم، وقد ترك ٢٥.. فدانًا عدا النقود والعقارات . أما النديم فمات وترك ثروة من العمل الجماهيري والرصيد الثوري وتجارب العمل الإسلامي الناضج وترك مدرسة هي من أهم مدارس الفكر الثوري في التاريخ ألا وهي مدرسة الثورة الإسلامية.

كان النديم كأستاذه الأفغاني إسلاميًا حتى النخاع ـ ولذلك ثوريا وجماهيريا ونصيرًا للمستضعفين .

كان النديم شعلة من الحماس، فهو في اليوم الواحد يحرر المقالات ويلقي الخطب في المنتديات، ويذهب إلى الفلاحين في الحقول أو ينظم المظاهرات أو يحشد الجماهير خلف

الثورة، أو يلقي تعليماته على جهازه الإعلامي المتكون من الأزهريين الصغار والمتوسطين، كان دائم الحركة لا تكاد تراه يسكن .

كان النديم هو القائد الحقيقي والفعلي للثورة العرابية، فهو الذي نظم خلاياها السرية الأولى، وهو الذي ضم إلى هذه الخلايا زعماء الثورة أمثال عرابي وعبد العال حلمي وعلي فهمي وغيرهم، وهو الذي لا يترك مواقع الثورة أينما تكون، فهو يجمع التوقيعات من أجل توكيل عرابي في الحديث باسم الأمة قبل ٩ سبتمبر ١٨٨١ م، وهو يحشد ويقود الجماهير لتقف مع الجيش في ميدان عابدين في٩ سبتمبر ١٨٨١ م، وهو يجعل الجيش والشعب في صعيد واحد من أجل الثورة، ويفسد المخططات الرامية لعزل الشعب عن الجيش في الثورة العرابية، فعندما يصدر القرار بإبعاد فرق الجيش الثورية عن القاهرة نجد النديم معها مسافرًا إلى دمياط أو الشرقية، وفي كل رحلة يحشد الجماهير لوداع الجنود ويخطب في الاثنين معًا لزيادة هذا التلاحم، وهو مع الجنود في القطارات المسافرة التي تقف في كل محطة تمر بها لتكون فرصة أخرى لزيادة التلاحم بين الشعب والجيش فنجد النديم قد أعد عدته ليقوم الأهالي في كل بلدة يمر بها القطار بعمل احتفال ومظاهر لإعلان التضامن، ونجد النديم كعهده دائمًا يخطب في هؤلاء ليزيد الوعي ويلقي على الثورة مزيدًا من الوقود لتأجيجها، وفي محطات الوصول يتكرر نفس الشيء بل يقوم بعمل علاقات تنظيمية في تلك البلاد التي استقرت بها فرق الجيش المنقولة بين خلايا الثورة في الشعب وفي الجيش - وكل هذا جعل الذين خططوا لإبعاد الجيش عن الشعب بنقل فرق الجيش الثائرة بعيدًا عن القاهرة يكتشفون أن كل ما قاموا به زاد من قوة الثورة وحقق لها الانتشار في الأقاليم وليس القاهرة وحدها . وذلك بفضل النديم - فيعيدون النظر في قرارهم ذلك ويقررون استعادة عرابي إلى القاهرة .

والنديم يذهب إلى الفلاحين في الحقول، ويذهب إلى الطلبة في معاهد العلم ليحشد ويحرض ويدعو إلى الثورة.

ويصدر النديم العديد من الصحف ويشارك في تحرير البعض الآخر من أجل تسليح الجماهير بالوعي والدعوة إلى الثورة – والدفاع عن المستضعفين ومهاجمة

أعداء الثورة ويركز على النفوذ الأجنبي والاستبداد الخديوي .

بل ويقوم بتأليف التمثيليات والمسرحيات لتكون أداة التغيير الثوري والدعاية الثورة مثل تمثيلية العرب وتمثيلية الوطن وطالع التوفيق، بل ويصبح الجهاز الإعلامي الثوري من أفضل ما عرفه تاريخ الثورات من إعلام بفضل النديم الذي يخطب ويدرب طلاب الأزهر أو المدارس أو خطباء المساجد على الخطابة الثورية، والذي يحرر الصحف ويدرب المحررين في الكثير من الصحف مثل التنكيت والتبكيت ـ مصر ـ التجارة، يرددها الناس في المظاهرات أو الحفلات على السواء.

وبعد أن تقرر إنجلترا ذبح الثورة بواسطة جيشها وأسطولها بعد أن استعصت تلك الثورة على التطويق والاحتواء، نجد النديم في كل موقع مع الجنود في القتال يخطب فيهم لرفع روحهم المعنوية، أو في القرية والمدينة يحرض الجماهير على التطوع أو التبرع بالمال والملابس والطعام فتستقبله الجماهير، فإذا بعشرات الألوف يتطوعون، وإذا بالتبرعات تنهال على خزائن الجيش حتى أنها تفيض عن الحاجة ويظل منها ما قيمته ٢ مليون جنيه بعد المعارك.

وبعد هزيمة الثورة ينجح النديم في الاختفاء ويجن جنون جنود الاحتلال وعسس الخديوي، فيقلبون الأرض بحثا عنه ويرصدون مكافأة ضخمة لمن يدل عليه (١٠٠٠ جنيه)، ولكن النديم كان مثقفًا وثائرًا شعبيًا، فإن الشعب كان يحميه ويتعالى على المكافآت، ويقدم له الشعب المأوي والطعام والحماية لمدة تسع سنوات كاملة، وكان الجماهير تريد أن تقول له أن المثقف الذي يضع ثقافته في خدمة الشعب، فإن الشعب يفهم هذا، الجماهير التي ربما باتت بغير عشاء أو حتى لم تر الجنيه في حياتها ترفض إغراء الألف جنيه وتتعالى عليه، بل وتعرض نفسها للخطر من أجل حماية النديم، أليس مطلوبًا من جنود الاحتلال، ومن عسس الخديوي ؟.

أحب النديم الشعب فأحبه الشعب، وحماه بنور العين حتى أن الكثيرين التقوا بالنديم في تلك الفترة وعرفوه ترفعوا عن الصغائر، ولم يبلغوا عنه، بل ساعدوه على قدر الإمكان، بل أكثر من هذا كان بعض المسئولين في جهاز البوليس

يتسترون على النديم إيمانًا بالإسلام والثورة وحبًا في النديم كإنسان أيضا، فمأمور مركز السنطة يقابل النديم وجهًا لوجه ولا يقبض عليه مخاطرا بوظيفته كمأمور، بل ويمنحه مالا من جيبه ليساعده في هروبه، وكاتب مركز السنطة أيضًا،- وكان النديم مختفيًا في قرية الجميزة مركز السنطة- يعرف أين يوجد النديم فيكتب إليه أبياتاً من الشعر تقول :

ولقد نذرت إذا لقيتك سالما لأقبلن مواطن الأقـــدام

ولأثنين على سجاياك التي حثت على التحرير والإقدام

وهذه الأبيات توضح إلى أي مدى كانت الجماهير تحب النديم، ولعل تجربة التسع سنوات التي نجح الشعب فيها في إخفاء النديم عن عيون السلطة الاستعمارية والخديوي توضح إلى أي مدى كم هي عظيمة إمكانيات هذا الشعب، وإلي أي مدى كان هذا الشعب مستعدًا لتقديم كل شيء من أجل ابنه الفذ عبد الله النديم.

وبعد التسع سنوات يظهر النديم ثانية، وتسقط عنه العقوبة بالتقادم فلم يقول كفاني تعبًا وتشريدًا وثورة، بل يستمر دون كلل ولا ملل، فيعود من جديد يعمل من أجل الثورة، ويصدر مجلة الأستاذ ليهاجم فيها الإنجليز والخديوي وتتلقفها الأيدي وتنفذ فور صدورها، وكلما زادت أعداد ما يطبع منها زاد إقبال الناس عليها، ليس هذا فحسب بل أن النديم يبدأ في بناء الخلايا الثورية ويجتمع سرًا مع الجيل الثاني ليسلم جذوة الثورة المشتعلة.

نعم يجتمع سرًا مع مصطفى كامل ومحمد فريد وينقل لهما خبراته الثورية ويعهد إليهما بمهمة استمرار الكفاح من أجل الاستقلال والحرية.

ومن الطبيعي أن تضيق به سلطات الاحتلال فتقوم بنفيه خارج مصر، فيذهب إلى حيث يلحق بأستاذه جمال الدين ليستمرا معًا في النضال إلى أن يموت النديم منفيًا في الآستانة .. كان النديم ثورة في كل يوم وكل ساعة وكل لحظة حتى الرمق الأخير.

النديم هو التجسيد الحقيقي للثورة الإسلامية، وهو الامتداد الطبيعي لمدرسة

الأفغاني ، كان النديم كأستاذه يؤمن بضرورة إيقاظ المسلمين من الجمود والتخلف، وضرورة حثهم على مقاومة النفوذ الأجنبي والاستبداد.

كان النديم يؤمن بالحرية حتى آخر مدي، فهو يرفض أن يكون البرلمان مجرد واجهة أو مجرد شيء مقصور على الأغنياء والوجهاء، بل يريده برلمانًا يضم كل فئات الشعب.

ولأن النديم كان إسلاميًا ثوريًا فإنه انحاز إلى الفقراء والمستعفين فدافع عن الفلاحين، وهاجم النفوذ الأجنبي والمرابين وكبار الملاك المستغلين للفلاح، بل وقدم رؤية قوية هامة في هذا الإطار ألا وهي أن ما يتمتع به الأغنياء هو من عرق الفلاحين وجهدهم، وفي الحقيقة فإنه هنا كان ينطلق من فهم إسلامي ناضج ويستند إلى التراث الإسلامي، أليس قول النديم هذا مستمد من قول الإمام علي ﷺ : « ما متع غني إلا بما حرم منه فقيرًا » ولأن النديم كان يفهم الإسلام كما هو وليس على هواه أو هوى بعض المستفيدين أو الأغنياء، فإنه أدرك أن الفقراء هم الحليف الطبيعي للثورة الإسلامية، فقال سأكون عصبة من الفقراء عندما وجد تردد الوجهاء والأعيان، والنديم هنا يستند إلى قول الله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾، أليست تلك الآية الكريمة توضح أن الأراذل أو المستضعفين والفقراء هم جنود الرسل، وهم الحلفاء الطبيعيون لهم، لدرجة أن المعسكر المعادي للرسل ينعي عليهم عدم انضمام أحد إليهم إلا الأراذل؟ (الأراذل في مفهوم المستكبرين طبعًا) ولكنهم الأفاضل في مفهوم الإسلام .

كان النديم إسلاميًا وثوريًا وينطلق في انحيازه إلى الفقراء والمستضعفين إلى التراث الإسلامي والفهم الإسلامي، ولكن بعض الذين لا يريدون أن يفهموا الإسلام أو يفهموا النديم يريدون أن يخرجوا الرجل عن إطاره فيقولون أنه اشتراكي علمي - أو طوباوي - أو اشتراكي وغيرها من المصطلحات .

وبديهي أن الإسلام منحاز إلى المستضعفين، وإذا تشابه هذا مع أي من تلك المذاهب فهو مجرد تشابه في لون عيون شخصين لا يمتان لبعضهما بصلة،

فالإسلام كان متميزًا ومستقلا وواضحًا وهو أسبق من كل تلك النظريات البشرية القاصرة .

كان النديم مثل الأفغاني، ومثل كل زعماء وجماهير الثورة العرابية يري أن القضاء على النفوذ الأجنبي هو أهم الأهداف إن لم يكن الهدف الوحيد، وكان النديم يفهم المسألة في إطارها الطبيعي.كان يدرك أن الصراع بين الحضارة العربية والصليبية الأوروبية صراع مستمر في الزمان والمكان، ولذلك نجد النديم يصف الغزو البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ م بأنه غزو صليبي وكان يحرض الجماهير من خلال هذا المنظور على مواجهة الغزو .

ليس هذا فحسب بل قبل الغزو البريطاني كان النديم ينبه الأذهان إلى المطامع الأوروبية المنطلقة من الحقد الصليبي، كان يهاجم النفوذ المالي الأوروبي عن طريق البنوك والربا والقروض، وكان يهاجم امتلاك الأجانب للمشروعات والوظائف، بل وكان يهاجم الاختراق الأخلاقي والثقافي الأجنبي لبلادنا، كان يهاجم القروض والإسراف والسفه والمرابين وبنوك المال الأوروبية، ويهاجم أيضا ما نشروه من خمارات ودعارات وقمار لأنه كان يفهم المسألة على أنها غزو حضاري سياسي واقتصادي وثقافي وأخلاقي .

وبسبب هذا اتهمه صابونجي وبلنت ورفعت السعيد بأنه مصاب بالتعصب الديني، وهذه تهمة لا تستند على حقيقة اللهم إلا أن الغرب ومدارسه الثقافية تري كل من يدافع عن بلاده ويكشف مطامع الغرب فيها بأنه مصاب بالتعصب الديني، كان النديم صادقًا مع نفسه فرأى الأشياء على طبيعتها رآها غزوًا صليبيا وصراعًا حضاريا فوصفها كما رآها، فوصفوه بالتعصب الديني وهو أبعد ما يكون عن التعصب لأن المسلم بحكم دينه وتراثه لم ولن يكون متعصبًا.

والنديم متهم عند صلاح عيسي بأنه نشر الهوس الديني لأنه كان يصف الأشياء كما رآها وكما هي حقيقتها، هل كان عليه أن يكذب ؟ حتى لا يصبح متعصبًا وغير ناشر للهوس الديني مثلا.

والنديم أيضا متهم عند صلاح عيسي بأنه أخطأ عندما استخدم الدعاية الدينية وحدها في تعبئة الجماهير، وهل كانت ومازلت الجماهير تفهم إلا هذه

اللغة ؟ وهل تتحرك الجماهير إلا من خلال الإسلام ؟، وهل يتكلم النديم بلغة لا يفهمها هو ولا تفهمها الجماهير أيضا ؟.

كان النديم جماهيريًا فكان إسلاميا، وكانت الجماهير ومازلت لا تتحرك إلا من خلال الأيديولوجية الإسلامية، وكان الصراع في جوهره صراعًا إسلاميًا صليبيًا، ولهذا كله استخدم النديم اللغة الوحيدة التي تعبر عن المسألة بصدق ولا تتجاهل الواقع ولا تتعالى على الجماهير.

obeikan.com

رفاعة الطهطاوي مثقف السلطة

رفاعة الطهطاوي هو نموذج كامل للمثقف المرتبط بالسلطة، يخرج من عباءتها ويخوض معاركها ويبرر لها ويستفيد من علاقته بها وهو لا يرتبط بالجماهير ولا يعرف عنها شيئًا، والجماهير بدورها لا تعرف عنه شيئًا ولا تصل إليها ثماره الفكرية، ولا تقتنع بها ولا تتأثر بشيء منها، وتظل الثقافة السلطوية التي يمثلها رفاعة الطهطاوي حبيسة صالونات السلطة أو دواوينها.

ولد رفاعة الطهطاوي في محافظة جرجا بصعيد مصر سنة ١٨٠١ م من أسرة فقيرة، حفظ القرآن في الكتاب، ثم التحق بالأزهر وقضي به ثمان سنوات بين دارس ومدرس، ثم عين واعظًا وإمامًا في الجيش المصري النظامي الذي أسسه محمد علي، ولما جاء عهد البعثات العلمية التي أرسلها محمد على باشا على أوروبا تم اختيار رفاعة الطهطاوي إمامًا للبعثة الأولى، فهو لم يكن مرسلا إلا بصفته واعظًا وإمامًا للطلاب وفي أثناء تلك البعثة استطاع أن يطلع ويدرس عددًا كبيرًا من العلوم الفرنسية والآداب الأوروبية والمذاهب السياسية والاجتماعية التي كانت تعج بها باريس، وبعد ست سنوات كاملة في فرنسا عاد رفاعة الطهطاوي إلى مصر سنة ١٨٣١، حيث عمل في خدمة كل من محمد على وسعيد وإسماعيل إلى أن توفي سنة ١٨٧٣ .

ويعد كتاب (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز) وكتاب (مناهج الألباب المصرية في مباهج الألباب العصرية) أهم أعماله وأثاره الفكرية، ويرى كثير من المثقفين المغتربين أن

رفاعة الطهطاوي هو رائد التنوير في الفكر المصري المعاصر، فالدكتور لويس عوض مثلا يفرد له فصلين في كتابه الفكر المصري الحديث تحت عنوان « رفاعة العظيم » والدكتور رفعت السعيد يفرد فصلين كاملين أيضا عن رفاعة الطهطاوي في كتابه تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر، الفصل الأول تحت عنوان الطهطاوي بستاني يغرس أزهارًا، والفصل الثاني تحت عنوان ولكن الأزهار لم تتفتح ولكنه لم يتساءل لماذا لم تتفتح تلك الأزهار.

وفي الحقيقة فإن هذه المسألة، أي عدم تفتح تلك الأزهار بفرض أنها كانت أزهارا هي جوهر الأزمة في رؤية المثقفين المغتربين للطهطاوي، وفي فكر وثقافة الطهطاوي نفسه .

لو فكر هؤلاء قليلا في المسألة لاكتشفوا الحقيقة الكاملة أنهم كانوا مخطئين حينما جعلوا الطهطاوي رائدًا للتنوير أو رائدًا للفكر الاشتراكي أو رائدًا لأي ثقافة على الإطلاق، إذ لو كان شيئًا من هذا لتفتحت الأزهار.

والحقيقة أن رفاعة الطهطاوي كان موظفًا يعمل في دائرة الثقافة أو التعليم التابعة لجهاز السلطة، ولم يخرج عن هذا الإطار أبدًا، كان هو كاتب السلطة ولسان السلطة يكتب من خلال كونه موظفًا لا أكثر ولا أقل، فإذا أرادت السلطة أن يروج الفكر الليبرالي تجده جاهزًا لهذا، وإذا أرادت أن يروج لفكر يعبر عن سيطرة الدولة على الإنتاج كما في عهد محمد على نجد الطهطاوي يفعل هذا، وإذا دخلت السلطة السياسية في مصر في معارك مع السلطان العثماني لانتزاع فرمان يزيد سلطتها في مصر تجد الطهطاوي يكتب عن أمجاد المصريين القدماء لتدعيم هذا المطلب تجاه الجماهير التي كانت متشربة بروح الخلافة الإسلامية حتى النخاع.

ولو نظرنا مثلا إلى الثورة العرابية باعتبارها تمثل أقصى حالات المد الجماهيري في ذلك الوقت، لوجدناها استمدت زادها الفكري والثقافي من الأفغاني والنديم، ولم نجد أي أثر لفكر الطهطاوي يظهر في الثورة أو من خلالها، وهذا أيضا دليل جديد على أن ثقافة الطهطاوي لم تخرج عن دائرة قصور

السلطة السياسية ولم تصل يومًا إلى الشعب بعكس الأفغاني والنديم، وهل يمكن اعتبار ثقافة لم يحس بها أحد في إطار ثورة كالثورة العرابية ؟ هل يمكن اعتبار هذه ثقافة تنوير؟.

ولكن لماذا هذا الإصرار من قبل المثقفين المغتربين على إبراز والاهتمام بالطهطاوي ؟ هل يرجع ذلك إلى أن ثقافة الاغتراب هي في حد ذاتها ثقافة سلطوية ومدفوعة الأجر تعمل لخدمة السلطة وبالتالي فهي تتجاهل الثقافة الشعبية أو تكيد لها وتحاول إبراز ثقافة مثل ثقافة الطهطاوي، أم أن ذلك يرجع إلى قصور في النظر أو عدم إلمامها بكل جوانب الموضوع وقطع الأشياء عن ظروفها الموضوعية أم خليط من كل هذا ؟.

على كل حال فمن المضحك مثلا أن يعتبر لويس عوض مثلا أن الطهطاوي كان رائد الفكر الليبرالي في حين يعتبره رفعت السعيد رائدًا للفكر الاشتراكي مع التناقض في المذهبين والفكرين، لو أمعن كليهما أو أحدهما النظر لعرف أن ما جاء من أفكار اشتراكية في كتابات الطهطاوي كانت مجرد تبرير ودعاية لنظام الاحتكار والسيطرة على كل أشكال ووسائل الإنتاج في عهد محمد علي، وأن ما جاء من أفكار ليبرالية في كتابات الطهطاوي كانت إما موجهة لانتقاد السلطان العثماني لخدمة محمد علي أو إسماعيل أو موجهة لخدمة المشروع الذي يريد إسماعيل تنفيذه في مصر تقليدًا لأوروبا، وطبعًا بشروطه ولصالحه هو.

والأعجب من هذا أن البعض يدعي أن الطهطاوي كان رائدًا للقومية المصرية لأنه تحدث عن أمجاد الفراعنة وحضارة مصر القديمة، ويتناسى هذا البعض أن ذلك كان لحساب السلطة السياسية التي تريد الاستقلال بالسلطة في مصر عن الخلافة العثمانية بدعم كامل من الغرب وخاصة إنجلترا وفرنسا، ولو كان الطهطاوي رائدًا للقومية المصرية لكان من الصحيح أيضا أن القومية المصرية نشأت في أحضان السلطة وبتشجيع كامل من الغرب الاستعماري وخاصة فرنسا وإنجلترا.

وعلى أي حال فإن الطهطاوي مثلا تجاهل مسألة النفوذ الأجنبي في مصر ولم يشر إليه من قريب أو بعيد لأن السلطة السياسية التي يعمل لحسابها لم تكن تريد

ذلك اللهم إلا في إطار بعض التناقضات الثانوية، وهذا يوضح الفرق الكبير بين النديم كمثقف شعبي منحاز إلى قضايا الجماهير، وبالتالي كان التخلص من النفوذ الأجنبي على رأس اهتماماته لأنه كان على رأس اهتمامات الجماهير .

ولعل الأستاذ طارق البشري قد أصاب كبد الحقيقة عندما قال : وآية ذلك أن رفاعة في « تخليص الإبريز في تلخيص باريز» لم يهتم كثيرًا بالنظام الاقتصادي في أوروبا لأن الليبرالية الاقتصادية الأوروبية كانت على طرف نقيض مع نظام محمد على الاقتصادي القائم على الاحتكار، فقصر جهده وقتها في الحديث عن الليبرالية السياسية التي تشكل في الأساس تحديًا للسلطان العثماني، وعلي عكس ذلك فعل الطهطاوي في ١٨٦٩ م في كتابه « مناهج الألباب » فركز اهتمامه في الاقتصاد ولم يهتم بالنظام السياسي إذ كان احتكار محمد على قد تفكك من نحو ثلاثين عامًا وكان النظام السياسي بمصر قد استقر في الأسرة الخديوية العلوية فتخلي رفاعة عن كثير من الليبرالية السياسية وأسقط عن رئيس الدولة مسئوليته الدستورية إلا أمام ضميره وربه والتاريخ، أما أمام الرأي العام فبالنصح فقط [1].

كان الطهطاوي موظفًا في جهاز السلطة التعليمي والثقافي، وقد خدم السلطة في هذا الإطار بحماس، وحصل على المقابل بسخاء، فعلى حين أنه بدأ حياته معدمًا فقيرًا لدرجة أن الرافعي في ترجمته له ص ٤٣. من كتاب عصر محمد على يقول عنه:« كان الطهطاوي إلى ذلك الحين فقيرًا رقيق الحال إذ كانت والدته تنفق عليه مما تبيعه من الحلي والعقار، وكان يستعين على معاشه بإعطاء دروس لأنجال الوجهاء » نجد أنه مات وقد ترك لورثته ٢٥٠٠ فدان عدا المباني والعقارات (وفقًا لعلي مبارك في كتابه الخطط الجديدة).

إذًا فقد خدم الطهطاوي السلطة واستطاع أن يحصل في المقابل على إنعامات وهدايا ومرتبات تسمح له بتكوين ثروة من ٢٥٠٠ فدان، وقارن هذا بالنديم الذي مات منفيًا لا يملك ثمن كفنه.

(١) طارق البشري- المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق ص ٢٧٠.

وكل ما سبق لا يوحي بأن الطهطاوي كان رجلاً غير شريف أو مرتشي أو خالي من الكفاءات، ولكن المسألة أنه عمل كموظف وأخلص لوظيفته ولم يفهم الثقافة هنا كرسالة أو مهمة تنويرية أو غيرها، وإنما فهمها كوسيلة للترقي وزيادة الإنعامات والمرتبات وكان في ذلك نموذجًا لعدد كبير ممن دخلوا سلك الوظائف المدنية أو العسكرية من أجل تحسين أوضاعهم الاقتصادية، والطهطاوي كان من هؤلاء، وقد دخل في خدمة جهاز الدولة الثقافي ونبغ في هذا الإطار لا أكثر ولا أقل، بل هو أيضا لم يتخل عن ثقافته الإسلامية التي حصل عليها في الأزهر، بل وكان فقيهًا متميزًا وموسوعيًا إلا أنه أيضا استفاد بتلك الثقافة الأزهرية في الدعوة إلى سياسات النظام والسلطة ومحاولة جعلها تتفق مع التراث الإسلامي أو على الأقل لا تخرج عن إطار هذا التراث، بل لا مانع أيضا أن يحاول الطهطاوي خدمة قضايا التراث الإسلامي بما لا يضر السلطة ولا يتعارض معها.

هذا هو الإطار الحقيقي لفهم الطهطاوي، وأي خروج به عن إطار الموظف يوقع في مجموعة من الأخطاء المنهجية والثقافية والتاريخية ويجعل المسألة مجردة من الموضوعية، بل تصبح افتئاتا على الرجل وعلى الثقافة.

البارودي والأرستقراطية الثورية

يمثل محمود سامي البارودي نموذجا متميزًا لأكثر من سبب أولها أنه كان ينتمي إلى طبقة كبار ملاك الأراضي في العصر الذي كان يعيش فيه، وهو عصر الخديوي إسماعيل، وهو أيضا شركسي الأصل أي ينتمي إلى الأرستقراطية التي كانت تحكم مصر من خلال الأسرة الخديوية وتتمتع بجميع المزايا المترتبة على ذلك من وظائف ونفوذ وأموال. ومع كل هذا فإنه ضحي بمصالحه الشخصية والأسرية والطبقية والحسبية وانحاز إلى الثورة العرابية لأنه أدرك أن « الولاء للإسلام »، والثورة الإسلامية أهم من كل شيء من المال والوظائف والطبقة. ولأنه عرف أن الثورة على النفوذ الأجنبي والاستبداد الخديوي من أهم فرائض الإسلام فإنه كان من أكثر الثوريين ثورية في إطار الثورة العرابية، ومن أكثرهم تماسكًا وصمودًا بعد هزيمة الثورة وظل متمسكًا بمبادئ الثورة في السجن أو في المنفي رغم أن الكثيرين اعتراهم الضعف الإنساني الذي يصيب المناضلين في السجون أو المنافي وانقلبوا على مبادئ الثورة أو ندموا على مشاركتهم في الثورة .

ولد البارودي في مصر سنة ١٨٤٠ م وهو شركسي الأصل، وكان جده أحد الملتزمين الذين يتحكمون في عدد كبير من المساحات الزراعية، وكانت بلده إيتاي البارود هي إحدى مناطق التزام جده بل وسميت باسمه، دخل البارودي المدرسة الحربية وتخرج فيها سنة ١٨٥٥م، ثم ذهب

إلى الأستانة وتعمق في دراسة اللغة الفارسية بالإضافة على التركية التي كان يجيدها مثل كل الأرستقراطية المصرية في ذلك الوقت، وعاد على مصر في أوائل عهد الخديوي إسماعيل وأخذ يرقى إلى أن أصبح برتبة لواء وشارك في العديد من المعارك مثل حروب كريت والحرب بين تركيا وروسيا، وأبلى في المعارك بلاء حسنًا، ثم عين بعد ذلك محافظًا لمحافظة الشرقية سنة ١٨٧٦ م، ثم مديرًا للعاصمة (القاهرة) ١٨٧٧م، ثم وزيرًا للمعارف والأوقاف في وزارة شريف باشا ١٨٧٩م، وبعد أن أصبحت الثورة العرابية في أوج انتصارها في أوائل سنة ١٨٨١ م أصبح وزيرًا للحربية، ثم رئيسًا للوزراء أوائل سنة ١٨٨٢ م، وبعد هزيمة الثورة ودخول الجيش الإنجليزي إلى القاهرة تمت محاكمته ضمن زعماء الثورة وصدر الحكم بالنفي المؤبد ضده وتمت مصادرة أملاكه وتجريده من رتبه ونياشينه وتوفي سنة ١٩٠٤م .

تأثر محمود سامي البارودي بأفكار الزعيم الإسلامي العظيم جمال الدين الأفغاني، وكان أحد تلاميذه المخلصين، كان يؤمن بضرورة إيقاظ المسلمين والقضاء على النفوذ الأجنبي، وعلى الاستبداد الخديوي وبناء قاعدة إسلامية في مصر على أساس العدل والحرية وإنصاف الفقراء ونصرة المستضعفين، وكان يعرف أن هذه نفسها هي مبادئ الثورة العرابية وأهدافها ومع ذلك انضم إلى الثورة منذ وقت مبكر وأصبح من كبار زعمائها على الرغم من أنه يعرف أن انتصار الثورة العرابية يعني ضياع نفوذه الطبقي والقضاء على الخديوي الشركسي مثله، وأن هزيمتها تعني محاكمته وضياع أمواله، بل ورقبته ذاتها أو حريته على الأقل، ومع كل هذا انحاز إلى الثورة مضحيًا بمصالحه الأسرية والطبقية، ومغامرًا أيضا بكل مستقبله العريض إذا فشلت الثورة.

لم يكن طالب سلطة، لأنه كان لواء وباشا وشركسي ومن نفس الطبقة التي تحكم مصر، بل هو بالتحديد من كبار الملاك ومن كبار الموظفين أيضا فقد عمل مديرًا للشرقية ثم مديرًا للعاصمة ثم وزيرًا للمعارف والأوقاف، وكل هذا في ظل حكومات ما قبل الثورة.

ولم يكن طالب جاه أو نفوذ بل مضحيًا بكل هذا من أجل مصلحة الأمة

الإسلامية، ومن أجل مبادئ الإسلام العظيمة التي درسها وآمن بها على يد الأفغاني.

بل أكثر من هذا أنه من كبار الثوريين المتشددين، فعندما تمت محاكمة الضباط الشراكسة المتآمرين على زعماء الثورة سنة ١٨٨٢ م والمعروفة باسم مؤامرة الضباط الشراكسة، كان البارودي من أشد المتحمسين لتنفيذ أقصى الأحكام عليهم رغم أنه مثلهم شركسي، بل ودخل مع الخديوي في معركة حول ضرورة عدم تخفيف الأحكام الصادرة ضدهم، أي أنه كان مواليًا للإسلام والثورة أكثر من ولائه لأي شخص آخر.

وبرغم نشأة البارودي المترفة والناعمة، كان من أكثر زعماء الثورة صمودًا في السجن أثناء المحاكمة، وفي المنفي بعد المحاكمة وظل يتمتع بروح معنوية عالية، وظل مخلصًا لمبادئ الثورة حتى النهاية رغم أن الكثيرين تخلوا عنها أو ندموا عليها تحت قسوة ظروف السجن والمنفي.

والبارودي ليس مجرد زعيم ثوري، بل أيضا على حد قول الرافعي :« إمام الشعر الحديث »، وأول من نهض به وجاري في نظمه فحول الشعراء المتقدمين فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول الخمود »

ليس هذا فحسب بل إن البارودي قد خاض معركة كبيرة للدفاع عن اللغة العربية الفصحى ضد الدعاوى الاستعمارية التي أرادت أن تروج للغة العامية حتى تقطع الأواصر بين العرب، وحتى تصبح لغة القرآن الكريم لغة غريبة علينا .

مصطفى كامل

(١٨٨٩، ١٩٠٧)

زعيم إسلامي شعبي

الحركة الإسلامية، حركة ممتدة في الزمان والمكان، ، وهي حركة أمة لإنقاذ العالم من القهر والظلم والاستبداد، ومع ظهور الاستعمار الأوروبي في المنطقة وسقوط الخلافة الإسلامية وتفكك عري بلاد المسلمين، تمثلت الحركة الإسلامية في حركات الكفاح الشعبي الثوري والجهادي ضد الاستعمار، ومصطفى كامل أحد حلقات هذا الكفاح الشعبي ضد الاستعمار الإنجليزي في مصر.

كانت حركة الكفاح الشعبي في مصر ضد الاستعمار الأوروبي قد بدأت من الأزهر ضد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م، وقاد عمر مكرم الشعب المجاهد ضد حملة فريزر ١٨٠٧، ثم جاءت الثورة الإسلامية العرابية لمواجهة النفوذ الأجنبي في مصر واستبداد الأسرة الخديوية.

ومع فشل الثورة العرابية، واحتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢، حاولت سلطات الاحتلال الإنجليزي بالتعاون مع الخديوي والخونة اجتثاث جذور حركة الجهاد الشعبي في مصر والقضاء عليها، ونجحت تلك السلطات في القضاء على كثير من عناصر الثورة بالنفي أو السجن أو القتل، ولكن عبد الله النديم استطاع أن يختفي سبع سنوات كاملة ١٨٨٢ ـ ١٨٨٩، وأن يحافظ على شعلة الثورة متقدة إلى أن سلمها إلى مصطفى كامل سنة ١٨٨٩ م من خلال اللقاء به عن طريق لطيف سليم باشا أحد قيادات الثورة التي أفلتت من سلطات الاحتلال – وفي بيت سليم باشا نقل عبد الله

النديم دروس الثورة ومواعظها وخبراتها إلى مصطفى كامل، وعلى كل حال لم تلبث سلطات الاحتلال أن قامت بنفي عبد الله النديم إلى خارج مصر– ولكن جذوة الثورة ورايتها كانت قد انتقلت إلى يد مصطفى كامل.

كان مصطفى كامل يدرك أن الأجواء الشعبية الثورية في حالة جزر، وأن روح اليأس تسيطر على كثير من النفوس في أعقاب فشل الثورة العرابية، وهكذا وضع مصطفى كامل أمام عينيه محاولة بث روح الأمل والثورة في النفوس – وبدأ مصطفى كامل يجوب أنحاء مصر ليخطب في التجمعات الشعبية بأسلوبه المؤثر يبعث في النفوس الأمل ويحث الجماهير على الكفاح.

إسلامية مصطفى كامل

حركة الكفاح الشعبي في مصر ضد الاحتلال الأجنبي حركة إسلامية قلبًا وقالبًا، مصطفى كامل امتداد طبيعي لعمر مكرم – الأفغاني – النديم – والحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل هو حزب الجامعة الإسلامية.

يقول مصطفى كامل في مقدمة كتابه :« المسألة الشرقية » الذي صدر سنة ١٨٩٨م :« إني أضرع إلى الله فاطر السماوات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر السرمدي – ليعيش المسلمون والعثمانيون مدى الدهر في سؤدد ورفعة وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها وللإسلام إمامه وناصره » ويضيف مصطفى كامل :« اتفق الكتاب والسياسيين على أن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع القائم بين دول أوروبا وبين الدولة العلية العثمانية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها ، وبعبارة أخري هي مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا، وقال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام؛ أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية :(المسألة الشرقية ص٥) .

ويضيف مصطفى كامل :« إن العناصر التي أشعلت الفتن كالأرمن تستعملها بعض الدول كانجلترا فهي تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية.

وقد ثبت ذلك جليا في المسألة الأرمينية وشوهد أن الأرمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروتستانت يثورون ويدبرون المكائد ضد الحكومة العثمانية، فمسألة الدين في الدولة العلية العثمانية هي للآلة القوية التي يستعملها أصحاب الدسائس والغايات، وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة العثمانية إنما يثورون ضد أنفسهم ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعبثهم وجنونهم وإتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركين لهم، فالذين ماتوا من الأرمن في الحوادث الأرمينية إنما ماتوا فريسة للدسائس الإنجليزية، والذين ماتوا في كريت ماتوا فريسة الدسائس الإنجليزية؛ بل الذين ماتوا من اليونانيين ماتوا فريسة الدسائس الإنجليزية ذاتها – المسألة الشرقية ص٨، ٩ .

ويقول مصطفى كامل في ضرورة المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية « ولكن الحقيقة هي أن بقاء الدولة العلية ضروري للجنس البشري، وأن في بقاء سلطاتها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق، وقد أحس الكثيرون من رجال السياسة و الإعلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام وأن زوالها لا قدر الله مجلبة للأخطار ومشعلة لنار يمتد لهيبها بالأرض شرقًا وغربًا، وشمالا وجنوبًا، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية، وأن الذين يدعون لخير النصرانية في الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحي الشرق عمومًا قبل مسلميه، فقد أجمع العقلاء البصيرون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين تجري كالأنهار والبحار في كل واد (المسألة الشرقية ص ١٣، ١٤) .

ويقول في سعي إنجلترا لهدم الخلافة العثمانية وتعضيدهم لكل خارج عليها: « قد علمت إنجلترا أن احتلالها لمصر كان ولا يزال سببًا للعداوة بينها وبين الدولة العلية وأن المملكة العثمانية لا تقبل مطلقًا الاتفاق مع إنجلترا على بقائها في مصر، ولذلك رأت إنجلترا أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية في طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر، وأن خير وسيلة تضمن لها البقاء في

مصر وبقاء يدها على وادي النيل هي هدم السلطنة العثمانية، ونقل الخلافة العثمانية إلى أيدي رجال يكونون تحت وصاية إنجلترا، ويكون آلة في أيديهم ولذلك أخرج الإنجليز مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان في وجه الدولة العلية، ولذلك أيضا كنت ترى الإنجليز ينشرون في جرائدهم أيام الحوادث الأرمينية مشروع تقسيم الدولة العلية ـ حماها الله ـ جاعلين لأنفسهم من الأملاك المحروسة مصر وبلاد العرب أي السلطة العامة على المسلمين (المسألة الشرقية ص ١٩٠).

ويقول أيضا:« إن الذي يبغضه الإنجليز في السلطان العثماني هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة العثمانية ، ولذلك اهتم الإنجليز بالأفراد القليلين الذين قاموا ضد الخلافة وقدموا لهم المساعدة، ومن هؤلاء الداعون إلى خلافة عربية حيث يريد الإنجليز إقامة خلافة عربية تحت وصايتهم، وفي ذلك كتب المستر بلنت أن مركز الخلافة يجب أن يكون عربيًا وأن الخليفة يجب أن يكون رئيسًا دينيًا فقط لا ملكًا دنيويًا، أي أن الأمور الدنيوية تترك للإنجليز لتقدير أمورها كيف تشاء »، (المسألة الشرقية ص ١٩٠).

ويختم مصطفى كامل الفصل الأول في كتابه (المسألة الشرقية) بالدعوة إلى الالتفاف حول راية الخلافة العثمانية قائلا :« واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة إنجلترا للدولة العلية أن يجتمعوا حول راية الخلافة وأن يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفاني الكبير منهم في هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيدًا، وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة المقدسة، وأن يعززوها بالأموال والأرواح ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وبقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية » المسألة الشرقية ص ٢٣.

ويلمح مصطفى كامل إلى التعصب الصليبي في سلوك مستر جلادستون في خطابه له بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦ قائلا :« وإلا فهل مسلمو مصر أقل استحقاقا لرعايتك العالية من مسيحي الأرمن ؟ ».

وفي إطار دعوة مصطفى إلى نشر التعليم حرص على تأكيد الطابع الديني

للتعليم بالعلوم الإسلامية ومكارم الأخلاق في نفس الوقت مع الاهتمام بالعلوم العصرية والطبيعية، يقول مصطفى كامل :« يجب تأسيس المدارس في كل مكان على أساس من الدين القويم والتربية السليمة » (المؤيد عدد ٣١ يوليو سنة ١٨٩٥).

يقول الرافعي : « إن مصطفى كامل اتجه إلى تقوية الروابط بين الشعوب الإسلامية فأصدر صحيفة أسبوعية باسم العالم الإسلامي، كان ينشر بها كل ما يهم الإسلام من المقالات والأنباء » (الرافعي ـ مصطفى كامل ص ٤٣١).

ويوحد مصطفى كامل الدين والوطنية في صعيد واحد قائلا :« قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية وأن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء، ولكني أري أن الدين والوطنية توأمان متلازمان »، خطبة مصطفى كامل بالإسكندرية في يونيو سنة ١٩٠٠ م.

ويصف مصطفى كامل الحضارة الأوروبية بأنها حضارة ظالمة قائلا :« من سوء حظ الجنس البشري أن المدنية الحاضرة أعلنت الرق في الشعوب وسمحت بمخالفة الذمة والشرف في المعاملات الدولية » خطبة مصطفى كامل في القاهرة في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ م .

ويلخص مصطفى كامل أحوال العالم الإسلامي في زمانه قائلا :« إن هناك أسبابا واحدة لتأخر المسلمين وأن نهضتهم تكون بوسائل واحدة، وأن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط، بل هو قانون اجتماعي أيضًا، وأن ميل المسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي » من مقال مصطفى كامل في صحيفة الطان الفرنسية. عدد٨ ديسمبر سنة ١٩٠٦ . التناقضات الجوهرية والتناقضات الثانوية

لا شك أن قضية التناقضات الجوهرية والتناقضات الثانوية من القضايا الهامة التي مازالت تشغل جزء كبير من الاهتمام الإسلامي والثوري عمومًا، ولا شك أن الظروف الدولية التي ظهر في ظلها مصطفي كامل تمثل نموذجًا هامًا في هذا الإطار.

وبداية فإن مصطفي كامل - مثل غيره من الزعماء الإسلاميين- كان يدرك أن هناك تناقضًا جوهريًا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية، وأن المعسكرين المتميزين هما معسكر الشعوب الإسلامية من ناحية ومعسكر الغرب

الاستعماري الصليبي وحلفاؤه من الحكومات العميلة من ناحية أخري، وأن التاريخ القديم والحديث يؤكد على حقيقة هذا التناقض الجوهري، ولكن هناك أيضًا تناقضات ثانوية بين قوى المعسكر الاستعماري ذاته وإنه لا مانع من الاستفادة بها بشرط أن نتأكد دائمًا إنها مجرد تناقضات ثانوية وأنه لن يحسم المعركة مع الاستعمار إلا كفاح الشعوب، كان هناك تناقضات ثانوية بين إنجلترا وفرنسا في إطار التسابق الاستعماري، ولكن هذا التناقض الثانوي ما لبث أن تلاشي عند ظهور الثورة الإسلامية العرابية، بل وقامت فرنسا بمساعدة إنجلترا على احتلال مصر مضحية بمصالحها في مصر لأن هذا أفضل من ظهور ثورة إسلامية قوية في مصر تكون خطرًا على المشروع الاستعماري بكامله، أو خطرًا على المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا، وقد عبر عن ذلك وزير خارجية فرنسا في ذلك الوقت في تهنئة للسفير الإنجليزي في باريس بمناسبة احتلال الإنجليز مصر ونجاحهم في القضاء على الثورة العرابية.

على أي حال حاول مصطفي كامل أن يستفيد من التناقض الثانوي بين إنجلترا وفرنسا في الدعوة للقضية الوطنية، ولكن مع تصاعد الحركة الوطنية في مصر وقوتها تلاشت تلك التناقضات الثانوية، ووقع الإنجليز والفرنسيين الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤م الذي يقضي بإطلاق يد إنجلترا في مصر مقابل إطلاق يد فرنسا في الجزائر والمغرب، أي أن فرنسا شجعت الحركة الوطنية في مصر لتحسين ظروف التفاوض مع إنجلترا في إطار التسابق الاستعماري لا أكثر ولا أقل.

وفي نفس إطار التناقضات الثانوية، شجع الخديوي عباس حلمي الثاني الحركة الوطنية و مصطفي كامل، وحاول مصطفي كامل الاستفادة من الخديوي،ولكن مع تصاعد الحركة الوطنية في مصر، خاف الخديوي عباس حلمي الثاني من خطرها على عرشه فأدار لها ظهره وأظهر الود للإنجليز، أي أن الخديوي عباس حلمي الثاني أيضًا أراد من دعم الحركة مجرد تحسين أوضاعه أمام الإنجليز لا أكثر ولا أقل والمحافظة على أكبر قدر ممكن من السلطة في مصر

من السيطرة الإنجليزية.

وعلى أية حال فخبرة هذه التجربة تؤكد أنه لا فائدة كبيرة من الاعتماد على تلك التناقضات الثانوية، ولكنها أيضًا لا تمنع من الاستفادة بها بشرط إدراك أنها مجرد تناقضات ثانوية لا تلبث أن تزول مع تصاعد قوة الحركة الوطنية، وأن الطريق الوحيد لحسم المعارك الوطنية هو الاعتماد على سواعد الجماهير.

ولا شك أن مصطفي كامل كان يدرك ذلك كله ويعمل في إطاره، لأن الحركة الوطنية المصرية استمرت وتصاعدت بعد الاتفاق بين الإنجليز والفرنسيين، وبعد أن أدار الخديوي عباس حلمي الثاني ظهره لها، ولو كانت تعتمد على الفرنسيين أو الخديوي أساسًا لانهارت بمجرد تخلي هذه أو ذاك.

وقد عبر مصطفي كامل عن وعيه بهذه المسألة قائلاً : « إن المعتمد على أوروبا واقف على هاوية عميقة القرار » (اللواء - عدد ٢٨ أغسطس - سنة ١٩٠٠) .

محمد فريد
زعيم من طراز فريد

كان الزعيم محمد فريد متفردًا في كل مزاياه، فهو مسلم شديد التدين، وهو ثوري شديد الثورية، وهو متجرد ومخلص إلى أقصى درجة، وهو منحاز إلى الفقراء والمستضعفين برغم كونه من أسرة ثرية، ثم هو يعطي بلا حدود، فينفق معظم ثروته على العمل الوطني ويموت في المنفي فقيرًا مريضًا.

الجامعة الإسلامية:

محمد فريد هو خليفة مصطفي كامل على زعامة الحزب الوطني منذ ١٩٠٧ وقبل ذلك كان الرجل الثاني في الحزب وهو رفيق كفاح مصطفي كامل منذ البداية وبالتالي فإن مبادئ الحزب الوطني في حياة مصطفي كامل هي نفسها مبادئ محمد فريد لأنه شارك في صنعها وآمن بها منذ البداية، ثم استمر على نفس المبادئ في فترة زعامته للحزب الوطني منذ ١٩٠٧ وحتى وفاته سنة ١٩١٩، وكانت تلك المبادئ هي الجامعة الإسلامية ـ الجلاء ـ وحدة وادي النيل ـ الدستور.

وفي إطار الإيمان بوحدة المسلمين « الجامعة الإسلامية » انفرد محمد فريد بتأجج هذا الإيمان وقوته لدرجة أنه ألف كتبًا عن تاريخ الدولة العلية العثمانية طبع سنة ١٨٩٣ م ثم أعيد سنة ١٨٩٦ م ثم في سنة ١٩١٢ م مما يدل على ثبات موقف محمد فريد في هذا الصدد.

يقول محمد فريد في مقدمة هذا الكتاب :« إن الملك العثماني قد لم شعث الولايات الإسلامية، وإن التعصب الديني في الممالك الأوروبية قد قام لتفتيت هذه الوحدة، وإن الدولة العلية هي الحامية لبيضة الإسلام والمدافعة عن حرية شعوب الشرق والزائدة عن حياضه ».

ويقول الرافعي: « إن سياسة محمد فريد الإسلامية هي سياسة مصطفي كامل، فقد عمل على توثيق عرى التعاون والتضامن بين الأمم الإسلامية، وكان يدعو إلى هذه الغاية في مقالاته وخطبه وأحاديثه ». (الرافعي ـ محمد فريد، ص ٤٩٦).

وقد اهتم محمد فريد في منفاه في أوروبا بإنشاء جمعية ترقي الإسلام، كما أصدر مجلة بالفرنسية للتحدث باسم هذه الجمعية وتعمل على نشر المقالات الإسلامية والأخبار التي تهم العالم الإسلامي.

كما حرص محمد فريد - كما يقول الرافعي- على توثيق علاقة مصر بتركيا، لكي يحبط المساعي الإنجليزية التي كانت ترمي إلى حمل الحكومة التركية بمختلف الوسائل على الاعتراف بمركز الاحتلال البريطاني في مصر. (الرافعي ـ محمد فريد، ص ٤٩٦) .

الانحياز إلى الفقراء والمستضعفين :

وانطلاقًا من فهم محمد فريد للإسلام وانطلاقًا من التزامه بمبادئ هذا الدين الحنيف فإن محمد فريد انحاز انحيازًا واضحًا إلى الفقراء والمستضعفين، كما اهتم بنشر التعليم، وتتجلي جهوده تلك في دراسته للميزانية في اجتماعات الحزب الوطني، ودعوته إلى تعديلها للإنفاق على إصلاح حالة الشعب والعناية بالصحة والأحياء الوطنية، ففي يوم ٧ يناير سنة ١٩١٠م يقول محمد فريد :« إن هناك إهمال واضح للأحياء الشعبية، وهناك عدم اعتناء بصحة الأهالي لدرجة مروعة إذ ثبت بالإحصاء أن متوسط الوفيات في السنة يتراوح بين (٨٠ –٦٠) في الألف مع أنها في مدن أوروبا عن ٢٥ في الألف مطلقًا وليس هذا لفقر الميزانية المصرية ولكن من إهمال مصلحة الصحة وصرفها المبالغ المخصصة لها في الأحياء التي يقطنها الإفرنج وإهمالها باقي الأحياء ».

وفي نفس الخطبة يقول محمد فريد :« إن المعاهدات التجارية التي تبرمها الحكومة مع الدول لا تراعي مصالح البلاد الاقتصادية، فيجب الاهتمام بالحاصلات الضرورية للفقراء وعدم فرض ضرائب عليها، بل يجب فرض الضرائب والجمارك على المنتجات الأجنبية وتشجيع الصناعة الوطنية، وليس من المعقول أن نفرض على الحنطة والدقيق نفس الضرائب التي تؤخذ على الخمور، بل ليس من المعقول أن تفرض الحكومة ضريبة ٨٠٪. على المغازل المصرية في حين تعفي صناعة الخمور منها ».

دعا محمد فريد إلى وضع تشريع للعمال يراعي مصالحهم ويرفع عنهم البؤس والجهل والإرهاق، كما اهتم بإنشاء نقابات للعمال والصناع لترقية أحوالهم والعناية بشؤونهم، وساهم بنفسه في تأسيس نقابة للصناع بالقاهرة وهي نقابة عمال الصنائع اليدوية وأنشأ لها ناد ببولاق، كما اهتم بدعم قيادات الحزب الوطني، وساهم في إنشاء العديد من الجمعيات التعاونية الزراعية والصناعية في القرى والمدن، وقد وجه محمد فريد تلاميذه إلى بذل جهودهم لدعم الحركة التعاونية والمشروعات الاقتصادية واعتبر هذا عملاً وطنيًا من الدرجة الأولي. (الرافعي ـ محمد فريد ص ٤٩٩).

كما وجه محمد فريد عنايته بالتعليم فسعى إلى تأسيس مدارس الشعب الليلية لتعليم الصناع والعمال مجانًا، وأسس العديد من هذه المدارس في القاهرة والبنادر، وكان يدعو دائمًا إلى تعميم التعليم الابتدائي وجعله مجانيًا وإلزاميًا لكل مصري ومصرية، كما ساهم في إنشاء الجمعيات الخيرية بهدف تأسيس المدارس، وعمل على إنشاء مدرسة ثانوية في كل مدينة، وكان من أهم العناصر المؤسسة لمشروع الجامعة المصرية، واكتتب في مشروع الجامعة المصرية بمبلغ مائتي جنيه سنويا.

وقد وصل انحياز محمد فريد إلى الفقراء إلى درجة أن مدام رينيه سجلت بنفسها القول بأن أفكار محمد فريد تكاد تكون متقاربة مع أفكار لينين حول استغلال الرأسمالية لطبقات الشعب (المصور، ١٤ نوفمبر ١٩٦٩ حديث صحفي مع

صديقة محمد فريد الفرنسية مدام رينيه ص ٣٠، نقلاً عن د. عصام ضياء الدين، الحزب الوطني والكفاح السري، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١١٥).

وفي الحقيقة فإن كراهية محمد فريد للرأسمالية وانحيازه للفقراء، كان نابعا من الإسلام، وأن اتفاقه في الأفكار مع لينين لا يرجع إلى إيمان محمد فريد بالماركسية أو الاشتراكية، بل يرجع إلى الفهم العميق للإسلام الذي كان يمثله محمد فريد وبديهي أن الإسلام ينحاز إلى الفقراء ويكره استغلال الشعوب، ويحارب الرأسمالية بطريقة أكثر جدوى وعملية من الماركسية والاشتراكية وغيرها من المبادئ والنظريات الوضيعة التي انهارت الآن بعد إفلاسها، ولو لجأت البشرية إلى الإسلام كحل لقضايا الظلم الاجتماعي لكان مصير البشرية الآن مختلفاً ولكان الفقراء والمستضعفين قد حصلوا على حقوقهم كاملة، ولكان عصر الرأسمالية البغيض قد انهار منذ فترة طويلة.

الإعداد للثورة

كان محمد فريد يؤمن بأن الأسلوب الوحيد لمقاومة الاحتلال هو الكفاح الشعبي السلمي والمسلح ـ العلني السري ـ وقد سجل الدكتور عصام ضياء الدين في كتابه الرائع «الحزب الوطني والكفاح السري ١٩٠٧ـ ١٩١٥م» الرأي بأن محمد فريد قد لعب دورا كبيرا بالاتفاق مع كل من عبد العزيز جاويش وإبراهيم الورداني في إنشاء وإدارة الكثير من المنظمات والجمعيات السرية بهدف تسليح الجماهير بالوعي والقوة والإعداد للثورة على الإنجليز والخديوي، وأن محمد فريد كان يستهدف إنشاء تنظيم سري وكبير في كل مكان استعداداً لتلك الثورة، وفي الحقيقة فإن سلطات الاحتلال قد أشارت إلى وجود ٨٥ منظمة سرية مسلحة تابعة للحزب الوطني سنة ١٩١٠، وهو رقم كبير جدًا يدل على مدى انتشار تلك الجمعيات السرية.

يقول د. عصام ضياء الدين في نفس المرجع السابق الإشارة إليه ص ٢٩٣ : وفي الحقيقة فإنه لولا تلك الجهود التي بذلها الحزب الوطني وقيادته الثورية لما نشبت ثورة ١٩١٩، فمما لا شك فيه أن الكوادر الثورية التي خلقها الحزب في مصر كان مقدرًا لها القيام بالثورة قبل هذا التاريخ بسنوات ولكنه نظرًا لظروف

الإرهاب والنفي والاضطهاد والتنكيل التي مارستها سلطات الاحتلال على الوطنيين أثر حادثة بطرس غالي وطيلة سنوات الحرب العالمية الأولي فإنه لم يكن هناك مناص من تأجيل الثورة، فالحزب الوطني حرك في المصريين مرة أخرى مشاعر الثورة بعد السكون الرهيب الذي أطبق على الحياة في مصر بعد انتكاسة ثورتها سنة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ م، وكانت الفترة من ١٩٠٨ ـ ١٩١٢ م حين خرج محمد فريد من البلاد فترة نضوج ثوري بعد جهود الحزب المخلصة في تحرير الشعب وممارسة العنف الثوري الذي تجلى في الحوادث العديدة التي شهدتها مصر منذ ١٩١٠م إلى ١٩١٥م.

الشيخ عبد العزيز جاويش

هو من الشخصيات الهامة التي لعبت دورًا في الحياة الوطنية المصرية من خلال الحزب الوطني، بل يعد الرجل الثاني في الحزب بعد محمد فريد خاصة في الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٢م وهي الفترة التي تولي فيها الشيخ عبد العزيز جاويش رئاسة تحرير جريدة اللواء الناطقة بلسان الحزب الوطني، وهو منصب هام ولاشك ويعبر ثقة الحركة الوطنية في مصر في الشيخ عبد العزيز جاويش ويعبر أيضًا عن مدى وطنية وإخلاص الشيخ عبد العزيز جاويش للحركة الوطنية في مصر ومبادئها الراسخة كالجامعة الإسلامية والجلاء ووحدة وادي النيل، والدستور والدفاع عن المستضعفين.

ولاشك أن الجهد الكبير الذي بذله الشيخ عبد العزيز جاويش وما لاقاه من صعوبات، وما قدمه من تضحيات في سبيل الحركة الوطنية في مصر، وكذلك ثقة تلك الحركة وزعيمها محمد فريد في الشيخ عبد العزيز جاويش لدرجة إسناد منصب رئيس تحرير جريدة الحزب الرسمية إليه إنما يعبر عن روح الجامعة الإسلامية والعالمية الإسلامية أيما تعبير، حيث الشيخ عبد العزيز جاويش تونسي الأصل، ولكن الواجب الإسلامي الذي يرفض القوميات والحدود بين المسلمين هو الذي دفع الشيخ عبد العزيز جاويش إلى تلك الجهود والتضحيات، وهو أيضًا الذي جعل الحركة الوطنية في مصر بقيادة محمد فريد تقدم هذا الرجل التونسي ليكون معبرًا عنها ورئيسًا لتحرير جريدتها الرسمية.

«وكان محمد فريد قد تعرف بالشيخ عبد العزيز جاويش في مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥، وعرفه بمصطفي كامل سنة ١٩٠٦ بباريس فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية والإسلامية ».

ومن سنة ١٩٠٥ انخرط الشيخ عبد العزيز جاويش في الحركة الوطنية في مصر برغم أنه تونسي الأصل لأن الدفاع عن قضايا المسلمين والإسلام أمر لا يتجزأ، وقد أسند إليه محمد فريد رئاسة تحرير جريدة اللواء سنة ١٩٠٨ واستمر يعطي في ذلك الموقع عطاءً وطنيًا متميزًا حتى سنة ١٩١٢، حيث تم نفيه إلى الأستانة.

وقد تمت محاكمة الشيخ عبد العزيز جاويش عدة مرات بسبب مواقفه الوطنية وحماسه الشديد للقضايا الوطنية في مصر والسودان، فقد حوكم في يوليه ـ أغسطس سنة ١٩٠٨ بتهمة إهانة وزارة الحربية لنشر قضية «الكاملين» التي دافع فيها الجاويش عن أهالي بلدة الكاملين بالسودان بقيادة الشيخ عبد القادر واتهم الحكومة بإحداث مذبحة مثل مذبحة دنشواي في بلدة الكاملين بالسودان وأنها أعدمت ٧٠ رجلا، وحكمت بالسجن المؤبد على ١٣ آخرين، وقد قضت المحكمة التي نظرت القضية ببراءة الشيخ عبد العزيز جاويش من التهم الموجهة إليه.

كما حوكم للمرة الثانية في يونيو ـ أغسطس ١٩٠٩، وذلك لنشر مقالة عن ذكرى حادثة دنشواي وقد قضت المحكمة بحبس الشيخ عبد العزيز جاويش ثلاثة اشهر قضاها الرجل صامدًا محتسبًا.

أما المرة الثالثة، فقد كانت سنة ١٩١١، وذلك بسبب كتابة مقدمة كتاب وطنيتي الذي ألفه الشيخ على الغاياتي، وهو أحد محرري جريدة اللواء وأحد مناضلي الحركة الوطنية في ذلك الوقت، وقد صدر الحكم على الشيخ عبدالعزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر أخرى قضاها الرجل أيضًا صابرًا محتسبًا، وقد صدر حكم بالحبس على محمد فريد ستة أشهر أيضًا في نفس القضية، قضاها محمد فريد بعد عودته من أوروبا.

كان الحزب الوطني في ذلك الوقت قد أنشأ عددا كبيرا من الجمعيات السرية لمقاومة الانجليز وللإعداد لتفجير الثورة الشاملة ، وقد لعب الشيخ جاويش دورا كبيرا مع كل من محمد فريد وإبراهيم الورداني في هذا الصدد ،وفي محاولة من الحزب الوطني للتغطية على الجمعيات السرية، قام الشيخ عبد العزيز جاويش بإنشاء عدد من جمعيات العلنية، ليستقطب إليها اهتمام البوليس السياسي الذي تم إنشاؤه خصيصًا لمتابعة الجمعيات السرية، ولتكون غطاء للعمل السري في نفس الوقت، فأسس الشيخ عبد العزيز جاويش جمعية التشجيع على التعليم الحر ، وجمعية « حصن اليتامى » وجمعية الإخلاص الوطنية »، كما قام الشيخ عبد العزيز جاويش أيضا بتأليف كتبًا عن النظام الإيطالي للفوضويين ونظامًا للشفرة للتراسل السري في سبتمبر ١٩١٠.

وكانت سلطات الاحتلال تعتبر الشيخ عبد العزيز جاويش « أكثر الجماعة خطرا وتعصبًا، ووصفته سلطات الاحتلال بأنه داعية سيئ الشهرة، وأن حبسه من قبل لم يقلم أظافره، وأنه يشكل تهديدًا مستمرًا للنظام العام والأمن العام، وأنه يدبر المؤامرات لتحريض الطلبة والعمال والفلاحين، وأنه يتمتع بجملة من الميزات تجعل منه ثوريا خطيرا بسبب تعليمه وذكائه وموهبته ككاتب وكخطيب، وأنه ليس من الصعب على داهية مثله أن يقوم بأية أعمال ضارة، ويظل بمنأى عن طائلة القانون وفي الحقيقة فإن الشيخ عبد العزيز جاويش كان من أهم قيادات الحزب الوطني على المستوي السياسي. وكان يدير بكفاءة عددًا من المنظمات السرية، بل إن نشاطه أمتد في كل شيء، لدرجة أنه بالإضافة إلى نشاطه الوطني أسس مجلة « الهداية » للدفاع عن الدين الإسلامي في مواجهة بعثات التبشير، وقد شارك الورداني معه في إنشاء تلك المجلة وتحريرها ».

عمر بك لطفي

هو أحد أبناء الحزب الوطني ، ومن أهم الشخصيات في تاريخ مصر المعاصر، وهو رائد الحركة التعاونية المصرية، وقد ظهرت فكرة التعاون في مصر على يد هذا الرجل العظيم، وقد نادي بتلك الفكرة من خلال نادى المدارس العليا الذي كان رئيسًا له، فقد ألقى عمر بك لطفي أو محاضرة له عن التعاون يوم الأول من نوفمبر سنة ١٩٠٨ في نادي المدارس العليا شرح فيها مزايا التعاون وأهميته لمصر لأنه وحده الكفيل بالقضاء على آفة الربا الماحقة على حد قوله في تلك الخطبة.

وفي الحقيقة فإن قراءة الخطب والمحاضرات التي شرح فيها عمر بك لطفي فكرة التعاون وأهميتها نجد أنه تناول الأفكار الآتية: « أن التعاون هو الكفيل بإنقاذ البلاد من آفة الربا الماحقة » :« يعتقد بعض الناس أن تفريج الأزمة المالية لا يكون إلا بجلب رؤوس الأموال من البلاد الأجنبية، وهذا خطأ كبير »: « وعندي أن أساس الاستقلال والحرية في كل أمة هو الاستقلال الاقتصادي » : « علينا أن نوجه مجهوداتنا كافة لتقوية وتنمية مصادر الثروة المصرية الحقيقية ».

ولعل تلك المفاهيم والأقوال التي نادي بها عمر بك لطفي تعكس الاهتمام المبكر للحركة الوطنية المصرية لقضية الاستقلال الاقتصادي، وقضية بناء نمط اقتصادي مستقل وغير تابع ومستمد من الإسلام، فعمر بك لطفي يدعو

بالتحديد إلى رفض الديون الأجنبية، والاعتماد على الذات وتنمية ثرواتنا، ويدرك أن أساس الاستقلال هو الاستقلال الاقتصادي، ويدعو إلى التعاون للقضاء على آفة الربا، ولتحقيق النهضة الاقتصادية المستقلة، أي نمط اقتصادي مستقل وغير تابع ومستمد من الإسلام.

وقد استمرت الحركة التعاونية بعد وفاة عمر بك لطفي على يد تلاميذه من أعضاء الحزب الوطني وفي مقدمتهم أحمد بك لطفي « شقيقه » فتأسست العديد من شركات التعاون والنقابات، وانتشرت أفكاره التعاونية، فقد تأسست النقابة العامة للتعاون المنزلي والزراعي سنة ١٩١٢، ثم توالى تأسيس النقابات العمالية والزراعية والتعاونية، وصدور التشريعات الحكومية بذلك تحت الضغط الشعبي، إلا أنها اشتملت على كثير من العيوب التي كبلتها بها الحكومة خوفًا من تصاعد المد الشعبي والوطني من خلال الحركة التعاونية والنقابية، وانتهى الأمر بصدور عددًا من القوانين التي جعلت التعاون حكوميًا بحتًا مما جعل الأمر أشبه بالجثة الميتة أو مجرد هيئة تتبع الحكومة، وتتحرك من خلال الأوامر الحكومية مما أفقدها مضمونها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، مثل قانون ١٩٢٣، وقانون ١٩٢٧، وقانون ١٩٥٤، وقانون ١٩٦١.

الأزهري الثائر الشيخ علي الغاياتي

الشيخ علي الغاياتي هو واحد من ذلك الجيل من المجاهدين الإسلاميين الذين تخرجوا من مدرسة الحزب الوطني أمثال مصطفي كامل، محمد فريد، عبدالعزيز جاويش، إبراهيم الورداني، وهو ذلك الجيل الذي حمل شعلة النضال الإسلامي الوطني في بداية هذا القرن، ويعتبر حلقة الوصل بين الأفغاني والنديم وبين حسن البنا، وهذا الجيل هو الذي أعد العدة للثورة التي اندلعت بعد ذلك سنة ١٩١٩ م .

الشيخ علي الغاياتي عالم دين مناضل، وهو نموذج للأزهري الثائر الذي يضطلع بدور رجل الدين الإسلامي الحقيقي في الكفاح ضد الاستعمار والاستبداد وتبني مطالب الأمة والدفاع عن قضاياها، وهو أيضًا الشاعر الملهم الذي يفيض قلمه رقة وعذوبة، وإلى جانب الرقة والعذوبة يتقد حماسًا ووطنية، وهو الصحفي القدير الذي يحرر المقالات ويصدر الصحف المتميزة والملتزمة بقضايا الشعب بكبرياء الإيمان والثورة ولا يمد يده إلى أحد أو يبيع قلمه إلى جهة رغم قسوة الظروف .

مولده وحياته :

ولد الشيخ علي الغاياتي في ٢٤ أكتوبر ١٨٨٥ بمدينة دمياط، ودخل الكتاب مبكرًا فأتم حفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره وينحدر نسبه إلى الرسول ﷺ.

التحق علي الغاياتي بالمعهد الديني بدمياط، ثم التحق بالأزهر الشريف وانخرط في القاهرة في الصحافة الوطنية التابعة للحزب الوطني وفي النضال الوطني عمومًا ضد الاحتلال الإنجليزي والاستبداد الخديوي، حيث تعرض للاضطهاد مرارًا، وعندما أصدر ديوانه الشعري الأول تحت عنوان « وطنيتي » والذي قدم له كل من محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وهو ديوان يحمل قصائد شعرية تبث الروح الوطنية وتنعي على الاحتلال والخديوي، عندما أصدر هذا الديوان قامت الحكومة المصرية بمصادرته وتحويل الغاياتي ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش إلى المحاكمة ، فاضطر علي الغاياتي إلى الفرار إلى تركيا سنة ١٩١٠، ثم منها إلى جنيف حيث استقر هناك واستمر يواصل نضاله الوطني وأصدر صحيفة منبر الشرق التي اهتمت بشئون العالم الإسلامي ونضاله ضد الاستعمار.

وقد ظل الغاياتي يصدر هذه الصحيفة بانتظام رغم الظروف الصعبة من ٥ فبراير ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٣٧، حيث عاد إلى مصر ونقل جريدته معه، واستمر في إصدارها دفاعًا عن القضية الوطنية المصرية، وتوفي الرجل في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٥٦م.

نضاله الوطني

نشأ الغاياتي في ظروف تاريخية معقدة، حيث كانت مصر قد وقفت في قبضة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢ م، وكانت الحركة الوطنية المصرية متمثلة في الحزب الوطني تحاول بعث الروح الوطنية واستنهاض الشعب المصري ضد الاحتلال، وكان من الطبيعي أن يحدث صدام واضطهاد من سلطات الاحتلال الإنجليزي وسلطات الخديوي ضد عناصر الحركة الوطنية المصرية.

نشأ الغاياتي في هذه الظروف في مدينة دمياط، وكان طالبًا بالمعهد الديني بها اصطدم بإدارة المعهد حيث تم فصله بسبب نشاطه الوطني، فاضطر للعمل مدرس بالمدارس الابتدائية الخاصة .

وعندما انتقل إلى القاهرة شارك بحماس في العمل الوطني من خلال الحزب الوطني، الذي كان يعد في ذلك الوقت لإشعال الثورة ضد الاحتلال ، وأخذ

الغاياتي ينظم القصائد الشعرية الملتهبة التي تحض على الوطنية والجهاد ومناهضة الاستعمار وبث العزيمة والحماس في صفوف الجماهير، وقام بنشر هذه القصائد في صحف الحزب الوطني التي كانت تصدر في ذلك الوقت، كما قام بنشر العديد من المقالات في مختلف الصحف المصرية مثل جريدة الجوائب المصرية، اللواء وغيرهما ، مما أثار حفيظة السلطات الإنجليزية والخديوي عليه، فقامت السلطات بزجه في السجن بتهمة مخالفة قانون التجنيد « سجن القشلاق الأحمر »، ولكن هذا الأمر لم يغير من موقف وصلابة الرجل فاستمر على نفس الخط الوطني النضالي بل تصاعدت نبرته الوطنية والنضالية المناهضة للاحتلال فقام بجمع القصائد التي نشرها من قبل، وأصدرها في ديوان تحت عنوان « وطنيتي » سنة ١٩١٠م، وقام كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش بكتابة مقدمة لهذا الديوان، إلا أن السلطات رأت أن هذا الديوان ليس مجرد قصائد شعرية بل شواظ من نار وقذائف تتلظي وقذائف على رأس الاستعمار ، فقامت بتحويل كل من محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وعلي الغاياتي إلى المحاكمة وأحس الغاياتي أن السلطات تتربص به، وأنها لا محالة سوف تسجنه خاصة وأنها تسيطر على القضاء عن طريق القضاة الأجانب، فقام بالتنكر في زي أفندي وكان قبل ذلك يلبس الملابس الأزهرية دائما وسافر إلى تركيا.

وبعد سفره صدرت الحكم من المحكمة بحبسه عامًا مع الشغل، وكان الحكم غيابيًا بالطبع، كما صدرت الأحكام بحق كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش الأول الحبس ستة أشهر مع النفاذ والثاني الحبس ثلاثة أشهر، وقد نفذ محمد فريد الحكم كاملاً ولبس في السجن ستة شهور كاملة.

***

ما إن وصل علي الغاياتي إلى تركيا حتى واصل الاتصال بزملائه في الحركة الوطنية المصرية داخل وخارج مصر واستمر يكتب المقالات في الصحف التركية والأوروبية دفاعًا عن قضية بلاده، كما راسل العديد من الصحف المصرية، ثم انتقل إلى جنيف سنة ١٩١١م، حيث استقر هناك مواصلا نضاله في المنفي، وفي

أعقاب ثورة ١٩١٩م أصدر الشيخ علي الغاياتي سنة ١٩٢٢م صحيفة منبر الشرق، وهي من أهم الصحف التي صدرها الرجل حيث تواصلت بدون انقطاع في المنفي حتى عام ١٩٣٣ م، ثم عاد بها إلى مصر مع عودته سنة ١٩٣٧م، واستمر يصدرها إلى أن توفي عام ١٩٥٦م.

ولم تكن جريدة منبر الشرق في سنوات المنفي مجرد صحيفة تنشر أخبار الوطن المصري والعربي والإسلامي، وتدافع عن حقوق المصريين و العرب والمسلمين والشرقيين عمومًا، بل كانت منتدي لزعماء هذه الأمة كلها.

أما في مصر فقد استمرت جريدة منبر الشرق تناهض الاحتلال وتدعو إلى الحرية، واتخذت طريقًا مستقلاً فلم ترتبط بأحد الأحزاب المصرية في تلك الفترة، وخرجت صحيفة نظيفة نقية من كل خطأ وترتفع فوق كل شائبة وتدعو في أدب واتئاد إلى كل فضيلة.

إبراهيم الورداني

الحركة الوطنية ذات الطابع الإسلامي هي التي حملت على كاهلها دائمًا مهمة الكفاح ضد الاستعمار والاستبداد ومحاولة تحقيق النهضة، ومنذ الكفاح الإسلامي الذي قاده علماء الأزهر ضد الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ثم حملة فريزر سنة ١٨٠٧ م فإن هذا الكفاح لم ينقطع وتمثل في حركة جمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم والتي تمخضت عن اندلاع الثورة العرابية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢)، وحتى بعد الاحتلال الإنجليزي لمصر فإن راية الكفاح لم تسقط حيث سلمها عبد الله النديم إلى مصطفي كامل ثم محمد فريد .

وكان الحزب الوطني (مصطفي كامل، ومحمد فريد) قد أعد العدة لثورة كبرى ضد الإنجليز ونجح في إقامة خلايا سرية مسلحة في كل مكان في مصر، وكانت إحدى هذه الخلايا برئاسة الشاب الوطني إبراهيم الورداني.

يقول الدكتور عصام ضياء الدين في كتابه «الحزب الوطني والنضال السري» لم تنشب ثورة ١٩١٩ من فراغ، بل كان محمد فريد يعد لهذه الثورة العدة منذ عام ١٩٠٩، وكان مقدرًا لها القيام في عام ١٩١٤، ولكن حال دون قيامها اندلاع الحرب الكبرى الأولى ونفي الزعامات الوطنية وزج العديد من الوطنيين في السجون .

خرج إبراهيم الورداني إذًا من إحدى الخلايا السرية التي كان محمد فريد قد أعدها لتفجير ثورة شاملة ضد الاحتلال

الإنجليزي، وقام باغتيال بطرس باشا غالي رئيس الوزراء المصري يوم ٢٠ فبراير ١٩١٠ م وذلك لمنعه من تنفيذ مخطط مد امتياز قناة السويس.

التعريف به

هو إبراهيم محمد ناصف الورداني، ولد سنة ١٨٨٦، وكان والده محمد أفندي ناصف الورداني يعمل مأمورًا في بعض مراكز القطر المصري، دخل إبراهيم الورداني عددًا من المدارس المصرية حتى نال البكالوريا سنة ١٩٠٦، ثم سافر إلى سويسرا ليدرس الصيدلة في جامعة لوزان حتى عام ١٩٠٨، ثم سافر إلى إنجلترا حيث نال منها شهادة في الكيمياء والتاريخ الطبيعي، وعاد إلى مصر سنة ١٩٠٩ حيث عمل صيدليا وافتتح له صيدلية بالقاهرة بشارع عابدين، كما ترأس نقابة الصنائع اليدوية ببولاق وهي إحدى النقابات المهنية والعمالية التي أنشأها الحزب الوطني في مصر.

كان إبراهيم الورداني أحد عناصر الحزب الوطني وقد ألف عدد من الجمعيات الثورية لمناهضة الاحتلال والدعوة إلى الجلاء أثناء إقامته بأوروبا، وعندما عاد إلى مصر شارك مع محمد فريد في إنشاء الخلايا السرية اللازمة لتفجير الثورة ضد الإنجليز.

عرف عن إبراهيم الورداني أنه شاب حميد الأخلاق أبي النفس، محبوب من جميع زملائه، وكان نحيف الجسم أسود البشرة، أجعد الشعر متوسط القامة.

كانت الخلية التي يرأسها الورداني، وهي إحدى خلايا الحزب الوطني المنتشرة في ذلك الوقت تسمى جمعية التضامن الأخوي، والتي تشترط كل من يريد أن يصبح عضوا فيها أن يكتب وصيته.

وقد توفي إبراهيم الورداني في ٢٨ يونيو ١٩١٠، وذلك بعد تنفيذ حكم الإعدام شنقا عليه، وهو الحكم الذي صدر ضده بعض القبض عليه عقب اغتياله بطرس غالي.

أسباب اغتيال بطرس غالي

تعمد إبراهيم الورداني الإدلاء باعترافات تفصيلية عن أسباب قيامه بعملية

الاغتيال وذلك لتحقيق أكبر أثر سياسي ممكن من وراء العملية، وفي الحقيقة فإن الجرائم التي ارتكبها بطرس غالي في حق مصر كانت كفيلة بحدوث أكبر تعاطف مصري ممكن مع إبراهيم الوردانى، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن مصر كلها تعاطفت مع إبراهيم الوردانى وحزنت حزنًا عميقًا عند تنفيذ حكم الإعدام فيه، ونظم الشعراء القصائد في الإشادة بإبراهيم الوردانى .

كانت الدوافع السياسية شديدة الوضوح في أسباب اغتيال بطرس غالي، فهو الذي أطلق يد الإنجليز في السودان بتوقيعه اتفاقية ١٨٩٩ م المجحفة بحقوق مصر والسودان، وهو الذي ترأس المحكمة المخصوصة في حادث دنشواي والتي نكلت بالأهالي في تلك القرية ظلمًا لحساب الإنجليز، وهو الذي أعاد قانون المطبوعات للتضييق على الحركة الوطنية والصحافة الحرة وهو أخيرًا الذي كان يريد تجديد امتياز قناة السويس و لعل هذا السبب كان الدافع المباشر لتنفيذ عملية الاغتيال .

محاولة استثمار القضية طائفيًا

حاولت السلطة الإنجليزية والمرتبطين بها من المصريين اتهام إبراهيم الوردانى بالتعصب الديني واستغلال مسألة كون المقتول مسيحيًا قبطيًا، إلا أن التاريخ الوطني لإبراهيم الوردانى حال دون استمرار هذا المخطط الطائفي، وكذلك إدلاء إبراهيم الوردانى باعترافات كاملة حول دوافعه لعملية الاغتيال، وكذا قيام بعض الأقباط الشرفاء بنفي تهمة التعصب عن إبراهيم الوردانى مثل نصيف جندي المنقباوي الذي أدلى بتصريح للصحافة الأجنبية قائلاً (إني أعرف إبراهيم الوردانى شخصيًا، وهو فتى شديد الذكاء كثير المعارف تملأ صدره الوطنية وليس رجلاً متعصبًا وأن تهمة التعصب الإسلامي ضد الأقباط ما هي إلا من إشاعات الإنجليز).

وإذا كان إبراهيم الوردانى المسلم قد قتل بطرس غالي المسيحي القبطي فلأن الأخير خان الوطن ولو استثناه من العقاب لمجرد أنه مسيحي لكان هذا سلوكًا طائفيًا ولعل ما يؤكد ذلك أن مسيحي هو عريان نصيف حاول فيما بعد اغتيال يوسف وهبة رئيس الوزراء المصري وهو مسيحي أيضًا لنفس الأسباب الوطنية سنة ١٩٢٠ م.

الشيخ محمود خطاب السبكي

مؤسس الجمعية الشرعية
فكره وممارساته السياسية

حياته

ولد الشيخ محمود خطاب السبكي في أول يوليو ١٨٥٨ م وقد توفي في ٧ يوليو ١٩٣٣ عن عمر يناهز ٧٥ عامًا.

ولد الشيخ الأمام في قرية سبك الأحد محافظة المنوفية، وحفظ القرآن في كتاب القرية، وعمل في كثير من أعمال والده في البداية مثل رعي الغنم وسياسة الخيل ونبغ في صيد الأسماك والطيور، كما اهتم بتعلم الفروسية وتدرب على السلاح مثل الرمي بالبندقية، وظلت الرماية من أحب الهوايات إليه حتى آخر حياته ، وظل يمارس الزراعة والرعي فترة من حياته حتى حدث التحول الكبير الذي أدى به إلى طلب العلم في الأزهر في سنة ١٢٩٧ هـ أي بعد أن وصل إلى سن كبيرة نسبيًا حوالي« ٢٣ عاما »، وظل يحصل العلوم الشرعية على مذهب الإمام مالك، وحصل على العالمية سنة ١٨٩٦ م ـ ١٣١٣ هـ، وأخذ يلقي الدروس بالأزهر الشريف في علوم الفقه والتفسير والحديث، ومن أهم مؤلفات الشيخ كتاب الدين الخالص، وكتاب شرح سنن أبي داود.

وتعد أهم أعمال الشيخ هو تأسيس الجمعية الشرعية في سنة ١٣٣١ هـ - ١٩١٢ م، وقد ترأس الشيخ هذه الجمعية حتى وفاته .

نضاله ضد الاستعمار الإنجليزي

عاش الشيخ فترة الشباب و الرجولة والكهولة تحت حكم

الاستعمار الإنجليزي لمصر، وكان من الطبيعي أن يصطدم الشيخ بسلطات الاحتلال الإنجليزي نظرًا لأن النشاط الديني للشيخ كان يحمل في طياته نشاطًا سياسيًا ظاهرًا أو باطنًا، فإنشاء الشيخ لجمعية إسلامية تنظم شئون الأعضاء وترعاهم وتحقق نوع من التكافل بينهم هو في ذاته تقوية للتماسك الاجتماعي المصري ضد الاحتلال، وكذلك دعوة الشيخ إلى التميز في السلوك والزي والأخلاق والتمسك في ذلك كله بشرائع الإسلام الحنيف يحمل في طياته دعوة لمقاطعة ورفض القيم والسلوك الغربي عمومًا والإنجليزي خصوصًا، ولا شك أن التميز في السلوك والزي والأخلاق وغيرها إحدى وسائل الصمود أمام الاستعمار الذي يستهدف دائمًا تدمير السلوك والزي والأخلاق الوطنية باعتبارها أحد وسائل رفض الاستعمار، وإحدى وسائل منع الاستعمار من تحقيق أهدافه وتسريب قيمه وجعله مقبولاً من الشعب وتقليل هامش الرفض الشعبي له، وعلى كل حال فلم تقتصر المسألة على هذا الجانب غير المباشر من النضال بل تعداه إلى الجانب المباشر، فالشيخ محمود خطاب السبكي دعا إلى مقاطعة المنسوجات والبضائع الإنجليزية، بل قام بإنشاء بعض معامل النسيج لكي يعطي البديل المتاح وهو المنسوجات المصرية، والشيخ هنا يمارس سلاح المقاطعة الاقتصادية، ولا شك أن ذلك السلاح من أهم أسلحة الشعوب في مواجهة الاستعمار الذي يحرص على جعل المستعمرات سوقًا لمنتجاته .

ووفقًا لسجل محاضر جلسات مجلس إدارة الجمعية ، فإن شهرة المنسوجات التي أنتجتها المعامل التابعة للجمعية أدت إلي أن اقترحت مصلحة الصناعة والتجارة أن توافي المصانع والمعارض التابعة للجمعية القناصل المصرية في الخارج بعينات من مصنوعاتها المختلفة مع بيان مقاساتها وأثمانها وعناوين تلك المؤسسات القائمة بهذا النوع من النشاط الصناعي، وبالفعل أرسلت المؤسسات التابعة للجمعية العينات المطلوبة.

وهكذا قام الرجل بعمليتين في وقت واحد، فهو استخدم سلاح المقاطعة، وقام ببناء صناعة وطنية في نفس الوقت، والعجيب أنه استهدف التصدير أي

ليس فقط محاربة الإنجليز اقتصاديا في مصر، بل وخارجها أيضًا.

وفي هذا الإطار أيضا كان الشيخ ينشر الآراء والأفكار والمحاضرات التي تحض على محاربة الإنجليز، ففي كتاب الدين الخالص « إن المسلمين الآن تحت سيطرة الاستعمار لأنهم لم يقيموا الدين كما أمروا فلم يتخلو عن النواهي، ولم يتحلوا بالأوامر، بل أفرطوا في تقليد الأجنبي في الضار دون النافع، قلدوه في أكل الربا وشرب الخمر وإباحة الزنا والتبرج وخروج النساء واستحمامهن في البحار، قلدوهم في الحكم بالقانون الوضعي ونبذ القانون السماوي ولم يرتدعوا بقوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وتركوا ما أمرهم مولاهم به بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ فخذلهم الله وسلط عليهم من لا يرحمهم لأنهم تركوا الدين وراء الظهر فتركوا في الذل والهوان، وذلك لأن الانتصار على الأجنبي خاص بمن نصر دين الله وتمسك به وسلك طريق النبي ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ فنصر الدين من الإيمان ومن نصره نصره في الدنيا والآخرة، ومن لم ينصره فقد باء بالخزي والذل والهوان في الدارين».

والشيخ السبكي في هذا الكلام يحدد أسباب القابلية للاستعمار داخلنا ومحاصرها ويدعو إلى الإقلاع عنها ثم هو يحدد طريق مقاومة الاستعمار بإعداد القوة اللازمة والممكنة وبالتمسك بالإيمان.

وعلى الجانب الآخر فإن الإنجليز أحسوا بخطورة الشيخ ففرضت سلطات الاحتلال الإنجليزي رقابة على دروس الشيخ وعلى ما يصله من رسائل، ويبدو أنهم اكتشفوا أن هناك حركة لاشتعال الثورة يشارك فيها الشيخ بالاتصال بالعثمانيين، لذلك بادرت سلطات الاحتلال إلى اعتقال الشيخ الإمام سنة ١٩١٤، وتم تفتيش منزله ومنزل أسرته، وقد تم إيداع الشيخ بسجن باب الخلق لمدة ثلاثة أشهر مارس خلالها الشيخ أسلوب الإضراب عن الطعام للضغط على الإنجليز والسلطات للسماح له بزيارات الأهل، ثم أفرج عنه إلا أنه حرم

من مزاولة النشاط طوال فترة الحرب العالمية أي من ١٩١٤ ـ ١٩١٨، وفي محاضر الجلسات الخاصة بالجمعية توقفت تلك المحاضر بين سنتي ١٢٣٢ هـ ـ ١٢٣٦ هـ، ولم يسمح ببيان أسباب هذا التوقف .

ومن الآثار الهامة للجمعية الشرعية، أن الكثيرين من مناضلي ثورة ١٩١٩، ومن أعضاء المنظمات السرية المسلحة في ذلك الوقت كانوا أصلاً أعضاء في الجمعية الشرعية، مما يدل على مدى التأثير النضالي للتربية من خلال الجمعية، أو يدل على أن الجمعية أصلاً كانت خالصة في تلك العمليات من خلال خلايا تابعة لها، يقول الأستاذ أحمد حسين مؤسس مصر الفتاه « أن زعماء في ورش وعنابر السكة الحديد سنة ١٩١٩ كانوا أعضاء في الجمعية الشرعية، وكذلك كان عدد من المتهمين في حادث مقتل السير لي ستاك وعشرات الإنجليز من قبله كانوا أيضًا أعضاء في الجمعية الشرعية، وعلى رأس هؤلاء الشيخ أحمد جاد وهو زعيم عمالى وشخصية هامة من الشخصيات التي اتخذت طريق الكفاح المسلح، وقد صدر حكم الإعدام على الشيخ أحمد جاد الله مع زعماء الثورة » .

تفكير نقابي مبكر

يقول د. عبد العظيم حامد خطاب « نشأ التفكير في إنشاء جمعية تضم العاملين بالسنة ليتكاتفوا ويتضامنوا لتأمين حياتهم ضد البطالة والعوز والحاجة، فكان أن وجدت الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية في وقت لم تكن قوانين العمل تعطي العامل أي حق، ولم تكن نقابات أو هيئات تحفظ على العامل حقه أو تنصفه إذا ما التجاء إليها » .

أليس هذا تفكيرًا مبكرًا في العمل النقابي، والنواة الأولي للنقابات العمالية والمهنية.

المؤسسات البديلة

وعى الشيخ السبكي إلى ضرورة إقامة مؤسسات بديلة وموازية للمؤسسات الحكومية التابعة لسلطات الاحتلال، وخاصة في مجالي الاقتصاد والقانون باعتبارهم أهم مجالين من مجالات الممارسات التابعة للاحتلال والمحققة لأهداف

هذا الاحتلال، وفي إطار المؤسسات الاقتصادية قام الشيخ بعمل صندوق خاص يحفظ موارد الجمعية واشتراكات الأعضاء واستثمار ذلك في مشروعات الجمعية، ونبه الشيخ الجماهير على ضرورة مقاطعة البنوك الربوية.

وفي إطار الاهتمام بالقضية الفلسطينية برغم أن الهجمة الاستعمارية الصهيونية على فلسطين كانت في بداياتها الأولى ولم يظهر خطرها الكامل بعد في ذلك الوقت، إلا أن الشيخ السبكي وبوعي متقدم تنبه إلى المخاطر الحقيقية لتلك الهجمة الصهيونية، وانطلاقاً من واجبه أدرك ضرورة مساعدة الشعب الفلسطيني فقامت الجمعية الشرعية بإرسال كمية من المنسوجات إلى بيت المقدس لتوزيعها على منكوبي فلسطين، وتلقي مجلس إدارة الجمعية رسالة محررة في ١٧ رجب ١٣٤٩ هـ الموافق ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٠ م موقعًا عليها من رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بفلسطين وهو الشيخ محمد أمين الحسيني يشكر الجمعية على تبرعها وتضامنها مع الشعب الفلسطيني ، وفي الأربعينات فتحت الجمعية الشرعية مجال التبرع لمساعدة الشعب الفلسطيني، وكان أعضاء الجمعية يحملون الدفاتر في الأماكن العامة، وشاركت الجمعية في المظاهرات الصاخبة التي شهدتها القاهرة عقب الإعلان عن قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ م مع غيرها من الجمعيات الإسلامية.. المؤسسات القانونية دعا الشيخ إلى مقاطعة المحاكم الحكومية التي لا تطبق الشريعة الإسلامية وأنشأ من جانبه عددًا من المحاكم الأهلية، وقد نص قانون الجمعية الأول على أن يعاون مجلس الإدارة لجنتان إحداهما لجنة المحكمين وتقوم هذه اللجنة بالتحكيم في المنازعات التي تنشأ بين الأعضاء أو الراغبين من الأهالي حتى لا يلجأ المسلمون على تحكيم القانون الوضعي في المحاكم وحتى تبقي الألفة بين المسلمين.

أحمد حسين
مؤسس حركة مصر الفتاه

دخلت حركة مصر الفتاة التاريخ المعاصر، كأحد روافد الحركة الإسلامية المعاصرة، باعتبار أن الحركة الإسلامية حركة تحرر وطني، وباعتبار أن حركة التحرر الوطني المصري والعربي هي إسلامية بالضرورة، لأن الإسلام كان جذرًا ثقافيًا لها، ولأن الإسلام هو وجدان الجماهير، والجماهير هي وحدها السلاح في مواجهة التحديات المعاصرة من استعمار وصهيونية وتبعية، ولأن هذه التحديات ذاتها هي جزء من الصراع الطويل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

دخل أحمد حسين تاريخ الكفاح المصري المعاصر، بل والعربي والإسلامي المعاصر كحلقة من حلقات سلسلة طويلة من الكفاح الوطني الإسلامي المعاصر في مواجهة الاستعمار والاستبداد بدءًا من محمد كريم وعمر مكرم ومرورًا بالأفغاني ثم مصطفي كامل ومحمد فريد ثم حسن البنا وأحمد حسين، ولعل أحمد حسين كان يشبه بشكل شديد سواء في إمكانياته الفردية الفذة، وقدراته العجيبة على الخطابة والكتابة والتحريض السياسي والإعلامي أو في سلوكه الشخصي عبد الله النديم، ذلك الزعيم الوطني الفذ الذي فجر الثورة العرابية، وكان قائدها السياسي وجهازها الإعلامي، وقد وهب أحمد حسين نفسه لمصر وللعرب والمسلمين، فلم يكترث رغم إمكانياته الفردية الجبارة بجمع الأموال مثلما فعل عبد الله النديم تمامًا، فمات كل منهما فقيرًا معدما.

مولده وحياته :

ولد أحمد حسين سنة ١٩١٠ م في أسرة ميسورة، وشهد في بداية حياته ثورة ١٩١٩، ثم أعقبها انكسار بسبب المؤامرات الإنجليزية وانحراف حزب الوفد عن المبادئ الإسلامية التي أرساها مصطفي كامل ومحمد فريد، ودخل أحمد حسين كلية الحقوق، وبدأ نشاطه السياسي وهو طالب عن طريق الكتابة والصحافة والخطابة. ثم دعا مع مجموعة من الشباب إلى مشروع وطني يستهدف تجميع المدخرات الوطنية لإقامة صناعة وطنية مصرية (هو مشروع القرش) سنة ١٩٣١، وقد نجح هذا المشروع نجاحًا عظيمًا، وبعد تخرجه من كلية الحقوق أنشأ أحمد حسين مع مجموعة من الشباب حديثي التخرج حركة مصر الفتاة سنة ١٩٣٣ م مسترشدين بمقولة الزعيم الإسلامي الوطني مصطفي كامل :« أريد أن أرقد في مصر المرمة، مصر الفتاة ». وقد دعا هذا الحزب إلى وحدة مصر والسودان وإلى الوحدة العربية والإسلامية، وإلغاء الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة، تقييد الشركات الأجنبية، وأن تكون اللغة العربية هي اللغة المستخدمة في الحياة الرسمية وغير الرسمية، واعتبار يوم الجمعة يوم عطلة رسمية، إصلاح أحوال الفلاح المصري، بناء قاعدة صناعية وطنية، فرض حماية جمركية على الصناعة الوطنية، التعليم المجاني، العلاج المجاني، ثم أنشأ أحمد حسين الحزب الوطني الإسلامي عام ١٩٤٠، وطرح فكرة توحيد القوة الإسلامية في مصر والعالم العربي، ثم الحزب الاشتراكي سنة ١٩٤٩، الذي اعتمد على مبادئ العدالة الاجتماعية في الإسلام، وقد اهتمت برامج هذه الأحزاب السياسية التي أنشأها وترأسها أحمد حسين بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية وإلغاء كل ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية، وإنصاف الفلاحين والعمال والفقراء، وحق العمل والإضراب والتأمين الاجتماعي، وتشكيل النقابات والاتحادات للفلاحين والعمال، وحق التعليم والعلاج المجاني.

كما دعا أحمد حسين إلى إنشاء مصانع للحديد والصلب وإنشاء هيئة للطاقة الذرية وتأميم قناة السويس.

وقد لعب أحمد حسين دورا كبيرا في التحريض على الثورات الفلاحية ضد

الإقطاع في الريف المصري مثل انتفاضات الفلاحين في قرى كفور نجم وبهوت وميت فضالة.

وقد كان لأحمد حسين أكبر الأثر في هدم النظام الملكي في مصر، فقد ظل طوال حياته يهاجم الملك والحاشية والفساد بلا هوادة، كما نظم أحمد حسين كتائب التحرير للتدريب على السلاح وإعداد المجاهدين للقتال ضد الإنجليز في القناة، أو ضد الغزوة الصهيونية في معارك عام ١٩٤٨ م.

وقد دخل أحمد حسين السجن عدة مرات، وعاش فترات طويلة مطاردًا هاربًا بسبب ذلك النشاط، وقد اتهم عدة مرات بالعيب في الذات الملكية، وفي عام ١٩٥٢ دبر الإنجليز والملك حريقًا كبيرًا في القاهرة وتم اتهام أحمد حسين بتدبيره، واعتقل على ذمة التحقيق في هذه القضية تمهيدا لصدور الحكم بإعدامه، إلا أن انقلاب الجيش في يوليو ١٩٥٢ م أفسد تلك المحاولة، وقد أعتزل أحمد حسين العمل السياسي بعد ثورة ١٩٥٢، لأن رجال ثورة يوليو رفضوا أن يسمحوا له بالعمل السياسي أو الوطني، كما تم اعتقاله وإهانته أيضًا في عام ١٩٥٣ م، ومنذ عام ١٩٥٣ وحتى وفاته عام ١٩٨٢ م تفرغ أحمد حسين للكتابة والبحث، فأصدر العديد من الكتب والأبحاث والمقالات التاريخية والدينية، وبدأ مشروعًا لتفسير القرآن الكريم إلا أنه لم يتمه بعد أن أنجز منه جزءًا كبيرًا.

العدالة الاجتماعية من منظور إسلامي

استطاع أحمد حسين أن يقدم نموذجًا فذًا لبرنامج اجتماعي منحاز إلى الفقراء، استنادًا إلى الشريعة الإسلامية والمنهج الإسلامي، كما جمع بشكل فذ بين الوطنية والإسلامية في نسيج متسق منسجم، وفي الحقيقة فإن الإسلامية تقود بالضرورة إلى الوطنية لأننا نعمل في أمة إسلامية وشعوب إسلامية تعاني من غزو حضاري غربي يريد اجتثاث الإسلام والحضارة الإسلامية، وكذا فإن الوطنية تعود بالضرورة إلى الإسلامية، لأن طبيعة الصراع تحتم ذلك، وكذا طبيعة الأعداء والحلفاء، ولا شك أنه لا تناقض في منطقتنا العربية بين الوطنية

والإسلامية، بل الإسلام والجذر الثقافي الإسلامي شرط ضروري لنجاح أي حركة تحرر وطني، لأنه لا يمكن مواجهة التحدي الاستعماري الصهيوني بأدوات ومناهج مستوردة منه، ونابعة من نفس أرضيته الحضارية، بل لابد أن تكون مستمدة من أرضية حضارية مغايرة، ولابد أكثر أن تكون نابعة من نفس تربيتنا ومن جذورنا الثقافية والحضارية حتى تكون قادرة على المواجهة والصمود وتحريك الجماهير.

ولعل احمد حسين كان دقيقًا مع نفسه، واتسم بالمراجعة المستمرة لها ليؤكد على هذه النقطة، ومنعًا للالتباس فإنه أكد دائمًا أن خير ما انتهى إليه التطبيق الاشتراكي من توفير ضمانات اجتماعية وهو أول تعاليم الإسلام وجوهرها وروحها، وأنه حين دعا إلى الاشتراكية كان حريصًا على أن يحدد اشتراكيته بأنها بعيدة كل البعد عن اشتراكية ماركس وغيره من الفلاسفة والسياسيين الغربيين، بل هي ضدها على خط مستقيم، وأن مضمون هذه الاشتراكية لم يكن إلا تعاليم الإسلام ولا زيادة، وأنه أعلنها مدوية إسلام وعدالة اجتماعية وليس اشتراكية منعًا للبس وللتدقيق في وصف القصد.

الإمام الشهيد حسن البنا رجل على موعد

لم يأت الإمام الشهيد حسن البنا من فراغ، ولم يكن شخصًا ظهر فجأة، بل هو الامتداد الصحيح لما قبله، والرد الموضوعي على ظروف وأوضاع العالم الإسلامي عامة، ومصر خاصة في ذلك الوقت من النصف الأول من القرن العشرين.

وأول خطأ في فهم الإمام الشهيد هو عدم ربطه بما قبله، وعدم الإضافة والاجتهاد بعده، والذين يقدمون الإمام الشهيد بمعزل عما قبله من حلقات الكفاح الإسلامي التي جاهدت ضد الاستعمار والتخلف والاستبداد قبل ظهور الإمام الشهيد، والذين يقدمون الإمام الشهيد كنموذج يجب أن يحتذى بصورة هندسية بصرف النظر عما أستجد من أحداث ومتغيرات حدثت بعده يظلمون الإمام الشهيد أيضًا ويظلمون الحركة الإسلامية من بعده، ويريدونها جامدة ويظلمون أنفسهم بهذا الجمود مهما كان القالب الذين يريدون الوقوف عنده عظيمًا ورائعًا.

الإمام الشهيد حسن البنا لم يأت من فراغ، بل جاء ليكمل حلقات الكفاح الإسلامي، جاء ليكمل كفاح الأفغاني والنديم وعرابي ومصطفي كامل ومحمد فريد، وإذا أغفلنا هذه النقطة فكأننا نعطي لأعداء الحركة بهذا الجمود مهما كان القالب الذين يريدون الوقوف عنده عظيمًا ورائعًا.

الإمام الشهيد حسن البنا لم يأت من فراغ، بل جاء ليكمل حلقات الكفاح الإسلامي، جاء ليكمل كفاح الأفغاني والنديم وعرابي ومصطفي كامل ومحمد فريد، وإذا أغفلنا هذه النقطة فكأننا نعطي لأعداء الحركة الإسلامية السلاح الذي يهاجموننا به فيدعون أن الحركة الإسلامية ما هي إلا رد فعل على التغريب أو الانحلال الأخلاقي أو غيرها، والحقيقة أن الحركة الإسلامية أصيلة وراسخة رسوخ هذه الأرض وتمتد في التاريخ والجغرافيا، والحركة الإسلامية المعاصرة هي أساسا حركة كفاح ضد الاستعمار والتخلف والاستبداد وحركة نهضة ذات مشروع حضاري متميز.

وفي مصر بالتحديد هي تلك الحركة التي فجرت المقاومة والثورة ضد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ م ـ ١٨٠١ م، وهي الحركة التي رفضت الاستبداد ١٨٠٥ بقيادة عمر مكرم، وهي الحركة التي قاومت الغزو الإنجليزي لمصر ١٨٠٧، وهي حركة مناهضة النفوذ الأجنبي التي نادها جمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم في السبعينات من القرن التاسع عشر، وهي حركة مقاومة الاستعمار بقيادة عرابي ثم مصطفي كامل ومحمد فريد[1].

حسن البنا كان حلقة من هذه الحلقات ولكنه حلقة استوعبت المتغيرات،ولم يكن حسن البنا مجرد امتداد حسابي لهؤلاء، بل أضاف على ما تركوه وأدرك طبيعة الظرف الذي يعيشه، لأن كل هذه الحركات السابقة عليه ظهرت وناضلت في ظل وجود خلافة إسلامية، فلما جاء حسن البنا كانت الخلافة قد سقطت، بل وأصبح وجود العالم الإسلامي ككيان في خطر شديد، وكان منحني السقوط الإسلامي قد نزل بشدة فكان المطلوب بالتالي حركة تمثل الصمود وتمثل إعادة الثقة بالنفس، وتربية شخصيات تكون أقوى من السقوط والانحدار وتستطيع مواجهة ذلك كله. وعندما وضع حسن البنا هذه القواعد لم يقف عندها، بل طور حركته باتجاه الهجوم بعد بناء خطوط الدفاع القوية وكان يحق رجلا على موعد.

---

(١) د. محمد عمارة، صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر ١٧٩٨ ـ ١٩٠٢، أربعة أجزاء، القاهرة.

وقد أدركت القوى المعادية للإسلام أن حسن البنا يطور أساليبه في كل يوم ويقدم الرد الصحيح والمكافئ على الأحداث والمستجدات، ولذا قررت التخلص منه، فتآمرت تلك القوى بليل واغتالت الرجل .

الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وأساس هذه الصلاحية الممتدة في التاريخ والجغرافيا والمستقبل يقف الاجتهاد الإسلامي ليقدم الحل للمتغيرات التي لا تنقطع وحسن البنا كان ردًا صحيحًا واجتهادًا فذا على الظروف التي واجهها، أما اليوم فإن الفهم الصحيح لحسن البنا يحتم علينا أن ندرك أن مواجهة الاستعمار الأمريكي لابد أن تختلف عن مواجهة الاستعمار الإنجليزي، ومواجهة الحكم العسكري تختلف عن مواجهة الحكم الملكي الليبرالي، ومواجهة إسرائيل بعد امتلاك الذرة تختلف عن مواجهة إسرائيل يوم كانت دولة ناشئة، مواجهة عالم قبل انهيار الشيوعية تختلف عن مواجهة عالم ما بعد انهيار الشيوعية. وعلينا أن ندرك تمامًا أن حسن البنا، هذا الرجل الفذ يبقى في النهاية مجتهدًا يصيب ويخطئ، وان العصمة لرسول الله ﷺ.

مولده وحياته

ولد حسن البنا في أكتوبر سنة ١٩٠٦ في قرية المحمودية بمحافظة البحيرة، وكان والده الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا أحد علماء الأزهر [١].

حفظ حسن البنا القرآن الكريم في كتاب القرية، ثم دخل إلى المدرسة النظامية سنة ١٩١٨، وشارك في الجهاد في ثورة ١٩١٩ من خلال طلبة المدرسة، ثم التحق بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٩٢٣م، وتخرج منها سنة ١٩٢٧وعين مدرسًا بمدينة الإسماعيلية، وأسس جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨، وأصبحت الجماعة من خلال جهاده ضد الاستعمار والتخلف والاستبداد أهم الحركات الإسلامية في القرن العشرين، واغتيل الأمام الشهيد حسن البنا بعد إطلاق الرصاص عليه أمام جمعية الشباب المسلمين بشارع رمسيس بالقاهرة في ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩م [٢].

(١)صلاح شادي، الشهيدان، مكتبة الوفاء، القاهرة، ١٩٨٨ م.

(٢)محمد الصايم، شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩٢.

جهاده ونضاله

أدرك حسن البنا أن أوضاع العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤ قد أصبحت شديدة الخطورة وأن التآمر الاستعماري الصليبي على العالم الإسلامي يستهدف القضاء النهائي على الإسلام كدين وحضارة، وكان الإمام الشهيد يدرك أبعاد التخلف والجهل والفقر التي كان يعانيها العالم الإسلامي عمومًا ومصر خصوصًا بسبب جمود الفكر الإسلامي من ناحية وتآمر أعداء الإسلام من ناحية ولذا عمل حسن البنا على بناء قاعدة من الرجال القادرين على مواجهة هذا كله وتجاوزه باتجاه النهضة والإقلاع [١]، فاهتم بالتربية باعتبارها القاعدة والأساس للبناء فوقها، ونجح في بناء جيل من الرجال الأقوياء الذين خاض معارك الجهاد والنضال معهم، جهاد ضد الاستعمار الأجنبي وضد الاستبداد وضد الجهل والأمية والفقر، كشف حسن البنا أمام الشعب أساليب الاستعمار وخطورة السكوت عليه، ودعا إلى مناهضة الاستعمار بكل وسيلة، وألف الرسائل وألقى الخطب ونشر المقالات في الصحف التي أنشأها لهذا الغرض، وفي مرحلة تالية قامت مجموعات من شباب الأحزاب بتنظيم عمليات اغتيال واسعة لعناصر الجيش الإنجليزي في القاهرة ومعظم مدن مصر، وقد توج الإخوان المسلمون هذا العمل بتنظيم أروع عملية مقاومة للإنجليز في مدن القناة سنة ١٩٥٠، ١٩٥١، ١٩٥٢ [٢].

وكان الإمام الشهيد يؤمن بالعدل الاجتماعي، وأن الإسلام يحض على نصرة المستضعفين، فكشف ملامح الخلل في التركيبة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مصر التي تجعل الثروة والسلطة بين أقلية ضئيلة، فنشر الرسائل والمقالات وألقى الخطب هجومًا على الإقطاع والاستغلال الرأسمالي وتأكيد على انحياز الإسلام للفقراء والمستضعفين، وكان من نتيجة هذا النشاط العديد من الانتفاضات العمالية في المصانع والعديد من الانتفاضات الفلاحية ضد الإقطاع في قرى الريف المصري وخاصة في بهوت وكفور نجم وميت فضالة

---

(١) محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ، دار النشر والتوزيع الإسلامية.
(٢) حسن دوح، صفحات من صبح الشباب الجامعي على ضفاف القناة، دار القلم، الكويت.

وغيرها [1].

كان الإمام الشهيد يؤمن بأهمية العلم فكان حربًا على الجهل فنظم الإخوان المسلمون عمليات محو الأمية وافتتاح المدارس لتعليم البنين والبنات على حد سواء، كما دعا إلى التصنيع، بل قام بإنشاء العديد من الشركات الصناعية والتجارية لهذا الغرض.

موقفه من القضية الفلسطينية

كانت أعظم مواقف الإمام الشهيد، ومواقف الإخوان المسلمين هو موقفهم من القضية الفلسطينية على اعتبار أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، أو هي قضية العرب والمسلمين الأولي، وتكاد تكون القضية الفلسطينية هي الشغل الشاغل للإمام الشهيد وللإخوان منذ وقت مبكر جدًا قبل قيام إسرائيل بأكثر من عشر سنوات فإلى جانب الاهتمام بكشف أبعاد الخطر الصهيوني مبكرًا وتقديم الدعم للشعب الفلسطيني من خلال الصحافة الإخوانية ومن خلال المؤتمرات والندوات وجمع التبرعات وإلقاء الخطب في المساجد، والتنسيق المباشر مع قيادات الشعب الفلسطيني مثل الحاج أمين الحسيني، فإن جماعة الإخوان بقياد الإمام الشهيد كانت أول من نظم عمليات التطوع في حرب ١٩٤٨ [2].

وتدفقت كتائب الإخوان إلى فلسطين، وقامت بالعديد من العمليات العسكرية المتميزة والبطولات الفذة التي أشاد بها القادة العسكريون العرب بل والإسرائيليين أيضًا، ولعل هذا الموقف البطولي والمتميز هو الذي حدا بالحكومة المصرية تحت ضغوط أوروبية وإسرائيلية علنية ومستترة إلى إصدار قرار بحل جماعة الإخوان سنة ١٩٤٨ واستقبال العائدين من الحرب من الإخوان ليس كأبطال بل كمجرمين يتم القبض عليهم !! [3].

(١)د. محمد مورو - دور الحركة الإسلامية في تصفية الإقطاع، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٠م.

(٢)كامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، دار الوفاء، القاهرة.

(٣)محمود عبد الحليم، مرجع سابق.

البنا والسلوك الحضاري لا الطائفي

انطلق حسن البنا من فهم دقيق للإسلام، وكان هذا سببًا في تقديم سلوكًا وفكرًا لا طائفيًا على مستواه الشخصي وعلى مستوي حركة وفكر الإخوان المسلمين عمومًا، يقول الإمام الشهيد في صحيفة الإخوان المسلمين في ٨ ديسمبر ١٩٣٦ : « شعب وادي النيل كله في شماله وجنوبه يدين بهذا الدين الحنيف، والأقلية غير المسلمة من أبناء هذا الوطن تعلم تمام العلم كيف تجد الطمأنينة والأمن والعدل والمساواة التامة في كل تعاليمه وأحكامه، بل ويعتبرون الإسلام معني من معاني قوميتهم »[١].

في رسالة الإمام الشهيد إلى الشباب يقول : « يخطئ من يظن أن الإخوان المسلمين دعاة تفريق بين طبقات الأمة، فنحن نعلم أن الإسلام يعني أدق العناية باحترام الرابطة الإنسانية العامة بين بني الإنسان، كما أنه جاء لخير الناس جميعًا ورحمة من الله للعالمين، ودين هذه مهمته أبعد الأديان عن تفريق القلوب وإيفار الصدور وقد حرم الإسلام الاعتداء حتى في حالات الغضب والخصومة وأوصي بالبر والإحسان بين المواطنين وإن اختلفت أديانهم، وإنصاف الذميين وحسن معاملتهم فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، نعلم كل هذا فلا ندعو على تفرقة عنصرية ولا إلى عصبة طائفية »[٢].

وفي رسالة دعوتنا يقول الإمام الشهيد :« إن الإسلام لا يمزق الوحدة الوطنية، بل يؤكدها، لأنه أكسب هذه الوحدة القداسة الدينية بعد أن كانت تستمد قوتها من نص مدني فقط »[٣].

ويقول الدكتور زكريا سليمان بيومي[٤] « إن موقف الإخوان من الأقباط اتسم بالاعتدال، وأن البنا كان يرى أن الفتنة الطائفية تفيد المحتل، وأن البنا حرص

(١)صحيفة الإخوان المسلمين ٨ ديسمبر ١٩٣٦ م.

(٢)رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، رسالة إلى الشباب.

(٣)رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، رسالة دعوتنا.

(٤)زكريا سليمان بيومي، الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية، ١٩٢٨، ١٩٤٨، مكتبة وهبة، القاهرة.

على نفي تهمتي التعصب الديني وإشاعة الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة ».

وكان الأقباط من جهتهم يشجعون حركة الإخوان المسلمين ويدافعون عنها على أساس كفاحها ضد الاستعمار، وفي سبيل الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية والوطن الإسلامي وهي الحضارة والثقافة والوطن الذي ينتمي إليه الأقباط [١].

أما بعض الأقباط الذين كانوا يقفون ضد الحركة الإسلامية عمومًا والإخوان خصوصًا فهؤلاء ينطلقون في ذلك ليس من انتمائهم القبطي المسيحي المصري بل من ارتباطهم – كبعض المسلمين أيضًا – بالمشروع الاستعماري، ويقول حسن البنا في هذا الصدد :« إن تطرف بعض الأقباط في مهاجمة الفكر الإسلامي لا يعبر عن رأي مجموع الأقباط في مصر » [٢].

ويحكي الأمام الشهيد حسن البنا :« إن أحد المسيحيين قدم عريضة ضده ويتهمه فيها بالتعصب، إلا أن وفدًا مسيحيًا برئاسة راعي الكنيسة الأرثوذكسية بالإسماعيلية قد رد عنه هذه التهمة وأعلن استنكاره لما حدث »[٣] .

(١)د. محمد مورو، المسلمون والأقباط، الالتقاء على أرضية الانتماء للحضارة الإسلامية، دار البشير القاهرة، ١٩٩٠م.

(٢)حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية.

(٣)حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية.

الإمام حسن الهضيبي
الجياد تموت واقفة

في نهاية الأربعينات من القرن العشرين كانت مصر حبلى بالثورة، كان النظام الحاكم بما فيه من ملك وأحزاب قد وصل إلى حافة الانهيار، كانت هناك أزمة سياسية حادة، وأزمة اجتماعية واقتصادية متفاقمة، وكان الملك والأحزاب أقلية واغلبية قد وصلت إلى الإفلاس الكامل؛ حتى حزب الوفد كان قد فقد قدرته التقليدية على العمل كمقاول للجماهير يستوعب مدها العالي ويضيعه في مسارات جانبية .

كان هناك في المقابل وعيًا شعبيًا سياسيًا واجتماعيًا لم يعد أحد بقادر على لجمه أو وقف تصاعده، كانت المقاومة الشعبية المسلحة والسلمية تنزل ضرباتها بالإنجليز في كل مكان من أرض مصر، وكانت التظاهرات.. المطالب الاجتماعية والسياسة أمرًا يكاد يكون يوميًا وكانت الإضرابات العمالية قد أصبحت ظاهرة عامة طالت كل التجمعات الصناعية[1] .

وكانت الانتفاضات الفلاحية قد وصلت إلى مستوى أصبح يشكل خطرًا على التركيبة الاجتماعية برمتها وكان ظهور المقاومة السياسية في الريف يعني أن مصر كلها حبلى بجنين الثورة[2] .

---

(١) طارق البشري، الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥ ـ ١٩٥٢، دار الشروق، القاهرة.

(٢) د. محمد مورو، دور الحركة الإسلامية في تصفية الإقطاع، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩١٠.

وكان الإخوان المسلمين قد شاركوا في حرب ١٩٤٨، فاكتسبوا خبرة قتالية وسمعة عالية جعلتهم المؤهلين لقيادة الثورة المرتقبة، وكان لهم نفوذًا قويًا داخل الحركة الطلابية والعمالية والفلاحية، وأصبحت شعب الإخوان تنتشر في كل مدن مصر وقراها [١].

وتحركت القوى الاستعمارية بليل وقررت إجهاض جنين الثورة قبل أن يكتمل واستبداله بجنين مشوه، وكان من ضمن هذه الخطة الشيطانية التخلص من زعيم قائد يجمع القلوب حوله وهو الشهيد حسن البنا لتحرم الجماهير من قائد موهوب من ناحية ولتكون فرصة لإحداث بلبلة وانشقاقات في صفوف الحركة تمهد لتصفيتها أو لدفعها إلى مسار جانبي أو إسقاط مصداقيتها وتحويلها عن أهدافها النبيلة، وهكذا تم اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا في فبراير ١٩٤٩م، ولولا ظهور حسن الهضيبي بشخصيته المثالية وتمسكه اللانهائي بمبادئه ونقائه الثوري ورفضه المساومات لتحقق للقوى الشيطانية ما أرادت من دفع الحركة إلى المساومات التي تفقدها هويتها شيئا فشيئا وصحيح أن القوى الاستعمارية نجحت في عمل ثورة مزيفة هي ثورة ١٩٥٢ م؛ لتكون بديلا عن الثورة الحقيقية ولتجهض المد الشعبي العارم بها، إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها بالنسبة لحركة الإخوان المسلمين فظلت الحركة بفضل مثالية وصمود حسن الهضيبي في مسارها الصحيح رغم أنها دفعت ثمنًا باهظًا لهذا الطريق، ونستطيع أن نقول إن حسن الهضيبي جاء في وقت عصيب جدًا، واستطاع أن يحافظ وسط جو قاس جدًا على الراية مرفوعة يسلمها إلى من بعده .

كان الهضيبي - رحمه الله – هو رجل المرحلة بكل ما للكلمة من معنى، وأكاد أقرر أنه رجل لا تطاوله قامة الرجال جميعا داخل الحركة وخارجها، فقد فعل الرجل شيئين على جانب كبير من الخطورة، أولهما أنه حافظ على الحركة رغم الفتن الداخلية وظلت الحركة بفضله تمثل الجسم الرئيسي على المسار الصحيح رغم الانشقاقات والابتلاءات التي جاءته من بعض إخوانه، ولولا

(١)محمود عبد الحليم الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ، دار النشر والتوزيع الإسلامية، القاهرة .

صلابة الرجل ومثاليته لتحول جسم الحركة الرئيسي إلى المسارات الجانبية، ولكانت تلك الانشقاقات قد نجحت في جعل الحركة مجموعة من الفرق المتناحرة بدون هيكل رئيسي واسع أو بوجود هيكل رئيسي ضعيف أو جانبي.

والشيء الثاني أن الرجل رفض المساومات مع السلطة المستبدة متمسكًا بمبادئ الحركة محافظًا على طهارتها، وصحيح أن الثمن كان غاليًا جدًّا بالنسبة للحركة وله هو شخصيًا من سجن وتعذيب ومطاردة بلا حدود، ولكن لو ساوم الرجل أو تنازل لانتهت الحركة إلى مسخ شائه لا يلبي تطلعات الأمة أو ربما لأصبحت الحركة مجرد حركة تعمل لمصلحتها الشخصية على حساب مصالح الجماهير وعلى حساب المبادئ، لقد ظل الرجل دائمًا يرفض المهادنة أو المساومة أو التخلي عن مبادئ الحركة الثابتة رغم صنوف التعذيب والاضطهاد الذي لاقاه الرجال من حوله .

يقول الزعيم الوطني أحمد حسين عن الهضيبي في رثائه له:« سوف يسجل التاريخ لحسن الهضيبي أنه كان كابن حنبل رفض أن يساوم أو يتزحزح عما يتصوره حقا » [1].

ويقول عنه مصطفي أمين : انهالت على رأسه الضربات فلم يرتع، حاصرته المصائب فلم ييأس، تلقي الطعنات من الخلف والأمام فلم يسقط على الأرض، رأيته في محنته أكبر منه في مجده، أسقط من المقعد واقفًا وغيره يجلس فوق المقعد راكعًا» [2].

وتقول عنه الحاجة زينب الغزالي« أذكر أنه قال لمن أراد أن يستفتيه في الترخص لتأييد عبد الناصر : الدعوات لا تقوم على الرخص، وعلى أصحاب الدعوات أن يأخذوا بالعزائم، والرخص يأخذ بها صغار الرجال » [3].

ولم تكن عظمة الرجل تقف عند ما سبق، بل أنه أضاف إلى عظمته إضافة هامة وبارزة وهي تصديه لهؤلاء الذين انحرفوا عن الطريق تشددًا وغلوا، كانت أجواء التعذيب والقتل والاضطهاد قد أفقدت البعض - معذورا- صوابه فكان

(١)أحمد حسين في رثائه لحسن الهضيبي.

(٢)مصطفي أمين، أخبار اليوم، فكرة، ١٩٧٣ .

(٣)زينب الغزالي، نقلاً عن - ر رزق، حسن هضيبي الإمام المحتجن، دار اللواء، القاهرة، ١٩٩١.

رد الفعل على ذلك الذي يحدث للمجاهدين الصابرين خلف الأسوار، أن قال البعض بتكفير هذا أو ذاك من الناس وتطورت المسألة فأصبحت قضية التكفير والحكم على الناس فلسفة متكاملة لدى قطاع من الحركة الإسلامية، ولو نجحت في استقطاب مجموع الإخوان لتحولت الحركة إلى مجرد فرقة دينية جديدة، بدلاً من أن تكون كعهدها، طليعة الأمة ورائدة للنهضة، والصحيح أن الحركة الإسلامية حركة طليعية تقود إلى النهضة وتواجه تحدياتها وليست فرقة دينية جديدة تتميز وتختلف عن الآخرين في عقائدها وسلوكياتها، إننا لا نرفض الأبحاث العقائدية والفقهية ولكن هذا مكانه الجامعات ودور البحث العلمي وبين العلماء، وليس هذا بحال من الأحوال شأن حركة سياسية وليس هذا دور من يضطلع بمهمة اليقظة والنهضة، وليست هذه القضايا وأمثالها مما يناقش بين الدعاة وفي إطار حركة مجاهدة تقاوم الاستعمار والاستبداد وتدعو إلى النهضة والإقلاع، تصدى الإمام حسن الهضيبي لذلك الأمر، وأعلن بوضوح وحسم أننا (دعاة لا قضاة)، وأصدر كتابًا عبارة عن مجموعة أبحاث تتصدي لتلك الظاهرة وتكشف خطورتها على الحركة الإسلامية، ونجح الرجل في تقليص الظاهرة والمحافظة على جسم الحركة الرئيسي بعيدًا عن هذا الغلو والشطط، وبذلك سلم راية الحركة كما استلمها راية للنهضة ومواجهة تحديات الأمة، وليست مجرد فرق دينية جديدة متميزة عن الأمة ومختلفة عنها في الفكر والسلوك.

حياته وجهاده

ولد الشيخ الإمام حسن الهضيبي في ديسمبر ١٨٩١ م في قرية عرب الصوالحة بمحافظة القليوبية لأسرة ذات أصول عربية عريقة، حفظ القرآن مبكرًا في كتاب القرية، ثم التحق بالأزهر فدرس به عامًا واحدًا ثم انتقل إلى المدرسة الابتدائية فأتم بها دراسته الابتدائية ثم التحق بمدرسة الخديوية الثانوية حيث نال منها شهادة البكالوريا، ثم التحق بمدرسة الحقوق الخديوية، وحصل منها على ليسانس الحقوق سنة ١٩١٥ .

وكان قد انضم إلى جمعية سرية كان قد كونها الزعيم محمد فريد، وكان يرأسها

إبراهيم الورداني[1]، وكانت تستهدف اغتيال عملاء الإنجليز وجنود الاحتلال.

وأثناء دراسة الهضيبي بمدرسة الحقوق شارك في الاحتجاج على تدخل الإنجليز في شئون العرش المصري وتعيينهم السلطان حسين كامل بدلاً من الخديوي عباس حلمي الثاني وقد فصل الهضيبي لمدة عام من مدرسة الحقوق بسبب رفضه وزملائه استقبال السلطان حسين كامل في زيارته لمدرسة الحقوق .

عمل الأستاذ حسن الهضيبي محاميا عدة سنوات في مدينة شبين القناطر ثم سوهاج، ثم دخل سلك القضاة في سنة ١٩٢٤، وتدرج في سلك القضاة حتى أصبح مستشارًا بمحكمة النقض.

التحق حسن الهضيبي بالإخوان المسلمين مبكرًا، ولكن ظلت علاقته بها في طي الكتمان مدة طويلة وذلك بناء على رأي الإمام الشهيد حسن البنا، ويروي الكثيرين من المقربين إلى الرجلين أنهما كانا يلتقيان في أكثر مكان وخاصة في قرية حسن الهضيبي (عرب الصوالحة) لمناقشة القضايا المستجدة على الساحة، وفي الأيام العصيبة أثناء حكومة عبد الهادي وقبيل اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا، كان الشهيد حسن البنا دائم الاتصال بالإمام حسن الهضيبي وجعله مستشارًا له وأفضي له بأنه يحس أنهم سوف يقتلونه ويروي حسن العشماوي أن الإمام الشهيد حسن البنا قال له: « إن اجتمعتم في غيابي إلى رأي فالتمسوه عند حسن الهضيبي المستشار بمحكمة النقض، فإني أحسبه صادقًا صائب الرأي ».

وعند استشهاد الإمام الشهيد حسن البنا في فبراير ١٩٤٩ م، وبعد سلسلة من الأحداث اتفق الرأي على اختيار المستشار حسن الهضيبي مرشدًا عامًا للإخوان المسلمين، وتمت البيعة له على ذلك، وقد واجه الرجل سلسلة من المشاكل مع عدد من أعضاء الحركة، ثم سلسلة من الاضطهادات والصدام مع عبد الناصر، ودخل السجن عدة مرات بدءاً من عام ١٩٥٤ وحتى عام ١٩٧١، إلا أنه رفض دائمًا تأييد الحكومة أو المساومة على مبادئ الحركة، وتوفي الرجل عام ١٩٧٣ .

(١) إبراهيم الورداني هو الذي اغتال بطرس غالي رئيس الوزراء المصري سنة ١٩١٠، عندما حاول مد امتياز قناة السويس.

الشهيد
سيد قطب

الشهيد سيد قطب

الأطروحة السياسية والحركية والظرف الموضوعي

لايختلف اثنان على فضل الشهيد سيد قطب ولا على بلائه وابتلائه في سبيل الله ونحسبه إن شاء الله شهيدًا ولا نزكي على الله أحدًا، ولا يختلف اثنان على أهمية ما كتبه الشهيد سيد قطب وخاصة تفسيره المعروف :« في ظلال القرآن » .

ولكن من واجب الشهيد سيد قطب علينا، ألا نستخرج من أحكامه أكثر مما تحتمل، وألا نحمل فكر الرجل غلوًا أو تشددنا أو قصر نظرنا، يجب علينا أن نفرق بين ما قدمه الشهيد سيد قطب في إطار التفسير أو الفقه أو التاريخ وبين أطروحته السياسية والحركية ورؤيته حول قضايا العمل الإسلامي المعاصر .

فالقضايا الأولى تؤخذ في إطار العلوم الإسلامية باعتباره مفكرًا إسلاميًا مجتهدًا، أما أطروحته السياسية والحركية فيجب ألا نفصلها عن ظرفها الموضوعي، ذلك أن الشهيد سيد قطب قد وضع تلك الرؤية في فترة عصيبة من فترات القهر والقمع التي تعرضت لها الحركة الإسلامية المعاصرة في الخمسينات والستينات من القرن العشرين في مصر، كانت فترة حالكة السواد، فالتعذيب والقتل والسجن لعناصر الحركة الإسلامية، والهجوم على الإسلام في وسائل الإعلام على قدم وساق .

كان الإسلام مطاردًا في كل جزيئاته، والسخرية من العقائد والعبادات الإسلامية إلى درجة أن الإنسان المتمسك بدينه صار

يخفي حتى عباداته ليس خوفًا من بطش السلطة فحسب، بل حتى لا يتهم بالرجعية والجمود والتخلف وعدم مجاراة العصر !! .

وفي مثل هذا الإطار، إطار المد العالي للفكر العلماني عمومًا واليساري خصوصًا، في إطار الهجوم على ما يمت للإسلام بصلة، في إطار القتل والتعذيب والتشريد والسجن للإسلاميين، كان المطلوب حماية المسلم من الاندماج في هذا الجو ، وتحقيق أكبر قدر من الاستعلاء على هذا الواقع الفاسد، في هذا الإطار جاءت الأطروحة الحركية للشهيد سيد قطب.

ولكن الأمر الآن مختلف تماما، فهناك صحوة إسلامية، وهناك تراجع كبير في الفكر العلماني عمومًا واليساري خصوصًا، وهناك جماهير تحترم الإسلام وعقائده وشرائعه رغم التحريض العلماني المستمر، وحتى رغم القمع البوليسي، وكل هذا يجعل الأطروحة الحركية الصحيحة والملائمة هي أطروحة التفاعل والتأثير والهجوم، وليست أطروحة العزلة والاستعلاء التي قال بها الشهيد سيد قطب، وكانت ملائمة للستينات أي مرتبطة بظرف محدد.

وخلاصة القول أن الأطروحة الحركية للشهيد سيد قطب جاءت في ظرف معين واستوعبت هذا الظرف وكانت ملائمة له ومكافئة له، ولكن الظروف تغير مما يوجب تطوير الأطروحة الحركية للحركة الإسلامية بما يلائم هذا الواقع المختلف كما ونوعا عن الواقع الذي جاءت فيه أطروحة سيد قطب، وهذا هو الفهم العلمي للشهيد سيد قطب ولتراثه الفكري والحركي الفذ[1].

مولده وحياته

ولد الشهيد سيد قطب في عام ١٩٠٦ في قرية موشا بمحافظة أسيوط بصعيد مصر، حفظ القرآن الكريم مبكرًا، وبعد إتمام دراسته الأولية التحق بكلية دار العلوم، حيث تخرج منها سنة ١٩٣٣ [2].

كان الشهيد سيد قطب يشارك في سنوات شبابه الأولى من خلال المدرسة [3] أو

(١)محمد مورو، عاجل إلى الحركة الإسلامية، دار المروة للإعلام، ١٩٩٠ م، القاهرة.

(٢)صلاح شدي، الشهيدان، دار الوفاء، القاهرة ١٩٨٨.

(٣)محمد الصايم، شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين، دار الفضيلة، القاهرة ١٩٩٢ .

الجامعة في النضال الوطني ضد الاستعمار، وكان أبوه عضوًا في الحزب الوطني الذي أسسه مصطفي كامل، وكان أعضاء الحزب الوطني هم مفجرو ثورة ١٩١٩ [١].

ونبغ الشهيد سيد قطب في الأدب حيث ألف القصص وقرض الشعر وكتب المقالات في النقد الأدبي بصورة لفتت إليه الأنظار، واقتنع الشهيد سيد قطب بفكر حركة الإخوان المسلمين في أواخر الأربعينات، وأصبح أحد الكتاب الرئيسيين في صحف الإخوان ، ثم انتخب عضوًا في مكتب الإرشاد للجماعة سنة ١٩٥٢ وعين رئيسًا لقسم نشر الدعوة في المركز العام للإخوان المسلمين، وفي سنة ١٩٥٤ أصبح رئيسًا لتحرير جريدة الإخوان المسلمين، ولكنها تعطلت عن الصدور بعد ذلك بشهر واحد، ثم دخل سيد قطب السجن في نفس العام ١٩٥٤، ثم مرة ثانية في عام ١٩٥٥، واستمر في السجن حتى عام ١٩٦٤، ثم أعيد للسجن مرة أخرى في عام ١٩٦٥، حيث حكم عليه بالإعدام، حيث تم تنفيذ الحكم في عام ١٩٦٦، حيث لقى ربه صابرًا محتسبًا .

جهاده ونضاله

لعل مجرد الأطلال على الفترات التي قضاها الشهيد سيد قطب في السجن منذ انخراطه في حركة الإخوان المسلمين تعطينا الدلالة على مدى جهاد الرجل ونضاله، فمنذ التحق بحركة الإخوان المسلمين في نهاية الأربعينات وحتى ١٩٦٦ حيث تم إعدامه، قضي الرجل معظم سنواته تلك من سجن إلى سجن ومن تعذيب إلى تعذيب إلى أن تم صدور الحكم بالإعدام عليه وتنفيذه سنة ١٩٦٦، ولعل أهم خصائص الرجل هو رفضه للظلم والظالمين، فقد ظل طوال حياته يدافع عن الإسلام وعن الفقراء والمستضعفين وينعي على الظلم والظالمين، وكان عزيز النفس شامخًا، فرفض دائمًا أن يقدم الاعتذار أو التماس تخفيف الأحكام أو التماسات الإفراج للسلطات الحاكمة، ولو فعل الرجل لما تأخروا عن إغرائه، بل لقد حاولوا إغرائه مرارًا وتكرارًا بمناصب مختلفة منها منصب الوزارة إلا أنه رفض دائمًا أن يساوم على دينه ومبادئه ومواقفه مما جعل السلطة في النهاية تخشي من

(١)د. عصام ضياء الدين الريس، الحزب الوطني والنضال السري، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة .

مصداقيته فنفذوا الحكم بإعدامه رغم أنه مفكر وصاحب رأي معروف في مصر والعالم العربي والإسلامي.

آثاره الفكرية ومؤلفاته

يتميز الإنتاج الفكري للشهيد سيد قطب بالغزارة والعمق، ويتميز أسلوبه اللغوي بالعاطفة والإيحاء والحيوية، ولعله من أبرع من امتلك ناصية البيان في اللغة العربية وتكاد نجد للشهيد سيد قطب إسهامًا في كل المجالات الفكرية والأدبية على اختلافها، فهو قاص بارع ومن مؤلفاته القصصية : طفل من القرية ، أشواك، المدينة المسحورة، قصص الأنبياء ، الأطياف الأربعة، وهو شاعر كبير أصدر العديد من دواوين الشعر مثل الشاطئ المجهول، حلم الفجر، قافلة الوثيق، وهو أيضًا ناقدًا أدبي متمكن وله كتاب في مجال النقد الأدبي يسمي « النقد الأدبي أصوله ومنهجه »، وهو كاتب وداعية ومفكر إسلامي فذ، وفي هذا الإطار فإن مؤلفاته من الكثرة والتنوع بمكان نذكر منها : معركة الإسلام مع الرأسمالية، السلام العالمي والإسلام، دراسات إسلامية، نحو مجتمع إسلامي، هذا الدين، المستقبل لهذا الدين، خصائص التصور الإسلامي ومقدماته، الإسلام ومشكلات الحضارة، معالم في الطريق.

ولعل أهم مؤلفاته على الإطلاق هو تفسيره للقرآن الكريم الذي يعد أهم التفسيرات المعاصرة للقرآن الكريم وأشهرها وهو تحت عنوان : «في ظلال القرآن» ويقع في عدة مجلدات[1] .

(١)صلاح شادي، الشهيدان، مرجع سابق .

الشيخ حافظ سلامة

قائد المقاومة الشعبية في مدينة السويس ١٩٧٣

دخل الشيخ حافظ سلامة التاريخ كبطل للمقاومة الشعبية في مدينة السويس إبان حرب ١٩٧٣، فقد كان هو قائد تلك المقاومة ومفجرها، وهو الذي رفض بإصرار تسليم المدينة للقوات الإسرائيلية، وهو الذي نظم عملية صمود المدينة مع عدد من أبناء السويس ورجالها الأبطال .... وكانت القوات الإسرائيلية قد استطاعت أن تتسلل إلى الضفة الغربية لقناة السويس بعد نجاح الجيش المصري في عبور القناة وتحطيم خط بارليف، وجاء هذا التسلل الإسرائيلي من منطقة الدفر سوار كمحاولة للقضاء على مكاسب الجيش المصري في تلك المعركة، واستطاعت تلك القوات الإسرائيلية أن تحقق بعض المكاسب على الأرض، ووصلت بالفعل إلى مشارف مدينة السويس بهدف احتلالها، ولو استطاعت القوات الإسرائيلية احتلال المدينة في ذلك الوقت لكان الموقف قد أصبح خطيرًا جدًّا، حيث إن احتلال المدينة يحقق للقوات الإسرائيلية استكمال حصار الجيش الثالث الميداني في سيناء، ويفتح أمامها الطريق على القاهرة عبر السويس، وعلى حد تعبير أحد المؤرخين العسكريين فإن احتلال السويس كان بمثابة حبل يلتف حول رقبة الجيش الثالث، ومدفع مصوب على القاهرة .

مولده وحياته

الشيخ حافظ على أحمد سلامة، ولد بالسويس في

٦ ديسمبر «كانون أول » ١٩٢٥ م، التحق بالأزهر، ودرس العديد من العلوم الدينية ثم عمل بالأزهر واعظًا، حتى أصبح مستشارًا لشيخ الأزهر لشئون المعاهد الأزهرية حتى عام ١٩٧٨، ثم أحيل إلى التقاعد .... وفي خلال تلك الرحلة من التعليم والعمل بالأزهر، كان للشيخ حافظ سلامة دورًا اجتماعيًا وسياسيًا ونضاليًا بارزًا، حيث التحق في شبابه بجماعة شباب محمد التي أنشأها الأستاذ حسين محمد يوسف عام ١٩٤٨، وشارك الشيخ حافظ سلامة من خلال تلك الجمعية في النضال الوطني الإسلامي في مصر ضد الاحتلال الإنجليزي، ثم اعتقل بعد ذلك في إطار الاعتقالات والتصفيات التي نفذها النظام الناصري ضد الإسلاميين، وظل الشيخ حافظ سلامة في السجن حتى نهاية ١٩٦٧، وكانت الحكومة المصرية قامت بحل جماعة شباب محمد في إطار حل الجمعيات الإسلامية في الستينات، إلا أن الشيخ حافظ سلامة أسس فيما بعد جمعية الهداية الإسلامية في مدينة السويس، وهي الجمعية التي اضطلعت بمهمة تنظيم الكفاح الشعبي المسلح ضد إسرائيل منذ عام ١٩٦٧، وحتى عام ١٩٧٣، وقد لعبت تلك الجمعية دورًا هامًا في بناء العديد من المساجد، وتنظيم حلقات الوعظ والتوجيه المعنوي لرجال القوات المسلحة عقب هزيمة ١٩٦٧ م، فقد كان الشيخ حافظ سلامة معتقلاً حتى عام ١٩٦٧، حيث حدثت هزيمة الجيوش العربية في حرب ٥ حزيران « يونيو » ١٩٦٧، وعندما حدثت معركة حزيران « يونيو » طلب الشيخ حافظ سلامة وزملائه من قائد معتقل أبي زعبل الرائد محمد عبد العال سلامة أن يسمح لهم بالخروج لأداء واجبهم الديني في الدفاع عن البلاد ضد اليهود وتعهدوا له بالعودة بعد انتهاء المعركة إلى السجن، إلا أن طلبهم قوبل بالرفض .

ثم أفرج عن الشيخ حافظ سلامة في ديسمبر عام ١٩٦٧ فاتجه إلى مسجد الشهداء بالسويس، وأنشأ جمعية الهداية الإسلامية ونجح في إقناع قيادة الجيش في تنظيم قوافل توعية دينية للضباط والجنود تركز على فضل الجهاد والاستشهاد وأهمية المعركة مع اليهود، وعلى جرائم اليهود بحق الأنبياء وغيرها من المعاني التي تساهم في رفع الروح المعنوية للقوات المسلحة المصرية، وقد شارك في تلك

القوافل علماء الأزهر، وأساتذة الجامعات مثل الدكتور عبد الحليم محمود، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ حسن مأمون، والدكتور محمد الفحام، والشيخ عبد الرحمن بيصار وغيرهم، وقد نجحت القوافل نجاحًا كبيرًا فصدر قرار بتعميمها على جميع وحدات الجيش المصري في طول البلاد وعرضها كنوع من الاستعداد للمعركة الفاصلة مع اليهود .

معركة السويس (٢٢ ـ ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣)

تعد قيادة الشيخ حافظ سلامة لعمليات المقاومة الشعبية في مدينة السويس بدءًا من يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ م هي المحطة الأهم في حياة الشيخ حافظ سلامة، كانت القوات الإسرائيلية قد نجحت في التسلل إلى غرب قناة السويس في منطقة الدفرسوار وسيطرت على مساحة كبيرة من الأرض باتجاه السويس واستعدت لاقتحام المدينة لتكمل الحصار على الجيش الثالث الميداني بالضفة الشرقية للقناة وتهدد القاهرة، وكانت أجهزة المدينة الرسمية قد قررت تسليم المدينة، حيث أن الأوضاع الدفاعية والتموينية للمدينة لم تكن تسمح بالصمود على حد تقدير تلك الأجهزة، ولكن الشيخ حافظ سلامة ومعه عدد من القيادات الشريفة المجاهدة، ومعه جميع أبناء المدينة قرروا رفض تسليم المدينة واستمرار المقاومة مهما كانت الظروف، وقد تعرضت المدينة لحصار شديد من القوات الإسرائيلية، وكذا لقصف مستمر من الطائرات .

***

دور اجتماعي ونضالي بارز

بعد حرب ١٩٧٣، لم يتوقف الشيخ حافظ سلامة عن العطاء الوطني والإسلامي، فقد استطاع من خلال جمعية الهداية الإسلامية أن يؤسس عدد من المساجد والمراكز الإسلامية الكبيرة والمتميزة في عدد من مدن مصر، لعل أكبرها وأهمها مسجد الفتح الإسلامي بميدان رمسيس وهو صاحب أعلى مئذنة في مدينة القاهرة، وكذا مسجد النور بالعباسية بالقاهرة، كما قام الشيخ حافظ سلامة من خلال جمعية الهداية الإسلامية بإنشاء عدد كبير من المدارس والملاجئ

ومراكز رعاية المعوقين، ومراكز التأهل المهني وتعليم الحرف للأولاد والبنات، وساهم بذلك في خلق فرص عمل لهؤلاء .

وقد اعتقل الشيخ حافظ سلامة لفترات قصيرة أبان عامي ١٩٨١، ١٩٨٣ إلا أن تاريخه النضالي لم يكن يسمح باستمرار اعتقاله لفترات طويلة، كما قام الشيخ حافظ سلامة بالدعوة إلى مسيرة شعبية، تعد الأهم من نوعها وهي مسيرة الشريعة الإسلامية للمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية، وقد استجاب لندائه عشرات الألوف تجمعوا في مسجد النور بالعباسية عام ١٩٨٤ م، وقام وفد منهم بتسليم طلب تطبيق الشريعة الإسلامية إلى رئاسة الجمهورية في ذلك الوقت .

عثمان الفودي
(١٧٥٢-١٨١٧م)
مؤسس الدولة الصكتية في غرب أفريقيا

يخطئ من يتصور أن العطاء الحضاري والجهادي للإسلام والمسلمين قد انقطع يومًا ما ويخطئ من يتصور أيضًا أن الاستعمار الأوروبي لأفريقيا كان قدرًا لا فكاك منه، بل يرجع أساسًا إلى أخطاء تكتيكية واستراتيجية ارتكبها المسلمون .

ولعل في تجربة الشيخ عثمان بن فودي مؤسس الدولة الصكتية في غرب أفريقيا ما يؤكد هذين الأمرين .

يقول الأستاذ أحمد محمد قاني عن تلك التجربة في كتابه الهام «الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا» : مما لاشك فيه أن حركة الجهاد الصكتي تعتبر إحدى الثورات الإسلامية الفريدة في العالم الإسلامي التي ساهمت في خلق دولة إسلامية وفي بناء مجتمع إسلامي على أسس سلمية . لقد تركت هذه الحركة بصمتها الفكرية والسياسية على مجتمعات غرب أفريقيا، وما زالت آثار هذه البصمات باقية وعالقة حتى الآن، ولا تزال معالمها تقف شامخة وشاهدة على عظمة هذه الدولة التي استمرت مائة عام منذ عام ١٨٠٤م وحتى دخول الاستعمار الأوروبي الفرنسي والإنجليزي والألماني لتلك البلاد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ونتج عن ذلك تقسيم الخلافة الصكتية إلى مناطق نفوذ للدول الاستعمارية، وكانت الخلافة الصكتية في فترة قصيرة قد نجحت في السيطرة على مساحة جغرافية، كبيرة حوالي ١٥٠ألف ميل مربع، واستطاعت أن تقيم دولة كبيرة شاسعة الأطراف من تشاد إلى مالي شرقًا وغربًا وإلى ولاية أويو جنوبًا .

وهكذا فإننا أمام حركة جهادية ظهرت في القرن التاسع عشر أي في عصر الانحطاط الإسلامي، الأمر الذي يؤكد استمرار العطاء الحضاري والجهادي للإسلام في كل الظروف، واستطاعت تلك الحركة أن تقيم خلافة على مساحة كبيرة من الأرض من تشاد إلى مالي لمدة كبيرة من الزمن – حوالي ١٠٠ عام – وأن توحد تلك المناطق تحت نفوذها، ولولا الخلافات التي ظهرت فيما بعد لاستطاعت تلك الدولة الصمود في وجه الزحف الأوروبي، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك أنه لو كان محمد على الذي ظهر في مصر سنة ١٨٠٥ م واستطاع أن يقيم دولة قوية، لو كان محمد على قد اهتم بمشروعه الأفريقي وتحاشي الصدام مع الخلافة العثمانية، ووفر على مصر وأفريقيا والعرب والخلافة العثمانية هذا المجهود الكبير الذي تبدد في الصدام بين مصر ودولة الخلافة العثمانية، لاستطاع محمد على بجيش مصر ومواردها وعلمائها أن يقيم نهضة حضارية شاملة في أفريقيا حيث أن فتح السودان مثلاً كلف محمد على أقل من ١,٠ / ٠ من المجهود الذي بذله في مشروعاته ومغامراته الشمالية، ولكان قد استطاع أن يقيم نهضة صناعية وعسكرية في أفريقيا، ويوفر في الوقت نفسه المجهود الذي بلته الدولة العثمانية في الصدام معه ، وبالتالي كانت تستطيع أن تصمد في معاركها مع الدول الأوروبية داخل أوروبا ذاتها ..

وهذا معناه أولاً : شغل الدول الأوروبية عن مشروعاتها الاستعمارية في أفريقيا، وحرمان أوروبا بالتالي من كل الموارد التي قامت عليها نهضتها الصناعية. ثانيًا : ويمكن لنا أن نتصور تساند محمد على والدولة الصكتية في أفريقيا لإقامة نهضة إسلامية حضارية وعسكرية وصناعية بثروات أفريقيا وعلماء مصر ورجالها، خاصة أن التقدم العلمي في ذلك الوقت لم يكن يسمح لأوروبا أن تعرقل مشروع محمد على الأفريقي خاصة في مجال المواصلات، حيث تظل المسافات بين أوروبا وأفريقيا في هذه الحالة حائلاً بينها وبين عرقلة مشروع محمد على الأفريقي، كما أن ميزان القوى العلمي والعسكري لم يكن مختلاً جدًا بين أوروبا ومصر في عهد محمد على لأن هذا الميزان أصلاً كان مستقطبًا نحو الصراع داخل أوروبا ذاتها ومع الدولة العثمانية من ناحية، ولأن

التقدم العلمي والعسكري والصناعي الأوروبي لم ينشأ بصورته الراهنة إلا بعد نهب ثروات أفريقيا .

أي أن الاستعمار الأوروبي لأفريقيا لم يكن قدرًا، بل جاء نتيجة اختلاف أبناء عثمان الفودي وأتباعه من الدولة الصكتية وكذلك جاء نتيجة الخطأ الاستراتيجي الفادح لمحمد على حين اتجه شمالاً فاصطدم بالخلافة بدلاً من أن يتجه إلى عمقه الاستراتيجي الطبيعي والحيوي في أفريقيا، ولو حدث ذلك لكان من الممكن الآن الحديث عن الإنسان الأفريقي صاحب المشروع الحضاري الصناعي والعسكري، والإنسان الأوروبي المتخلف، أي لكانت النهضة والثروة الصناعية قد حدثت في الجنوب، والعكس في الشمال على غير الحال التي وصلت إليه الآن.

حياته وجهاده :

هو الشيخ عثمان بن محمد بن محمد الملقب بالفودي « أي الفقيه بلغة القلانيين » ولد في ولاية سكتو في نيجريا الحالية في قرية مرت سنة ١١٦٨ هـ - ١٧٥٢ م، وقد نشأ الشيخ في بيئة علمية إسلامية، وبدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم على يد والده الشيخ محمد فودي ودرس علوم اللغة العربية والعلوم الدينية الإسلامية على يد الشيخ عبد الرحمن بن حمدا، ثم أخذ ينتقل من مكان إلى مكان طالبًا للعلم كعادة الطلاب في ذلك الزمان .

وتنقسم حياة الشيخ عثمان الفودي إلى ثلاث مراحل، هي مرحلة الدعوة منذ عام ١٧٧٤ إلى عام ١٨٠٣، ثم مرحلة الجهاد وإنشاء الخلافة الصكتية من عام ١٨٠٤ إلى عام ١٨١٠ م، ومرحلة توطيد أركان تلك الدول الإسلامية الجديدة من عام ١٨١٠ وحتى عام ١٨١٧ م، حيث توفي الشيخ في هذه السنة نفسها أي عام ١٨١٧ م .

الخلافة الصكتية :

بعد مجهود كبير بذله الشيخ عثمان الفودي في الدعوة إلى الجهاد والوحدة وتحكيم شرع الله بدلاً من التنافر والفساد والتفكك و استطاع الرجل أن يجمع

حوله عددا كبيرا من الأنصار والأتباع، بدأ بهم مرحلة جهاد وقتال مرير وهجرة من مكان إلى مكان، واستطاع الشيخ أن يصنع النواة لدولته الجديدة القائمة على تحكيم شرع الله تعالى والدعوة إلى توحيد المسلمين في غرب أفريقيا، واتخذ من مدينة صوكتو عاصمة لدولته الجديدة ومن قتال على قتال ومن جهاد إلى جهاد وسع الشيخ أملاك خلافته حتى أصبحت تضم بعد وفاته حوالي ١٥٠ ألف ميل مربع في تشاد شرقًا ومالي غربًا والنيجر ونيجريا جنوبًا، وعاشت تلك الدولة حوالي مائة عام منذ عام ١٨٠٤ وحتى بداية القرن العشرين حيث كان الصدام والتفكك الذي حدث فيما بين خلفاء الشيخ عثمان الفودي سببا في سقوط تلك البلاد في يد الاستعمار الأوروبي .

الآثار العلمية للشيخ عثمان الفودي :

وإلي جانب حياة الجهاد والقتال والإدارة التي عاشها الشيخ عثمان فإنه كان عالمًا فقيهًا وشاعرًا فحلاً، فقد كان يقرض الشعر ويجيد وزن الأبيات بلغة عربية فصحي ومازال الكثير من أشعاره محفوظًا حتى الآن كما كان ضليعًا في علوم اللغة العربية والعلوم الشرعية الإسلامية وكان صاحب مدرسة جهادية وإصلاحية متميزة مازالت آثارها الفكرية والسياسية والدينية باقية في غرب أفريقيا حتى اليوم .

وقد تميز الشيخ عثمان بالدعوة إلى الاجتهاد ورفض الدعوة التي تقول بإغلاق باب الاجتهاد الشرعي، وكان يشجع تلاميذه على ذلك وفي هذا الصدد يقول الأستاذ أحمد محمد قاني في كتابه « الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا » كان الشيخ عثمان الفودي يرمي من وراء آرائه الاجتهادية إلى حل المشاكل التي تواجه الإدارة السياسية والنظام القضائي، وقد تبلورت آراء الشيخ عثمان الاجتهادية في كثير من المسائل السياسية والقضايا التي تولدت من المشاكل اليومية التي واجهتها الإدارة في تلك الأزمنة .

وكان من الطبيعي أن يلقب فقه الجهاد الصكتي بفقه الدعوة لأنه فقه عمل وليس نظريًا كما يتضح جليا في كتابات بعض الفقهاء، ولم يعتمد الشيخ عثمان بن فودي في طرحه للقضايا الفقهية والسياسية ومحاولته إيجاد الحلول لها على

آراء المتقدمين فحسب، بل حاول بنفسه استنباط الأحكام المناسبة، معتمدًا على اجتهاده الخاص على ضوء الكتاب والسنة، ليجريها على الواقع الاجتماعي والسياسي .

وقد ناهزت مؤلفات الشيخ عثمان الفودي مائة كتاب، كما شكل مدرسة فقهية استمر عطاؤها طويلاً في إخوانه وأبنائه وأتباعه وتلاميذه، ومن أهم مؤلفات الشيخ عثمان الفودي إرشاد الملة إلى تيسير الملة، الفرق بين ولاية أهل الإسلام وبين ولاية أهل الكفر، تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس لأجل تعليم النسوان، علم فروض الأعيان من دين الله تعالى الرحمن، سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان، مسائل مهمة يحتاج معرفتها أهل السودان وغيرها من المؤلفات التي جاءت في معظمها في باب الجهاد والدعوة وتحليل الواقع المعاش والاجتهاد في المسائل المطروحة عمليًا[1] .

(١) أحمد محمد قاني، الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا، الزهراء للإعلام العربي، ورقة ثقافية رقم (٧)، القاهرة، ١٩٨٧ م .

إبراهيم صالح بن يونس، الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم، برونو، القاهرة، ١٩٧٦ م .

الأمير عبد الكريم الخطابي

نموذج ثوري فريد صفحة من كفاح شعب المغرب

بعد صدام طويل بين الإسلام والصليبية على أرض المغرب العربي، هذا الصدام الذي استمر ألف عام، قبل فتح الأندلس وأثناء الحكم الإسلامي للأندلس وبعد سقوط الحكم الإسلامي للأندلس، بعد هذا الصدام الطويل نجحت فرنسا : أحد أذرع الإخطبوط الصليبي الغربي في احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ ثم تونس ١٨٨١ وكان من الطبيعي أن يمتد بصر فرنسا نحو مراكش ، والتي كانت تتعرض في ذلك الوقت لهجمات غربية صليبية متعددة « ألمانيا وأسبانيا وإنجلترا وفرنسا » .

وتم التفاهم بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ وهو الاتفاق الذي أطلق يد فرنسا في مراكش مقابل إطلاق يد إنجلترا في مصر، وفي عام ١٩٠٦ تم أيضًا الاتفاق بين فرنسا وألمانيا على إطلاق يد فرنسا في مراكش، وكانت أسبانيا قد اقتطفت لنفسها أجزاء من مراكش مثل الصحراء المغربية وسبتة ومليلة وغيرها .

ونجحت فرنسا في إعلان احتلال المغرب سنة ١٨١٢ وكان من الطبيعي أن يستمر شعب المغرب في المقاومة التي لم تتوقف قط، ويصف ضابط فرنسي يدعي جيوم المقاومة في مراكش قائلاً (لم تستسلم أي قبيلة دون مقاومة، ولم تلق أي قبيلة سلاحها إلا بعد استنفاذ كل وسائل المقاومة)، وقاد المقاومة في ذلك الوقت عدد من المجاهدين والزعماء مثل هبة الله بن ماء العيون الذي فجر الثورة في فاس واندلعت شرارتها

على جميع الأقاليم عام ١٩١٢، وكذلك السيد الحلالي في الجنوب الشرقي من مراكش ، حيث استمرت تلك الثورة حتى عام ١٩٣١ .

ولم يقتصر الجهاد في ذلك الوقت على قتال الفرنسيين، بل شمل أيضًا القتال ضد الأسبان الذين كانوا يسيطرون على منطقتي الريف والجبالة، وحمل لواء الجهاد ضد الأسبان أحمد بن محمد الرسولي الذي صمد في القتال منذ عام ١٩١١ وحتى عام ١٩٢١ .

ظهور الأمير عبد الكريم الخطابي

هو الأمير محمد عبد الكريم الخطابي، المشهور بزعيم ثورة الريف ومؤسس جمهورية الريف في المغرب والذي ظل يقاتل الأسبان والفرنسيين منذ عام ١٩٢١ م حتى عام ١٩٢٦م، وهو خريج جامعة القرويين الإسلامية في المغرب، وقد ابتكر الأمير عبد الكريم الخطابي العديد من التكتيكات الحربية التي استفاد منها كل من الجنرال جياب في حرب فيتنام ضد القوات الأمريكية وكذا الثائر اليساري جيفارا في أمريكا الجنوبية، وقد سقط الأمير في الأسر عام ١٩٢٦ م ونفي إلى خارج المغرب حيث استقر في القاهرة ليواصل نضاله فشكل بها لجنة المغرب العربي للمطالبة باستقلال بلاد المغرب العربي ومتابعة كفاحها .

جهاد الأمير:

ظهر الأمير محمد عبد الكريم الخطابي في عام ١٩٢١ م في منطقة الريف، واستطاع أن يفجر الثورة بمنطقة الريف على الأسبان وأن يحقق العديد من الانتصارات عليهم، وخاصة في موقعة الأنوال حيث أبادت قوات الأمير الحملة الأسبانية بأسرها بما فيها قائدها الأسباني سلفستر ومنذ ذلك الوقت ذاعت شهرة الأمير وسلمت له قبائل الريف كلها بالزعامة وانخرطت معه في الجهاد ضد الأسبان وحاصرت جميع المراكز الأسبانية في المنطقة وفي مدي خمسة أيام « مايو ١٩٢١ » كانت بلاد الريف قد تحررت تقريبًا من النفوذ الأسباني ووصلت طلائع قوات الأمير إلى ضواحي مليلة ودفع عدد كبير من الأسبان في الأسر وأصبح وجود الأسبان قاصرًا على مدينة تطوان وبعض الموانى والحصون في

الجبال وأسس الأمير إدارة منظمة للمناطق المحررة وحكمها حكمًا شبيهًا باحكم الجمهوري الرئاسي وألف مجلسا لرؤساء القبائل وجعل الوزراء مسئولين أمام هذا المجلس، وأعلن الخطابي أن أهداف حكومته هي طرد الأسبان والفرنسيين من المغرب وتحرير باقي بلاد المغرب العربي.

ولم يقتصر جهاد الأمير على القتال ضد الأسبان، بل إنه استخدم جمهورية الريف التي شكلها في الضغط على القوات الفرنسية وتحريض القبائل على التمرد والعصيان في منطقة النفوذ الفرنسي وخاصة بدءاً من عام ١٩٢٥، وبدأت الصدمات المتوالية تقع بين الأمير والقوات الفرنسية وأوقع بالفرنسيين خسائر فادحة .

وكان من الطبيعي إزاء تلك القوة الصاعدة التي تمتلك قائدًا كفئًا ومقاتلين شجعان، أن تتجمع القوى الاستعمارية ضدها، فتم عقد مؤتمر بين أسبانيا وفرنسا في مدريد عام ١٩٢٥ م لتنسيق الأعمال الحربية بينهما ضد الأمير عبد الكريم الخطابي، وتدفقت القوات الفرنسية والأسبانية على المغرب، بل وأيضا تم استخدام بعض المرتزقة من الطيارين الأمريكيين في تلك المعركة، وحشدت فرنسا وأسبانيا قواتها البحرية والبرية والجوية كمحاولة القضاء على الأمير واستطاع الأمير عبد القادر أن يصمد من مايو ١٩٢٥ إلى مايو ١٩٢٦ م أي عامًا كاملاً أمام جحافل دولتين أوروبيتين هما فرنسا وأسبانيا، وأخيرًا تم القضاء على قوات الأمير وسقط الأمير في الأسر، ليرحل إلى القاهرة بعد ذلك ليواصل نضاله من أجل المغرب العربي .

وإذا حاولنا أن نحلل تجربة الأمير عبد الكريم سواء في تنظيمه لجمهورية الريف، أو في قتاله ضد الفرنسيين والأسبان نجد :

أن الأمير انطلق من دوافع جهادية إسلامية، فهو عالم دين إسلامي، خريج جامعة إسلامية (جامعة القرويين) .

كان الأمير يؤمن بأسلوب الكفاح المسلح وشاركته أوسع الجماهير في الثورة.

كان الأمير عبد الكريم الخطابي يؤمن بالشورى وأقام نظام جمهورية الريف على النظام الرئاسي الجمهوري وهو بهذا قدم اجتهادًا إسلاميًا متقدمًا في هذا

الصدد في ذلك الوقت .

أن صمود دولة الريف سنة كاملة (مايو ١٩٢٥ ـ مايو ١٩٢٦) أمام دولتين أوروبيتين يعتبر حالة متميزة في تاريخ الحروب مع الاستعمار ، ويكفي أن الأمير واجه ثلاثة من كبار الماريشالات هم ليوني، بنيان، بريمودي، وأربعين جنرالاً ومئات الألوف من القوات الأسبانية والفرنسية، بل ومرتزقة أمريكيين، وكذلك واجه القوات البحرية والبرية والطيران، أي أنها كانت حربًا شاملة بين جمهورية الريف وبين فرنسا وأسبانيا بكامل قواتهما، بل أن رئيسي هاتان الدولتان قدموا إلى مراكش للإشراف على القتال بأنفسهم .

أننا في مقارنة صمود جمهورية الريف وصمود أهل فيتنام مثلاً نجد أن القوات الفيتنامية قد تلقت معونة هائلة من الاتحاد السوفيتي والكتلة الشيوعية بعكس جمهورية الريف التي لم تعتمد إلا على قواها الذاتية .

أن تجربة جمهورية الريف تكشف خصوبة الاجتهاد الإسلامي مبكرًا، فهو تجربة جمهورية قائمة على الشوري، وكذلك فإن صمود جمهورية الريف أمام جحافل جيشين استعماريين كبيرين تؤكد قدرة المسلمين على القتال والمواجهة إذا ما توفر لهم عنصر قيادي يمتلك الشجاعة والذكاء وسعة الأفق السياسي والعسكري .

أن الأمير عبد الكريم الخطابي لم يكن يهدف بحركته إلى تحرير مراكش وحدها أو حتى دول المغرب العربي كلها أو حتى شمال أفريقيا بأسره، بل كان يتطلع إلى حركة تحرر إسلامية شاملة في كل أنحاء العالم الإسلامي ضد السيطرة الأوروبية .

عبد القادر الجزائري

منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها أقدام الفرنسيين الجزائر عام ١٨٣٠ هب الجزائريون جميعًا للمقاومة، ولم تنقطع هذه المقاومة على الإطلاق منذ عام ١٨٣٠، وحتى استقلال الجزائر عام ١٩٦٢، وفي خلال هذه الرحلة الجهادية الكبرى لشعب الجزائر برز العديد من رموز الثورة والجهاد، ولعل الأمير عبدالقادر يأتي على رأس هذه الرموز .

مولده وحياته :

ولد الأمير عبد القادر في مايو سنة ١٨٠٧ في قرية «قبطنة» وهي قرية جزائرية تقع في منطقة « أغريس » إلى الجنوب الشرقي من وهران كان والده محيي الدين من المرابطين الذين ظهر أجدادهم المرابطون في المغرب وحملوا السلاح دفاعًا عن المغرب والأندلس، حتى إذا زالت دولة الأندلس استقروا في ربوع بلاد المغرب العربي يعملون على نشر علوم الدين، وكان ينحدر أساسًا من سلالة هاشمية زادته شرفًا على شرف.

حفظ الأمير عبد القادر القرآن الكريم مبكرًا ثم تلقي عددًا من العلوم الشرعية على يد عدد من العلماء منهم والده محيي الدين، كما درس عددًا من العلوم الحديثة مثل الفلك والحساب والجغرافيا حتى عام ١٨٢٢ م ثم رافق والده إلى الحج إلى مكة المكرمة عام ١٨٢٥، وعاد من رحلة الحج عام ١٨٢٨ م، وفي عام ١٨٣٠ احتلت فرنسا الجزائر، فانخرط

الشعب الجزائري وعلى رأسه المرابطون ومنهم والد عبد القادر « محيي الدين » في الجهاد والقتال ، وطلب المرابطون أن يصبح محيي الدين قائدًا لهم، فرفض ذلك، وانتهى الأمر بمبايعة شيوخ المرابطين للأمير عبد القادر على الإمارة والجهاد ضد الفرنسيين عام ١٨٣٢ م، ومنذ ذلك الحين حمل الأمير عبد القادر لواء الجهاد والثورة على الفرنسيين، وأظهر شجاعة وذكاء في إدارة المعارك على الفرنسيين واستمر مقاتلاً مجاهدًا حتى عام ١٨٤٨، حيث هزم ونقل معتقلاً إلى سجون فرنسا ثم أطلق سراحه سنة ١٨٥٣، ونفي إلى بروسية ثم دمشق ١٨٥٦، حيث ظل بها أغلب سنواته الباقية ولم يكن يتركها إلا لزيارات إلى مصر أو فرنسا أو الذهاب إلى الحج، وقضي الأمير عبد القادر تلك السنوات في العبادة والعلم إلى أن توفي في عام ١٨٨٣ م في دمشق .

جهاده ضد الفرنسيين :

منذ أن اجتمعت كلمة شيوخ المجاهدين على ضرورة توحيد راية الجهاد تحت قيادة رجل واحد، وتم اختيار الأمير عبد القادر لهذه المهمة الصعبة، بدأ الأمير عبد القادر سنة ١٨٣٢ في توحيد المناطق التي لم يصل إليها الاحتلال الفرنسي، كما انضم إليه عدد من زعماء الجهاد في مختلف أرجاء الجزائر، وبدأ في تنظيم إدارة حكومية لتنظيم أمور الحياة في تلك المناطق وتعبئتها وحشد طاقاتها للجهاد ضد الاحتلال الفرنسي وأعتمد الأمير عبد القادر على الفقه المالكي لتنظيم العلاقات والقوانين وطرق الحكمة، كما أقام مجلسًا للشورى يضم مندوب عن كل منطقة من المناطق الإحدى عشر التابعة له، وكان لا يبرم أمرًا إلا بعد الرجوع إلى هذا المجلس، وبدأ الأمير ببث الدعاة في مختلف أنحاء الجزائر للدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، واستطاع أن يشكل جيشًا نظاميًا بلغ قوامه ١٦ ألف جندي بالإضافة إلى قوات المتطوعين من القبائل الذين يبلغ عددهم ١٥٠ ألفًا، كما أقام عددا من مصانع السلاح في المناطق التي يسيطر عليها، مثل مصنع صهر المعادن في تلسمان الذي كان ينتج يوميًا ثمانية عشر مدفعًا، ومصنع للبنادق في مدينة مليانة، آخر لإنتاج البارود، وعدد آخر من مصانع السلاح والذخيرة في تلمسان والمعسكر ومليانة والمدية

وتاقداوت، كما نشطت صناعة التعدين وخاصة تعدين ملح البارود، الكبريت، الحديد، النحاس، ولعل هذا أثبت أن المسلمين كانوا يسيرون في اتجاه التصنيع الثقيل لولا الاستعمار، وأن هذا الاستعمار هو الذي قضي على الثورة الصناعية في بلاد المسلمين، ولم يكن هناك تأخر علمي أو خلافه بل إن نجاح الأمير عبد القدر في إنشاء هذه الصناعات يثبت وجود الخبرات العلمية الأزمة لذلك في بلاد المسلمين ولولا الاستعمار لتطورت التكنولوجيا في بلادنا، والغريب أن البعض يزعم أن الاستعمار قد حمل إلينا العلوم ! ولولاه لكنا لا نزال غارقين في الجهل .

واهتم الأمير عبد القادر بتأسيس المدن الجديدة وتنظيم الإدارة الحكومية تنظيمًا دقيقًا وأن يرفع المظالم عن الأهالي ويرسي علاقات الثقة والود بين الشعب والحاكم، كما أنشأ المكتبات العامة واستجلب لها الكتب من مختلف بلاد العالم وفتح العديد من المدارس، واهتم بتعليم الأطفال وخصص لطلاب العلم مرتبات شهرية، ونظم القضاء اعتماداً على المذهب المالكي وهو مذهب أهل الجزائر والمغرب العربي عمومًا، وقد امتنعت أعمال السرقة والسطو تمامًا وامتنعت أيضًا تجارة المخدرات والخمور والدعارة والميسر، واعتمد الأمير عبد القدر في ذلك على القدوة فكان هو نفسه مثالاً يحتذي من حيث أسلوب الحياة ونزاهة النفس .

بدأ الأمير عبد القادر ورجاله المجاهدون عملياتهم القتالية ضد الفرنسيين سنة ١٨٣٣م، وقاد الأمير عبد القادر رجاله في اتجاه وهران ، اصطدم مع القوات الفرنسية واستطاع أن يلحق بها خسائر ضخمة وأن يأسر عددًا كبيرًا من الفرنسيين ويبيد الكثير من كتائبهم واستمرت انتصارات الأمير عبد القادر في آرزيو ومستغانم والهبرة حتى عام ١٨٣٥ مما أدى إلى هياج في فرنسا وتم تغيير القائد الفرنسي وإرسال المزيد من القوات الفرنسية إلى الجزائر لإنقاذ الجيش الفرنسي المهزوم في الجزائر، وبرغم تغيير القائد الفرنسي وإرسال المزيد من القوات الفرنسية إلى الجزائر، استمرت نجاحات الأمير عبد القادر ورجاله ضد القوات الفرنسية وحقق الأمير عبد القادر أكبر انتصاراته على الجيش الفرنسي الذي اضطر إلى الانسحاب عن طريق البحر إلى وهران، واستمر الأمير يضغط على الفرنسيين في كل مكان

طوال عام ١٨٣٦ حتى اضطرت فرنسا إلى تغيير القائد الفرنسي في الجزائر مرة أخري، وتم تحرير وهران نفسها وكذلك دخل الأمير عبد القادر تلمسان، وأصبح الوجود الفرنسي في الجزائر كلها مهددًا تمامًا عام ١٨٣٧، وللأسف الشديد وقع الأمير هدنة مع الفرنسيين في ذلك الوقت، ولو ضرب ضربته الكبرى لأزاح الوجود الفرنسي من الجزائر كلها في ذلك الوقت .

تجددت الاشتباكات عام ١٨٤٠ بعد أن عززت فرنسا قواتها بالمزيد من الجنود والسلاح فوصلت إلى ٣٠ ألف جندي وعندما أحس الأمير عبد القادر عدم توازن القوى لجأ إلى أسلوب الإغارة والكمائن وقطع طرق الإمداد مما أرهق القوات الفرنسية فأرسلت فرنسا ٨٠ ألف جندي على الجزائر لإخضاع الأمير عبد القادر، الذي استمر في أسلوب حرب العصابات طوال أعوام ١٨٤١، ١٨٤٢، ١٨٤٣، وأوقع خسائر فادحة في القوات الفرنسية، ثم اضطر إلى اللجوء إلى الحدود المغربية ١٨٤٥ واتخذ منها قاعدة لغزواته، وعندئذ اندلعت ثورة أخرى في الجزائر في منطقة الظهرة وسهل الشلف بقيادة محمد بن عبد الله أبي معزة فاستغل الأمير عبد القادر الفرصة وقاد قواته إلى داخل الجزائر ودمر الحامية الفرنسية في سيدي مخلصة واستسلمت له كتيبة فرنسية كاملة قوامها ٦٠٠ جندي في « ثموشنت » وشعرت فرنسا بالخطر فأرسلت ١٢٠ ألف جندي أي ١٤ فرقة كاملة بقيادة الجنرال « بيجو» الذي اعتمد على أسلوب الإبادة وحرق المزارع والقرى وخاض الأمير عبد القادر صراعًا مريرًا ضد القوات الفرنسية أعوام ١٨٤٥، ١٨٤٦، إلى أن وقع في قبضة الفرنسيين سنة ١٨٤٧، وبذلك استراحت فرنسا وسحبت ١٠٠ ألف جندي من الجزائر ولكن إلى حين.

الحاج أحمد باي

مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر منذ اللحظة الأولى

منذ أن دخل أهل المغرب العربي في الإسلام في القرن الأول الهجري، فإنهم كانوا وما يزالون يحملون راية هذا الدين بأمانة وشرف سواء كان ذلك في حالة انتصاره أو صموده أو تراجعه، ولم تسقط راية هذا الدين من أيديهم قط رغم الأهوال والصعاب التي عانوها على يد حملات الحقد الصليبي المتأخر والمتقدم، وما زال الإسلام هو القوة الخالدة والباقية في نفوسهم كجذوة من نار لا تنطفئ .

دخل الإسلام بلاد المغرب منذ عام ٢٣ هـ عندما بدأت المحاولة الأولى للاتجاه غرب على يد عمرو بن العاص ﷺ بعد أن أتم الله فتح مصر، واستمرت تلك المحاولات على يد عبد الله بن أبي السرح (٢٧ هـ إلى ٣٥ هـ) ثم رافع بن خديج (٤٥ هـ) ثم عقبة بن نافع (٥٠ هـ إلى ٥٥ هـ) ثم أبو المهاجر بن دينار من (٥٥ هـ إلى ٦٢ هـ) الذي استطاع أن يضم إليه رجال القبائل من البربر وأن يستخدمهم في فتوحاته بعد ذلك، ثم مرة أخرى عقبة ابن نافع الذي وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي (٦٢ هـ ـ ٦٤ هـ) الذي قال قولته المشهورة : « اللهم أشهد أني بلغت المجهود ولولا هذا البحر ـ يقصد المحيط الأطلسي ـ لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد سواك » وبعده قام زهير بن قيس بتوطيد دعائم الحكم الإسلامي في بلاد المغرب، ثم حسان بن النعمان (٧٣ هـ إلى ٨٢ هـ) ومنذ ذلك اليوم أصبح أهل المغرب العربي هم رجال الإسلام الأشداء ومجاهدوه البواسل وطلائعه في الفتح والغزو

وتحصين ثغور الإسلام، ومواجهة التحدي الصليبي الغاشم .

وعقب ذلك جاء موسي بن نصير فأكمل الفتح وثبت دعائمه « ٨٦ هـ » وقام بالهجوم على الجزر المنتشرة في البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية وسردينيا ، كورسيكا ، جزر البليار، ثم أعد عدته وأرسل الجيش المسلم المكون من رجال القبائل ، البربر » بقيادة المجاهد البربري طارق بن زياد والي طنجة فاجتاز المضيق «مضيق جبل طارق » ووصل إلى الأندلس فهزم ملك القوط وأسس الحكم الإسلامي في الأندلس الذي استمر ثمانية قرون (٧١١ م ـ ١٤٩٢ م)، واستمر التقدم الإسلامي في أوروبا على يد البربر الذين أصبحوا خير جند الإسلام وغزا طارق بن زياد جنوب فرنسا واستشهد سنة ١٠٢ هـ ثم تابع عقبة بن سنيح الكلبي حركة الفتح في أوروبا وبلغ نهر الرون ومدينة ليون الفرنسية ثم توغل حتى بلغ مدينة أوتون في أعالي نهر الرون واستمر هذا المجهود على يد عبد الرحمن الغافقي الذي خرج بجيشه سنة ٧٣٢ هـ فاستولى على مدينة بوردو على مصب نهر الجارون إلى أن توقف عقب معركة بلاط الشهداء التي استشهد فيها سنة ٧٣٢ م ولما توقف غزو المسلمين وهجومهم في أوروبا عقب معركة بلاط الشهداء كان من الطبيعي أن يحدث هجوم صليبي مضاد فهذه سنة الله في خلقه وسنة الصراع بين الحق والباطل، وكان من الطبيعي أيضًا أن يحدث النزاع والشقاق والانقسام بين المسلمين، ويرجع ذلك إلى سمة هامة من سمات المجتمع المسلم وهي أنه إما أن يقوم هذا المجتمع بأداء رسالته في الجهاد وتحرير الشعوب من الطواغيت والظالمين وإما أن يحدث شرخ في كيان ذلك المجتمع، فالمجتمع المسلم إما أن يجاهد أو يتمزق ويتفرق ويحدث البأس بين أهله بعضهم بعضًا.

استمرت بعد ذلك سيوف أهل المغرب هي الدرع الحامية للإسلام، فهاهم المرابطون ينطلقون على رأس جيوش المغرب ليعيدوا توحيد الأندلس وينزلوا الهزيمة بالأسبان في موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ م، وظل أهل المغرب العربي يحافظون على الحكم الإسلامي في الأندلس بسيوفهم طوال حكم المرابطين وجزء كبير من حكم الموحدين حتى سنة ٦١٢ هـ - ١٢١٤ م، ويعود حكم الطوائف بعد ذلك ليعطي

الفرصة للأسبان لإنهاء الحكم الإسلامي في الأندلس سنة ١٤٩٢م.

ومع سقوط الأندلس سنة ١٤١٢ م لم تتوقف المعركة، معركة الصراع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية التي تعد المغرب العربي والجزائر خصوصًا من أهم مسارحها ذلك أن هذا الصراع في تلك البقعة لم يتوقف قط قبل فتح الأندلس وأثناء الحكم الإسلامي للأندلس وحتى بعد سقوط الأندلس، ذلك أنه بعد سقوط الأندلس تعرضت بلاد المغرب العربي عمومًا والجزائر خصوصًا إلى حملات صليبية لم تنقطع أبدًا من برتغالية وأسبانية وقشتالية وفرنسية وغيرها، وكان لجهود البحرية الجزائرية دور كبير في صمود تلك البلاد فترة طويلة وكذلك ظهور قوة العثمانيين في آفق العالم الإسلامي، وشهدت تلك الفترة الكثير من الحملات الهجومية الإسلامية على أسبانيا والبرتغال وكذا الحملات الصليبية المعاكسة على بلاد المغرب خاصة الجزائر، واستمر الكر والفر على نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وفي ذلك الوقت تعرضت بلاد المغرب العربي إلى عشرات الحملات الصليبية من أسبانية وبرتغالية وفرنسية بل وإيطالية وأمريكية، فإيطاليا مثلاً أرسلت حملاتها في سنة ١٧٨٤ م وحاولت الولايات المتحدة الأمريكية ذلك في حملة سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨١٥ .

على كل حال انتهى الأمر بسقوط بلاد المغرب العربي في قبضة الاحتلال الفرنسي « الجزائر سنة ١٨٣٠، وتونس سنة ١٨٨١ م، ومراكش ١٩١٢م» .

الجهاد الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

لم ينقطع الجهاد الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي منذ عام ١٨٣٠ وحتى الاستقلال ١٩٦٢، وظهرت العديد من حركات المقاومة « الداي حسين – عبد القادر الجزائري – المقراني والحداد – لالا فاطمة....إلخ ».

كان الاحتلال الفرنسي للجزائر مجرد محطة في صراع طويل لم ينقطع بين الإسلام والغرب، وإذا كانت الحروب الصليبية على المشرق العربي (فلسطين والشام ومصر) قد بدأت سنة ١٠٩٥ م وانتهت ١٢٩٤ م أي استمرت قرنين من الزمان ثم سكتت خمسة قرون إلى أن استؤنفت من جديد ١٧٩٨ م « الحملة الفرنسية على

مصر » فإن الحروب الصليبية التي استهدفت المغرب العربي عمومًا والجزائر خصوصًا قد بدأت قبل الحملات الصليبية على المشرق العربي وأثناءها وبعدها بدون انقطاع إطلاقًا حتى أن المؤرخين الجزائريين يطلقون عليها حرب الألف عام .

وبمجرد سقوط الجزائر في قبضة الاحتلال الفرنسي ١٨٣٠ اندلعت حركات المقاومة في كل مكان، صحيح أنها لم تنجح في القضاء على الاستعمار الفرنسي وقتها إلا أنها نجحت في منع فرنسة الجزائر واستمرار لهيب الثورة حتى نالت الجزائر استقلالها ١٩٦٢ ولولا تلك الحركات المجاهدة لتسارع مفعول المخطط الاستعماري وتم القضاء على الجزائر المسلمة إلى الأبد، أي أن تلك الثورات والانتفاضات وحركات المقاومة رغم فشلها اللحظي كانت بوادر انتصار في المستقبل وكانت حاضنة الحياة والاستمرار للجزائر المسلمة ولولاها لانطفأت شعلة المقاومة ولانتهت الجزائر المسلمة، أي أن الدور الخطير الذي لعبته تلك الحركات هي المحافظة على الجذوة مشتعلة ولو تحت الرماد.

وبمجرد دخول القوات الفرنسية اندلعت المقاومة، وقاومت الجزائر تحت قيادة «الداي حسين » وخاض الداي حسين أكثر من معركة مع قوات الاحتلال، انتهت بهزيمة الجيش الجزائري ودخول الفرنسيين الجزائر العاصمة في ٥ يوليو ١٨٣٠ م .

ولم يقف شعب الجزائر ساكنًا، فاندلعت عمليات المقاومة في سهل المتيجة وتحولت إلى ثورة شاملة ضمت كل أبناء القبائل في تلك المنطقة « اثنى عشرة قبيلة هم كل سكان سهل المتيجة »، وفي منطقة البليدة اندلعت الثورة بقيادة ابن زعنون، ونجحت تلك الثورة في استعادة مدينة البليدة من أيدي الفرنسيين وإنزال خسائر ضخمة بالقوات الفرنسية وتعززت تلك الثورة بانضمام الحاج سيدي السعدي إليها وانخراط عدد كبير من أهالي الجزائر تحت قيادة ابن زعنون، وتطورت تلك الثورة حتى باتت تهدد الفرنسيين في الجزائر العاصمة ذاتها، وفي سنة ١٨٣١ خاض المجاهدون معركة كبيرة ضد الفرنسيين في منطقة بوفريك، وفي نفس الوقت كان أحمد بوفران ينظم المقاومة في الجانب الأيسر لوادي الحراس، وبعد هزيمة قوات ابن زعنون حمل الحاج سيدي السعدي راية الجهاد واستمر يقاتل حتى ١٨٣٢، كما

انضم الحاج محيي الدين إلى الثورة وقاد تلك الثورة في وهران .

الحاج أحمد باي « قسنطينة »

يمثل الحاج أحمد بأي رمزًا هامًا من رموز المقاومة في بواكير الاحتلال الفرنسي للجزائر، بل يمكن أن نقول أنه مع الأمير عبد القادر يمثلان أكبر رمزين للمقاومة سواء من حيث بلائهما ضد الاستعمار أو باستمرار مقاومتهما لمدة طويلة، فالحاج أحمد باي « قسنطينة » استمر يقاتل الفرنسيين حتى عام ١٨٤٨ ورفض دائمًا الدخول في أمانهم الذي عرضوه عليه مرارًا وتكرارًا وأنزل بهم العديد من الخسائر في عشرات المواقع التي خاضها ضدهم .

فعقب انهيار مقاومة الداي حسين ودخول القوات الفرنسية على الجزائر العاصمة في ٥ يوليو ١٨٣٠، حمل الحاج أحمد بأي لواء المقاومة فاستطاع أن يجمع فلول الجيش الجزائري وأن يدخل العديد من المعارك مع الفرنسيين مثل معركة «عقبة البشاري » سنة ١٨٣٦، بل وانتصر على الفرنسيين عندما حاولوا دخول قسنطينة سنة ١٨٣٦، واتصل الحاج أحمد باي بالخلافة العثمانية للحصول على دعم عسكري منها لمواجهة الفرنسيين إلا أن موقف باي تونس حال دون وصول ذلك الدعم، وبرغم ذلك فإن الحاج أحمد باي واصل مسيرة المقاومة واستطاع أن يحشد ٥ آلاف فارس وألفين من المشاة بالإضافة إلى الجيش النظامي، وانطلق من قسنطينة واشتبك مع الفرنسيين في موقعة « مجاز عمار » سنة ١٨٣٧، إلا أن التفوق العددي والتسليحي للفرنسيين أدى إلى هزيمة الحاج أحمد باي فرجع إلى قسنطينة وقاتل مع أهلها من بيت لبيت ومن شارع على شارع، وحتى بعد سقوط قسنطينة بيد الفرنسيين، رفض الحاج أحمد باي عرض الأمان الفرنسي وانسحب إلى خارج المدينة وأخذ ينظم غارات متواصلة على خطوط المواصلات الفرنسية بين عنابة وقسنطينة، واستمر الحاج أحمد يجاهد متنقلاً من قرية إلى قرية ومن جبل إلى سهل حتى سقط بين القوات الفرنسية عام ١٨٤٨م، وقامت القوات الفرنسية بإيداعه السجن فمات بالسجن بعد عامين من اعتقاله أي عام ١٨٥٠م، رافضًا دائمًا قبول التصالح مع الفرنسيين أو خيانة قضية الجهاد والثورة .

محمد المقراني

ضرب شعب الجزائر المثل الحي على استمرار الثورة والمقاومة في كل الظروف، فبرغم هزيمة كل من الحاج أحمد باي قسنطنية والأمير عبد القادر الجزائري اللذين حملا لواء المقاومة من ١٨٣٠، وحتى عام ١٨٤٧، وبرغم عمليات الإبادة والتبشير والتجويع التي تعرض لها الشعب الجزائري على يد الاستعمار الفرنسي، فإن جذوة الثورة لم تخمد، وما كان لها أن تخمد.

ففي عام ١٨٥١، وفي منطقة سور الغزلان اندلعت المقاومة بقيادة محمد بن عبد المالك، وهو معلم قرآن، وانضم إليه الحاج عمر شيخ زاوية محمد بن عبد الرحمن التي امتدت حركته إلى معظم مناطق جبال جرجرة والبيان والبابور وحوض الصومام، وحدثت مجموعة من الصدامات بين تلك العناصر المقاومة وبين سلطات الاحتلال الفرنسي منذ عام ١٨٥١، وحتى عام ١٨٥٤، الذي انتهت فيه حركة محمد بن عبد المالك.

واستمرت المقاومة في « ذراع الميزان » بقيادة الحاج عمرو «الإخوان الرحمانيون » حتى عام ١٨٥٦، وفي عام ١٨٥٧ خاض المجاهدون عددًا من المعارك مع القوات الفرنسية مثل معركة «أبشر يضمن » التي وقعت في ٢٤ يونيو سنة ١٨٥٧، ولم تنته تلك الثورة إلا بعد القبض على الحاج عمر يوم ٧ يوليو سنة ١٨٥٧ م.

وفي جبل « أحمد خدون في الأوراس » اندلعت ثورة ١٨٤٩ ثم اشتعلت مرة أخرى في ١٨٥٨ ـ ١٨٥٩ م بقيادة

« سي الصادق بن الحاج » وفي منطقة الحضنة اندلعت المقاومة بقيادة محمد بوختتاش سنة ١٨٦٠ وانضم إليه سي العربي وسي أحمد باي وامتدت تلك الحركة إلى المناطق الشمالية وإلى سطيف، وفى سنة ١٨٦٤ م اندلعت المقاومة في الجنوب الوهراني بقيادة أولاد سيدي الشيخ، ثم اندلعت مرة أخرى في ١٨٧٠ م.

وفي بلدة زمورة اندلعت الثورة سنة ١٨٥٩ بقيادة ابن خدومة، ثم أخذت تتصاعد أعمال المقاومة في تلك البلدة.

وفي منطقة المليلة وتبسة اندلعت ثورة عبدون ١٨٧١، وثورة أولاد خليفة في نفس الوقت.

وفي هذا العام ١٨٧١ وصلت الجزائر إلى محطة الثورة الشاملة التي قادها كل من المقراني والحداد والمعروفة بثورة ١٨٧١.

المقراني والحداد وبو مزراق:

محمد المقراني هو آخر زعماء عائلة المقراني، التي يصل نسبها إلى الرسول ﷺ عن طريق فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وقد حملت الأسرة لواء الجهاد ضد الفرنسيين مع أحمد باي قسنطينة،وبعد ذلك وصلت زعامة الأسرة إلى محمد المقراني الذي تمرد على الفرنسيين بدءًا من عام ١٨٧٠م، ثم أصبح رمزًا لثورة ١٨٧١ ضد الفرنسيين، أما الشيخ الحداد الزعيم الثاني للثورة « ١٨٧١ » فهو الشيخ محمد أفربان بن على الحداد أحد زعماء الطريقة الرحمانية « الإخوان المسلمون الرحمانيون »، وقد كان للرحمانيين دور هام في ثورة الأمير عبد القادر وثورة الشريف بونبلة الذي قادها الحاج عمر مقدم الرحمانيين وزوج لالا فاطمة التي شاركت معه في قيادة الثورة إلى أن تم اعتقالها.

وبعد ذلك وصلت قيادة الرحمانيين إلى محمد أفربان الحداد الذي ولد سنة ١٧٩٣، وتلقي تعليمه في زاوية الشيخ ابن عراب في قرية « آيت ابراثن بجبال جرجرة »، وبعد أن أتم الحداد تعليمه عاد إلى منطقة « صدون » وقام بتعليم الدين والوعظ والإرشاد وتكاثر الطلاب حوله في الزاوية التي أنشأها، وكان أتباعه من الطبقة الشعبية الفقيرة، وعندما أشعل محمد المقراني ثورته في « مجانة » سنة ١٨٧١ تجاوب معه الحداد وأعلن الثورة في جبال البابور وحوض الصومام

وجبال جرجرة وحوض الحصنة.

أما بومزراق فهو ثالث رموز هذه الثورة، وهو شقيق محمد المقراني، وقد شارك في الثورة في منطقة سور الغزلان وعرنوعة، وعندما استشهد محمد المقراني استمر بومزراق في مقاومته للاحتلال الفرنسي إلى أن سقط أسيرًا في ٢٠ يناير سنة ١٨٧٢م.

أحداث ثورة (١٨٧١ م)

بدأت أحداث ثورة ١٨٧١ بتجمع قوات الحاج محمد المقراني في مجانة يوم ١٥ مارس سنة ١٨٧١، وجاء المجاهدون من كل صوب للمشاركة في تلك الثورة فبلغ عدد المقاتلين ٦ آلاف مجاهد يوم ١٦ مارس ١٨٧١ أي بعد يوم واحد من إعلان الثورة، وسار المقراني بقواته إلى البرج فانضم إليهم الجزائريون العاملون ضمن قوات الحرس الفرنسي.

وفرض المقراني الحصار على المدينة لمدة أربعة أيام ثم اتجه بقواته إلى جبال مرسبان شمال شرق « مجانة » وهناك انضم إليه الشيخ الحداد وأتباعه، وخاض المجاهدون، معركة كبيرة في « ساقية الرحي » مع القوات الفرنسية التي جاءت للقضاء على الثورة، وبعد تلك المعركة انضم عدد آخر من القبائل إلى الثورة فقام أولاد تبان والأربعاء وريفة بقيادة محمد بن عدة بالهجوم على المستوطنات الفرنسية في منطقة العلمة، وألحقت الهزيمة بمفرزة فرنسية في عين تاغروط، وفي ٢٠ أبريل ١٨٧١ اعترض الثوار سبيل القوات الفرنسية التي غادرت البرج متجهة إلى سطيف، ثم خاض الثوار عددًا من المعارك الناجحة ضد القوات الفرنسية في جبال طافات مثنية مقسم والعيون، ثم اصطدم المقراني بقواته مع الفرنسيين في منطقة وادي الرخام في ٥ مايو ١٨٧١ م واستشهد في تلك المعركة بعد ٥١ يومًا من القتال الضاري المتواصل.

واصل الإخوان الرحمانيون الثورة بقيادة الشيخ محمد الحداد، وكان الإخوان الرحمانيون قد شرعوا للإعداد للثورة قبل ذلك أي في بداية ١٨٧١، ففي يناير ١٨٧١ وجه الشيخ الحداد نداء إلى الشعب الجزائري يطالبه بالجهاد، وتلقي الإخوان الرحمانيون نداء شيخهم « محمد الحداد » وأسرعوا لحمل السلاح واندلع لهيب الثورة في كل مكان في الجزائر بفضل التنظيم الدقيق للإخوان الرحمانيين

واعتمادهم على الطبقات الشعبية وانتشار مراكزهم العلمية في كل مكان، فجر الإخوان الرحمانيون الثورة في منطقة القبائل الكبرى وحتى الحدود الشرقية للجزائر، وبلغ عدد الثائرين ٦٠٠ ألف مقاتل وأمكن ضم ٢٥٠ قبيلة مما أعطاها طابع الثورة الشاملة واستمرت تلك الثورة متأججة على موجات قتلية عاما كاملا، كانت المساجد والزاويا خلاله هي قلاع الثورة وقواعد الصمود، وقد خاض الرحمانيون خلال هذا العام عددًا من المعارك الهامة في وادي الصومام وتيرياهنت وبو شامة وتيزي وجبل طافات والبابور والعلمة والودية وعين عبيسة وثنية الماجن وعين الكحلة وعموشه ووادي البرد وثنية الغنم وقرية كاسة والحمام وغيرها من المعارك التي أبلي فيها الرحمانيون بلاء حسنا وسقط منهم الكثير من الشهداء، ويمكننا أن ندرك مدى اتساع وقوة هذه الثورة إذا علمنا أن القوات البرية الفرنسية لم تكن قادرة على قمع الثورة، وأنها استعانت بنيران البحرية الفرنسية من البحر، وخاصة البوارج الحربية، وقد اعتقل الشيخ الحداد ثم حوكم وأعدم بعد ذلك.

وبعد استشهاد محمد المقراني واعتقال محمد الحداد واصل أحمد بومزراق شقيق المقراني ثورته التي كان قد بدأها في منطقة سور الغزلان ونوغة، ودخل في عدد كبير من المعارك مع القوات الفرنسية في برج الأصنام وجبل موقرنين وأولاد زيان، ولما علم باستشهاد أخيه قرر الاستمرار في الجهاد ونسق مع الشيخ الحداد في حصار بجاية ثم الهجوم عليها، ثم عاد إلى جبل البابور واشترك في المعارك الدائرة هناك ضد الفرنسيين، وبعد اعتقال الشيخ الحداد وانتكاس الثورة، استمر بومزراق يتابع جهاده واشتبك مع القوات الفرنسية في معركة «يوم تاخراط» في ٢٠ يوليو ١٨٧١، ثم في سهل مجانة يوم ٢٦ أغسطس ١٨٧١، ثم في عجيبة وقبوس يوم ٩ سبتمبر وأولاد إبراهيم يوم ٢٥ سبتمبر واستمر بومزراق في القتال إلى أن سقط أسيرًا في ٢٠ يناير ١٨٧٢.

وبالإضافة إلى المقراني والحداد وبومزراق هناك أيضًا السيد بن بودا ودو الذي قاد الثورة في جبل الحضنة وبو سعادة وسي عزيز نجلي الشيخ الحداد اللذين واصلا قيادة المجاهدين بعد اعتقال الشيخ، وكذلك بو شوشة الذي أعلن الثورة في الشمال.

لالا فاطمة نسومر

قائدة ثورة (١٨٥٧) ضد الاحتلال الفرنسي

لم تهدأ المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠ ـ ١٩٦٢) قط، وشارك الشعب الجزائري في المقاومة بكل طبقاته رجالاً ونساءً، رجال القبائل وسكان المدن على حد سواء، علماء الدين والفلاحين والمثقفين والعمال، ولعل أهم ما ميز المقاومة الجزائرية اندلاع ثورة كبري سنة ١٨٥٧ بقيادة امرأة جزائرية هي لالا فاطمة نسومر.

بل لعل من أهم دروس وعبر المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي مشاركة المرأة الجزائرية المسلمة في صنع المقاومة واستمرارها، والمرأة المسلمة كانت دائمًا في طليعة قوي الجهاد والتحرر، والمشاركة الإيجابية للمرأة الجزائرية أبلغ دليل على هذا والإسلام يحرض المرأة ويسمح لها بالمشاركة في القتال بنفسها، وخاصة إذا كانت بلاد المسلمين مهددة، وهي تخرج في حالة هجوم العدو على بلاد المسلمين بدون إذن زوجها، كما قرر ذلك علماء الإسلام، ولعل التحديات التي تواجهها الأمة الإسلامية الآن وصراعها مع الغرب وإسرائيل مع اختلال التوازن العسكري والعلمي لصالح الأعداء تؤكد على ضرورة اضطلاع المرأة المسلمة بمهام الجهاد والكفاح والمشاركة الكاملة في تحمل أعباء الصراع على صعيد المشاركة المباشرة وغير المباشرة على صعيد القتال بنفسها أو على صعيد شحذ همم الأزواج أو الأبناء على طريق الجهاد، وعلى كل امرأة أن تختار ما يلائمها وفقًا لظروفها من أساليب المشاركة، وما لم تشارك

المرأة المسلمة في معركة الإسلام المعاصرة ضد قوي الكفر والشرك والتبعية فإن خللاً كبيرًا يصيب المجهود الإسلامي في معركة البقاء.

لالا فاطمة نسومر

ظهر اسم المجاهدة الجزائرية « لالا فاطمة نسومر » كقائد لثورة ١٨٥٧ في الجزائر، ولالا فاطمة نسومر هي زوجة الحاج عمر مقدم « الإخوان الرحمانيون» وهم طريقة صوفية لعبت دورًا كبيرًا في المقاومة ضد الفرنسيين منذ عام ١٨٣٠، وقد أسس هذه الطريقة محمد عبد الرحمن سنة ١٧٩٤، وهو أمير علماء الإسلام تلقى علومه في الأزهر ثم عاد على الجزائر حيث أنشأ مدرسة دينية، وأصبح له تلاميذ كثيرون وأتباع في كل مكان، وقام هؤلاء التلاميذ بتأسيس العديد من المدارس والزوايا في معظم أرجاء الجزائر.

وعندما غزت فرنسا الجزائر قام الإخوان الرحمانيون بالانخراط في حركة المقاومة مع الأمير عبد القادر (١٨٣٢ ـ ١٨٤٧)، ثم مع الشريف بونبلة ١٨٥٦، ثم قاد الحاج عمر هذه الحركة ، وهو زوج لالا فاطمة نسومر، إلى أن سقط في يد الفرنسيين الذين نفوه إلى تونس، فتسلمت لالا فاطمة نسومر قيادة « الإخوان الرحمانيون » فقادت المجاهدين في ثورة عارمة ضد الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٥٧ إلى أن تم اعتقالها ثم إعدامها على يد الفرنسيين، وواصل الإخوان الرحمانيون جهادهم بعد ذلك تحت قيادة محمد بن الحداد أحد أهم رموز ثورة ١٨٧١ في الجزائر.

لالا فاطمة نسومر هي إحدى بنات الشيخ ابن عيسي الخليفة الأول لمؤسس زاوية الرحمانيين وهي شيخة قبيلة أيسو مار.

المرأة الجزائرية في ثورة الجزائر (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢)

على درب لالا فاطمة – لمعت أسماء أخرى، شاركت بنفسها في القتال أو النضال السياسي في أقوي ثورة في الجزائر الكبرى (١٩٥٤ ـ ١٩٦٢) ولم تتورع السلطات الفرنسية عن إعدامهن نظرًا لدورهن الخطير.

فها هي المجاهدة « زاهية » التي سقطت شهيدة وسلاحها في يدها إلى جانب

زوجها الشهيد « رامل » عام ١٩٥٤، والشهيدة عقيلة تقاتل على جانب زوجها سي الأخضر وتستشهد معه .

والمجاهدة فضيلة سعدان منذ شبابها الغض في النضال السياسي ضد الإدارة الفرنسية، وتطالب مع زميلاتها الجزائريات في إحدى المدارس أن يكون الطعام المقدم لهن مطابقًا للشريعة الإسلامية ولا يحتوي على لحم الخنزير، وتقود زميلاتها إلى الإضراب والعصيان حتى تجاب مطالبهن، ثم تنخرط في تنظيم الثورة وتلعب دورًا هامًا في نجاح الإضراب الطلابي تأييدًا للثورة سنة ١٩٥٦، مما أدى إلى اعتقالها وسجنها في سجن الكدية وتموت بالسجن شهيدة تحت وطاه التعذيب.

وعلى نفس الدرب سارت شقيقتها إلى أن استشهدت وهاهي جميلة بو حيرد تنخرط في صفوف الثورة وتشارك بنفسها في إلقاء القنابل على الفرنسيين مما يؤدي إلى اعتقالها وتعذيبها بصورة وحشية، وقد هزت محاكمتها ضمير العالم .

وهكذا كانت كل امرأة في الجزائر تشارك في القتال بنفسها أو تقوم بأعمال الإمداد والتموين ونقل الرسائل أو تشارك في المظاهرات والاضرابات، أو تشارك في رفع الروح المعنوية للشعب المجاهد عن طريق مظاهرات الزغاريد «اليويو» التي اشتهرت بها المرأة الجزائرية والتي كانت تطلقها في كل مناسبة كنوع من الاحتجاج أو الاحتفال أو تحذير المناضلين، وقد دخلت الزغاريد « اليويو » التاريخ كأسلوب نضالي وطريقة من طرق المقاومة اشتهرت بها المرأة الجزائرية .

الشيخ عبد العزيز الثعالبي

رائد حركة التحرير التونسي ضد فرنسا (١٨١٤-١٩٤٤)

هو مؤسس الحزب الوطني الإسلامي في تونس، وهو أحد هؤلاء المجاهدين الذين حملوا على أكتافهم مهمة الكفاح ضد الاستعمار مستمدًا مفهوم المقاومة والجهاد من الإسلام كدين وحضارة فواجه التحدي الاستعماري عسكريا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا.

هو واحد من ذلك الرعيل من المجاهدين العرب والمسلمين الذين قاوموا الاستعمار أمثال عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي في المغرب وعبد الحميد بن باديس في الجزائر والثعالبي في تونس وعمر المختار في ليبيا ومصطفي كامل ومحمد فريد في مصر وعز الدين القسام في فلسطين وأحمد أغابيف من زعماء المسلمين في روسيا، وهذا الرعيل من المجاهدين كان الحلقة التالية التي أكملت حلقة الكفاح الأولي ضد الاستعمار والتي ضمت عبد القادر الجزائري وجمال الدين الأفغاني وغيرهم.

الشيخ عبد العزيز الثعالبي هو عالم من أعمق العلماء فهمًا للإسلام، وأديب له شعر وبيان، وخطيب مصقع يهز القلوب، ومجاهد ضد الاستعمار بلا ملل ولا كلل وصحفي لامع يكتب في العديد من الصحف ويصدر عددًا منها ومؤلف، له العديد من الكتب، ورحالة ذهب إلى أبعد أجزاء العالم الإسلامي ، ثم هو معلم وأستاذ في قاعات الجامعات كأحسن ما يكون المعلم علمًا وأدبًا، أما طبعه فتغلب عليه

الدماثة واللطف ورقة القلب.

مولده وحياته

ولد الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي في مدينة تونس الخضراء في يوم ١٤ شعبان ١٢٩٣ هـ، ١٨٧٤ م.

وهو ينحدر من أصل جزائري حيث كان جده عبد الرحمن الثعالبي قد فر من الجزائر بعد احتلالها من الفرنسيين سنة ١٨٣٠، حفظ الشيخ الثعالبي القرآن الكريم في الكتاب ثم درس النحو والعقائد والأدب ثم دخل مدرسة باب سويقة الابتدائية في مدينة تونس ثم التحق بجامع الزيتون فقضى فيه سبع سنوات حتى تخرج عام ١٨٩٦.

ثم أكمل دراساته العليا في المدرسة الحكدونية بتونس، ثم انخرط في الحركة الوطنية الإسلامية في تونس وناهض الاستعمار الفرنسي بها، واعتقل عدة مرات ثم نفي إلى خارج تونس، ومن وقت لآخر كان يعود إلى تونس لاستئناف الكفاح كلما سنحت الفرصة.

وزار الكثير من بلاد العالم الإسلامي مدافعًا عن القضية التونسية وقضايا العالم الإسلامي عمومًا.

وفي عام ١٩٣٧ عاد إلى تونس لآخر مرة حيث قضى بها سبع سنوات مستأنفًا نضاله الداخلي إلى أن توفي عام ١٩٤٤م.

جهاده ضد الفرنسيين

لا يمكن فصل قضية الاستعمار الفرنسي في تونس عن قضية الاستعمار الفرنسي في المغرب العربى، ولا عن قضية الاستعمار الأوروبي عمومًا في العالم الإسلامى، حيث الهدف واحد والأساليب متنوعة، دخل الاستعمار الفرنسي تونس عام ١٨٨١ وهب الشعب التونسي لمقاومة الاستعمار الفرنسي منذ اللحظة الأولى، رغم استسلام حاكم تونس في ذلك الوقت واتخذت حركة المقاومة من مدينة القيروان مركزًا لها وامتدت تلك الحركة إلى كل الساحل الجنوبي التونسي من صفاقس حتى حدود طرابلس، وكان يقود تلك الحركة

الشيخ « على بن خليفة » وصمدت تلك الحركة أمام القوات الفرنسية مدة لا بأس بها رغم التفوق التسليحي الهائل للقوات الفرنسية، وإذا كانت هذه الحلقة الأولي في الجهاد فإنه قد تبعتها الحلقة الثانية من الجهاد والتي فجرها وقادها كل من الشيخ يكن بن عزوز، وعبد العزيز الثعالبى، بشير صقر، على ياسين جمعة وغيرهم، وقد تشابهت هذه الحركة تشابها كبيرًا مع حركة مصطفي كامل ومحمد فريد في مصر لأن تأثير الأفغاني على الحركتين كان كبيرًا.

وجد الشيخ عبد العزيز الثعالبي نفسه في قلب هذه الحركة التي تتطلع إلى الاستقلال ودعم الترابط بين المسلمين والتعاطف مع الخلافة العثمانية وأخذ الثعالبي يناهض الاستعمار الفرنسي على محورين: المحور الأول هو النضال السياسي. والمحور الثاني هو التصدي لعملية التغريب والفرنسة واستعادة الروح والثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية في تونس حتى يكون ذلك طريقًا على استمرار احتلالها ومنع ظهور حركات مقاومة شعبية بها.

وكون الشيخ الثعالبي سنة ١٩٠٥ م مجموعة من الطلاب وخريج المعاهد الدينية مثل الشيخ على أبو شوشة، وبشير صقر، وعمر أبو حاجب وعلى الباقلاني ما يسمي بجماعة الحاضرة وبدأت هذه المجموعة في توجيه الانتقاد السياسي للاحتلال الفرنسي في تونس ثم أسس الشيخ الثعالبي سنة ١٩٠٨ حزب تونس الفتاة، وترأس الحزب الشيخ على ياسين جمعة، بينما عمل الشيخ الثعالبي رئيسًا لتحرير صحيفة الحزب، وكان حزبًا يسير على المبادئ الإسلامية مثل الحزب الوطني في مصر، وقد لعب هذا الحزب في مساعدة أهل ليبيا إبان الاحتلال الإيطالى لليبيا سنة ١٩١١، فقام هذا الحزب بتسهيل الاتصال بين الدولة العثمانية والمقاومة في طرابلس، كما ساعد في تسلل الضباط والمتطوعين المسلمين إلى طرابلس، وفي تونس نجح هذا الحزب في إذكاء نار الكفاح في صفوف الشعب التونسى، فخرجت المظاهرات وحث الحزب العمال على الإضراب ومقاطعة المؤسسات التجارية الأوروبية، وعلى أثر ذلك قام الاحتلال الفرنسي بطرد زعماء الحزب من تونس، وخاصة على ياسين جمعة وعبد العزيز الثعالبي وعدد آخر من العلماء المجاهدين، واختار هؤلاء الآستانة مقرًا لهم حيث

استطاعوا الاستمرار في مكافحة الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا عمومًا بمعونة الحكومة العثمانية، واتصل الشيخ عبدالعزيز الثعالبي والشيخ على ياسين جمعة بكثير من قادة الكفاح في العالم الإسلامي أمثال شكيب أرسلان ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش، وأحمد آغابيف من زعماء المسلمين في روسيا، وفي هذه الأثناء تكونت في الآستانة هيئة لغزو شمال أفريقيا وتحريرها من الاستعمار الأوروبي واستطاعت هذه الهيئة أن تقوم بدور فعال في طرابلس بصفة خاصة، كما تم تنظيم فرقة بقيادة على ياسين جمعة وكان مقرًرا لها أن تنزل من ساحل تونس لتحريرها من الاستعمار الفرنسى، ولكن لم يقدر لهذا العمل أن يكتمل.

وبعد الحرب العالمية الثانية، استطاع الشيخ عبد العزيز الثعالبي العودة إلى تونس واستأنف كفاحه ضد الاحتلال الفرنسي وأصدر كتابًا بعنوان « تونس الشهيدة » دعا فيه إلى تحرير تونس من الاستعمار وأنها قادرة على حكم نفسها بنفسها وأرادت فرنسا أن تطوق حركة الشيخ الثعالبي فشجعت على قيام حركة تونسية عميلة لها تدعو إلى قيام ما يسمي بالإصلاح، مثل المطالبة بالاستقلال، كما تدعو إلى التعاون مع الفرنسيين، وسميت تلك الحركة « الحزب الدستوري » .

ثم اعتقلت الشيخ الثعالبي سنة ١٩٢٠ ليخلو الجو في تونس لدعاة التعاون مع الاحتلال الفرنسى، ولكن الشعب التونسي انتفض من أجل زعيمه الشيخ الثعالبي، فتم الإفراج عنه سنة ١٩٢١ فقام بتشكيل عدد من الخلايا الحزبية المناضلة في تونس ، وأراد أن يسيطر على الحزب الدستوري بنفسه وأبعد منه كل الخونة والعملاء ودعاة التعاون مع فرنسا، وأصبح الشيخ الثعالبي رئيسًا للحزب والأستاذ أحمد الصافي أمينًا عامًا له، إلا إن السلطات الفرنسية أبعدت الشيخ الثعالبي مرة أخري خارج البلاد، وقامت بانقلاب داخل الحزب الدستوري تولى بعده دعاة التعاون مع الاحتلال قيادة الحزب وبرز فيهم الحبيب بورقيبة، الذي أصبح رئيسًا للحزب الدستوري سنة ١٩٣٤.

ودعا صراحة إلى أن وضع تونس الجغرافي يحتم عليها التعاون مع فرنسا وقبول مبدأ السيادة المزدوجة ! ثم نجح الشيخ الثعالبي في العودة مرة أخرى إلى

تونس سنة ١٩٣٧ ونظم القوي الوطنية المناهضة للاحتلال ودعا إلى التظاهر والإضراب للمطالبة بالاستقلال إلى أن توفي عام ١٩٤٤م.

جهاد الثعالبي عربيًا وإسلاميًا

عمل الشيخ الثعالبي في إطار ثلاث دوائر لا تناقض بينها، الدائرة التونسية والعربية والدائرة الإسلامية، وكلها متداخلة وذات صلة مباشرة فيما بينها لأن الجهاد من أجل تحرير تونس هو جهاد من أجل الإسلام والحضارة الإسلامية، خاصة الشيخ الثعالبي بني جهاده في تونس على أساس الإسلام والثقافة الإسلامية وكذلك جهاده من أجل القضية العربية يؤدي إلى نفس الهدف، وكذلك جهاده من أجل قضايا العالم الإسلامي عمومًا لأن التحدي واحد، وهو التحدي الاستعماري الأوروبي، وهو تحد يستهدف الإسلام والحضارة الإسلامية.

كان الشيخ الثعالبي يعمل ليلاً ونهارًا من أجل كشف زيف الحضارة الغربية ويري أنها نكبة على العالم عمومًا والمسلمين خصوصًا، وكان يرى أن الإسلام هو الحضارة الصحيحة التي ينبغي لها أن تسود العالم إذا كان هذا العالم يريد الحرية والعدل والمساواة، وكان يدعو الشعوب العربية الإسلامية إلى التأكيد على هويتها الوطنية والإسلامية والتمسك بقيم الإسلام الثابتة فهي الطريق الوحيد للنهضة، وكان يعمل على إصلاح أحوال التعليم باعتباره مدخلاً كبيرًا لتحقيق النهضة على أساس إسلامى، كما كان يدعو إلى وحدة العرب كطريق لوحدة المسلمين، وكان يدعو إلى الاهتمام بالمشروعات الاقتصادية في العالم العربي والإسلامي للأخذ بأسباب التكنولوجيا الحديثة والعمل الاقتصادي المشترك بين المسلمين.

كان الشيخ الثعالبي كلما قامت السلطات الفرنسية بنفيه إلى خارج تونس يجوب أقطار العالم الإسلامي ويشارك أبناءها في الدفاع عن قضاياهم ومناقشة مشاكلهم، سافر الشيخ الثعالبي في رحلة ممتدة لأربعين عامًا إلى كثير من البلدان العربية والإسلامية مثل مصر والشام وفلسطين والعراق والهند والفلبين والصين والسودان وتركيا وغيرها وكان في كل مكان يذهب إليه يدافع عن قضية بلاده

تونس بصورة خاصة وينسق الجهاد مع زعماء العالم الإسلامي أمثال محمد فريد وعبد العزيز جاويش، والباروني وأحمد أغابيف من زعماء المسلمين في روسيا وكذلك مع السنوسيين في ليبيا وشكيب أرسلان والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وكان بصورة خاصة يسهم في النشاط العثماني من أجل تحرير شمال أفريقيا، ولكن هذا لم يحل بينه وبين النضال من أجل استقلال مصر والسودان والعراق وفلسطين والهند وغيرها، وكان يعمل من أجل قضايا العرب والمسلمين عن طريق النضال السياسي المباشر أو عن طريق دعم الثقافة العربية والإسلامية، وكان له موقف متميز في التنبه إلى أخطار الحركة الصهيونية في وقت مبكر وإلى التضامن مع الشعب الفلسطيني على أساس أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، وكان من أبرز الذين دعوا إلى تنظيم المؤتمر الإسلامي الأول الذي انعقد في القدس في ديسمبر ١٩٣١ م، رجب ١٣٥٠ هـ، وكان عضوًا مؤسسًا في هذا المؤتمر الذي انعقد من أجل التضامن مع الشعب الفلسطيني ومناهضة الصهيونية، وقد حضر هذا المؤتمر عدد كبير من أعلام المسلمين برئاسة الشيخ محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين، وشارك فيه شوكت على، ومحمد إقبال « عن الهند » ومحمد حسين آل كاشف الغطاء، ومحمد بهجت الأثري « عن العراق » وإبراهيم أطفيش « عن الجزائر » والبشير السعداوي وكل من عبد الحميد سعيد، رشيد رمضان، عبد الرحمن عزام، التفتازانى، محمد على علوبة « عن مصر »، سعيد الجزائري « عن سوريا »، ومصطفي الغلاييني « عن ليبيا »، وعبد العزيز الثعالبي « عن تونس ».

وقد أظهر الشيخ الثعالبي حركة عظيمة أثناء هذا المؤتمر، كما عمل بهمة ونشاط على تنسيق مواقف المسلمين لمناهضة الصهيونية والتضامن مع الشعب الفلسطيني، وتذكير المسلمين بأن قضية فلسطين هي قضية كل عربي مسلم.

واستمرت علاقة واهتمام الثعالبي بقضية فلسطين قبل ذلك المؤتمر وأثناءه وبعده بدون انقطاع، كما اهتم الشيخ الثعالبي بشرح تاريخ اليهود ومؤامراتهم وعقائدهم الفاسدة وخطرهم على الإسلام والمسلمين من خلال محاضراته التي

كان يلقيها على طلبة المعهد الديني العالى ببغداد في الفترة التي عمل بها أستاذًا في هذا المعهد منذ عام ١٩٢٦ حتى ١٩٢٨ م .

آثاره العلمية

لم يقتصر حياة الشيخ الثعالبي على الجهاد السياسي من أجل تحرير تونس من الاستعمار الفرنسي أو الاهتمام بقضايا العالم الإسلامى، بل كان بالإضافة إلى ذلك أديبًا لامعًا وكاتبًا متميزًا ومفكرًا عميقًا وخاصة في القضايا الإسلامية، ويعد الشيخ الثعالبي من صفوة دعاة التجديد الإسلامي في ضوء القرآن والسنة.

ومن أهم مؤلفاته كتاب « روح القرآن الحرة » وكتاب « معجزة محمد رسول الله »، وفيهما يعرض للإسلام عرضًا علميًا رصينًا يرد به على شبهات المستشرقين والطاعنين في الإسلام عمومًا، وله أيضًا كتاب « تونس الشهيدة » الذي أظهر فيه جرائم الاستعمار الفرنسي في تونس.

كما أن له العديد من الدراسات والأبحاث الإسلامية وخاصة في العقائد والفقه والمعاملات والفلسفة الإسلامية وهي المحاضرات التي كان يلقيها على طلبة المعهد الديني بجامعة آل البيت في الفترة من ١٩٢٦ حتى عام ١٩٢٨، وقد نشرت هذه المحاضرات في مجلة الجامعة في تلك الفترة، بالإضافة إلى ذلك فإن مئات المقالات في الصحف والمجلات التي أصدرها بنفسه أو كتب فيها سواء في تونس أو خارج تونس والتي تعالج كلها قضايا النهضة الإسلامية والدعوة إلى مقاومة الاستعمار وفضح السلوك الاستعماري والدعوة إلى وحدة العرب والمسلمين.

عبد الحميد بن باديس

مولده وحياته

ولد عبد الحميد بن محمد المصطفي بن مكي بن باديس في مدينة القسنطينة الجزائرية في سنة ١٣٠٥ هـ « ١٨٨٩ م » والتحق بمدارسها، حيث درس العديد من العلوم الدينية والدنيوية، ثم سافر إلى تونس سنة ١٩٠٨ ليلتحق بجامعة الزيتونة، حيث ظل مكبًا على تحصيل العلم أربع سنوات، ثم توجه سنة ١٩١٢ على الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحج وزار خلال رحلته بلاد مصر والشام، ثم عاد على بلدته قسنطينة، حيث أخذ يلقي دروس العلم في مسجد المدينة الشهير المسمي « بالجامع الأخضر » وقد اجتذبت دروسه عددًا كبيرًا من شباب مدينة القسنطينة والمدن المجاورة لها ومن جميع أنحاء الجزائر، نظرًا لما كانت تمثله تلك الدروس من روح الإيمان والجهاد اللذين كان يتعطش إليهما الجزائريون في ذلك الوقت، وفي سنة ١٩٢٤ أنشأ الشيخ عبدالحميد بن باديس مجلتي المنفذ والشهاب وبث فيهما أفكاره الجريئة عن التحرر والعروبة .

وتكللت جهود ابن باديس بإنشاء جمعية العلماء المسلمين في الجزائر سنة ١٩٣١، وضمت الجمعية ١٢٠ عالمًا من علماء الجزائر الذين اشتهروا باستقامتهم وإخلاصهم لعقيدتهم الإسلامية والجزائرية المسلمة في نفس الوقت، وقد اختارت الجمعية الشيخ ابن باديس رئيسًا لها، وكان شعار الجمعية «الإسلام ديننا والعروبة لغتنا، الجزائر وطننا » .

وخاض الشيخ ابن باديس معاركه الفكرية دفاعًا عن الإسلام، فدخل في حوار مع المستوطن الفرنسي « آشيل » الذي تهجم على الإسلام وعلى رسوله الكريم ﷺ ، واستطاع ابن باديس أن يفحم هذا الكافر، ولم يكن ذلك الحوار نوعًا من الترف الفكرى، بل كان من صميم معركة التحرير حيث إن الاستعمار كان يحاول دائما أن يبث أفكارا مغلوطة عن الإسلام بهدف تشكيك المسلمين في دينهم وصرفهم عنه؛ لأن الاستعمار كان يدرك أن الإسلام هو الطاقة الكبرى التي تؤجج الكفاح ضد الاستعمار.

وقد توفي الشيخ عبد الحميد بن باديس يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٤٠، ولكن تلاميذه وإخوانه أكملوا مسيرة الكفاح، ولم تسقط الراية من أيديهم، وذلك من خلال جمعية العلماء.

الظروف السياسية والاجتماعية في الجزائر

في بداية القرن العشرين نشأ عبد الحميد بن باديس في ظروف سياسية واجتماعية صعبة في الجزائر، ولعل معرفة طبيعة هذه الظروف تفيد إلى حد كبير في تقييم الدور العظيم الذي لعبه ابن باديس وجمعية العلماء في الجزائر.

في بداية القرن العشرين كانت الأوضاع في الجزائر قد وصلت إلى حالة يرثي لها، كان الاستعمار الفرنسي قد حثم على صدر الجزائر منذ ١٨٣٠، وكانت مخططاته الشيطانية تسير على قدم وساق، فالمذابح تتكرر، وعمليات الإبادة تشتد، وانتزاع الأراضي من الأهالي لصالح المستوطنين من أوروبا وفرنسا خاصة،الذين كانوا يتدفقون على الجزائر، والبعثات التبشيرية تعمل بهمة ونشاط وتستغل الأوضاع الاقتصادية السيئة التي آل إليها شعب الجزائر، والمجاعات تتكرر، والأوبئة تنتشر، وعدد السكان الجزائريين يتناقص باستمرار !!

والمخططات الاستعمارية تبذل جهودها في القضاء على الدين الإسلامي والمساجد والزوايا، وتمنع تعليم اللغة العربية، وتبذل كل ما في طاقتها لفصل العرب عن البربر، وتقوم بعملية تغريب حضاري وثقافي شامل عن طريق تعليم اللغة الفرنسية وتدمير كل المؤسسات الوطنية واستبدالها بمؤسسات استعمارية،

بل ونجحت تلك الإدارة في إفساد بعض الطرق الدينية التي كان لها نصيب كبير في عمليات الكفاح ضد الاستعمار، فحولتها إلى طرق صوفية تنشر الخرافة بدلاً من العلم الإسلامي الصحيح، وعلى سبيل المثال فإن الطريقة الرحمانية التي اضطلعت بأعباء الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي وخاصة في ثورة ١٨٧١ قد أصبحت طريقة خربة تنشر الخرافة والتواكل وذلك عن طريق إفسادها من الداخل ووضع بعض العملاء على رأسها، مثل الشيخ أحمد عليوة، وفي المقابل نجد أن شعب الجزائر في تلك الفترة قد انقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية، هي مجموعة العملاء والمتعاونين مع الاحتلال الفرنسى، وبعض هؤلاء العملاء قد تخلي عن دينه وتنصر وهذه المجموعة محدودة ولا قيمة لها وملفوظة من الشعب الجزائرى، بل ومحتقرة من سلطة الاحتلال ذاتها.

والمجموعة الثانية هي مجموعة النخبة الأرستقراطية وبعض المثقفين، وهؤلاء قد فقدوا الثقة في إمكانية تحرير الجزائر عن طريق الثورة وانغمسوا في اللعبة السياسية ، مثل لعبة الانتخابات أو المطالبة بتحسين أوضاع الجزائريين وتخفيض الضرائب والسماح للجزائريين بالحصول على الجنسية الفرنسية مع الاحتفاظ بدينهم وقوانين الأحوال الشخصية الخاصة بهم، أي أن تلك المجموعة كانت تعلن ولاءها لفرنسا وتدعو لدمج الجزائر بفرنسا واعتبارها مقاطعة فرنسية، بشرط حصول أهلها على حق التجنس والانتخابات والتمثيل في الجمعية الوطنية الفرنسية، دون اشتراط تخليهم عن دينهم أو عن قوانين الأحوال الشخصية الخاصة بهم، وعلى كل حال فإن تلك المجموعة كانت محدودة جدًا حيث بلغ عددها في مدينة الجزائر العاصمة أقل من ٢٠٠٠، وفي كل الجزائر أقل من ٤٢ ألفًا وهم المسموح لهم بحق التصويت في الانتخابات.

والمجموعة الثالثة هي كل شعب الجزائر المسلم المجاهد الصامد، وهؤلاء كانوا يعبرون عن رفضهم للاندماج بأية شروط ويتمسكون بتحرير الجزائر من الاحتلال الفرنسى، ويتمسكون بدينهم وعقيدتهم، وكانوا يتواجدون في كل الجزائر .. في الجبال والسهول والصحراء وفي الأحياء الشعبية وفي المدن ...

كانوا يحفظون القرآن الكريم على اعتبار أنه الطريقة الوحيدة للمحافظة على كيانهم المتميز حتى بلغ عدد الذين يحفظون القرآن في الجزائر حوالي ٦٠٪. من أهلها، وهذا دليل على حيوية مذهلة في مواجهة عمليات المطاردة التي يتعرض لها محفظو القرآن الكريم وعلماء الدين عمومًا .. كان هؤلاء كالنار تحت الرماد ينتظرون اللحظة المناسبة.

ومن هؤلاء خرج الشيخ عبد الحميد بن باديس .

ابن باديس والقضية الفلسطينية :

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يمتلك وعيًا كبيرًا وفذًا، وبرغم الظروف القاسية التي كان يعيشها شعب الجزائر في ذلك الوقت فإن ذلك لم يمنع ابن باديس من الاهتمام المبكر بالقضية الفلسطينية والتنبيه المبكر للخطر الصهيونى.

يقول ابن باديس في سنة ١٩٣٨، أي قبل اكتمال المخطط الصهيوني بعشرة سنوات « تزاوج الاستعمار الإنجليزي الغاشم من الصهيونية الشرهة فأنجبا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى، وقذف على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة بهم، فأحالوها إلى جحيم لا يطاق وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحًا لا يندمل، جاء الزوجان المشئومان – الصهيونية والاستعمار – فكان بلاءً على فلسطين، وليست الخصومة بين عرب فلسطين واليهود فحسب، بل بين الإسلام كله والصهيونية والاستعمار كله، وكل مسلم مسئول أعظم المسئولية عند الله تعالى إن لم يعمل على رفع الظلم عن فلسطين بما استطاع ».

ولعل هذا الفهم الدقيق لطبيعة المعركة مع الصهيونية والذي قدمه لنا الشيخ ابن باديس مبكرًا جدًا، ومازلنا حتى الآن نكتشف صحته يومًا بعد يوم.

يؤكد الوعي الكبير للشيخ ابن باديس، ولعله أول من نبه إلى أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، وأن كل مسلم مسئول أعظم المسئولية عن هذه القضية وعن حقيقة التحالف العنصري بين الغرب وإسرائيل وطبيعة الصراع على أساس أنه صراع حضاري شامل وليس مجرد صراع بين عرب فلسطين وبين اليهود، كما أن هذا الاهتمام المبكر من الشيخ ابن باديس

بالقضية الفلسطينية يؤكد وحدة المصير الإسلامي في كل مكان، وأن المعركة واحدة في فلسطين أو في الجزائر.

جمعية العلماء المسلمين في الجزائر:

نشأت جمعية العلماء المسلمين في الجزائر عام ١٩٣١، وشارك فيها نحو ١٢٠ عالمًا من علماء الجزائر المشهورين بالعلم والتقوى، وكان أول رئيس لها هو الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومنذ أول يوم للجمعية قامت بمهمتها التاريخية في تأكيد إسلامية الجزائر وعروبتها ورفضها للخضوع أو الاندماج في فرنسا فقام الشيخ أحمد توفيق المدني بتأليف ونشر كتاب عن تاريخ الجزائر سنة ١٩٣١، ليكون أداة بين الجزائريين تؤكد أصالتهم وتميزهم، كما قام ابن باديس وعلماء الجمعية وتلاميذها بالتصدي لدعاة الفرنسة أو الدعوات العرقية واستطاعوا أن يفسدوا تدبير المستعمر في الوقيعة بين العرب والبربر، بل وجعل البربر أنفسهم يؤكدون على إسلاميتهم وعروبتهم وإسلامية الجزائر وعروبته، وفي نفس الوقت انبث علماء الجمعية وتلاميذها في كل مكان من الجزائر ينشئون المدارس والمساجد وتعليم الصغار والكبار اللغة العربية وعلوم الإسلام وتاريخ الجزائر وملحمتها الجهادية ضد الحملات الصليبية.

ويعد موقف جمعية العلماء إبان الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ م، من أروع مواقفها، فقد رفض الشيخ ابن باديس وعلماء الجمعية أن يعلنوا تأييدهم لفرنسا، وقال الشيخ ابن باديس كلمته المشهور « كيف نكون مع فرنسا وهي التي لم تقم لنا وزنًا، ولم تعترف لنا بحق، وأمعنت في إهانتنا واحتقارنا، فكيف تجدنا ساعة الخطر أعوانًا وأنصارًا ؟ يجب علينا أن نسكت عنها إطلاقا ولا نقول لها كلمة ».

كانت الجمعية مع إسلامية الجزائر وعروبته، وتحرير الجزائر تحريرًا كاملاً من الاستعمار الفرنسي، وأنه ليس هناك أية أرضية مشتركة للقاء مع الاستعمار، فالصراع صراع حضاري وثقافي وعسكري يمتد في التاريخ والجغرافيا.

يقول ابن باديس « والله لو قال الاستعماريون لي قل لا إله إلا الله محمد

رسول الله ما قلتها .. والله لن أوقع تأييدًا لفرنسا ولو قطعوا رأسي » .

وإذا كان دور الجمعية التربوي والتعليمي معروفًا ومشهورًا، حيث بلغت عدد المدارس التابعة للجمعية عند وفاة الشيخ ابن باديس ١٧٠ مدرسة عربية حرة، وبلغ عدد التلاميذ ما يزيد على الخمسين ألفًا بين ذكور وإناث يقوم بتعليمهم أكثر من ٩٠٠ معلم، معظمهم من خريجي الأزهر الشريف في مصر أو جامعة الزيتونة في تونس، وبعد وفاة الشيخ ابن باديس تزايدت أعداد المدارس التابعة للجمعية، حيث بلغت ٣٠٠ مدرسة تعلم أكثر من ٧٠ ألف طالب عام ١٩٥٣، كما أنها شكلت لجنة للتعليم بالجمعية وأوفدت عددًا من الطلاب لاستكمال الدراسة في المعاهد العليا بمصر وتونس، ووصل الأمر إلى حد أن الجمعية كانت تمنح الشهادات العلمية باسم الشعب الجزائري بدون موافقة الإدارة الاستعمارية، وإذا كان لذلك من دلالات سياسية تربوية، فإن لها أيضًا دورًا سياسيًا لا ينكر.

اهتمام الجمعية بقضايا العالم الإسلامي وفلسطين:

لم تقتصر جهود جمعية العلماء على الاهتمام بقضايا الشعب المسلم في الجزائر، بل اهتمت بأوضاع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وخاصة قضية فلسطين، فقد قامت الجمعية بالدعوة إلى إنشاء « لجنة إعانة فلسطين »، وترأس تلك الجمعية الشيخ أحمد الإبراهيمي رئيس الجمعية في ذلك الوقت، أي عام ١٩٤٨م، ودعا الشيخ الإبراهيمي جميع مسلمي العالم للكفاح ضد الإمبريالية والصهيونية، وأن يتم تقديم الاحتجاجات على ما حدث في فلسطين إلى الهيئات الدولية، كما قامت اللجنة بإرسال عدد من المجاهدين الجزائريين إلى فلسطين للمشاركة في القتال ضد الصهيونية، وكذلك تم إرسال مبلغ أربعة ملايين فرنك، ثم ثلاثة ملايين فرنك أخرى لدعم الجهاد الفلسطيني.

ومن أقوال الشيخ الإبراهيمي في هذا الصدد « أيها العرب، أيها المسلمون، إن فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمتنا وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصبة إذًا نحن خاسرون »، ويقول أيضًا « أيها الظانون أن الجزائر بعراقتها في الإسلام والعروبة، تنسى فلسطين أو تضعها في

غير منزلتها التي وضعها الإسلام من نفسها، لا والله ويأبى ذلك شرف الإسلام ومجد العروبة ووشائج القربي إن الاستعمار يريد أن يباعد بين أجزاء الإسلام لكيلا تلتئم، وهيهات لما يروم ».

دور جمعية العلماء في الإعداد للثورة الكبرى(١٩٥٤- ١٩٦٢)

ما إن اندلعت الثورة الجزائرية الكبرى سنة ١٩٥٤ حتى أعلن الشيخ توفيق المدني في أبريل سنة ١٩٥٦ تأييد الثورة وانخرط المجاهدين من أتباع الجمعية في صفوفها، ولكن ليس بهذا فقط ساهمت الجمعية في الثورة، بل إن تمهيد أرض الثورة بالكامل الفضل فيه يرجع إلى جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، إذ لولا ظهور الجمعية سنة ١٩٣١، بعد أكثر من مائة عام من ليل الاستعمار الطويل، وبعد عمل الاستعمار على إبادة شعب الجزائر حضاريًا وثقافيًا وبشريًا، لولا ظهور الجمعية في ذلك الوقت لكانت المخططات الاستعمارية قد أوشكت على تحقيق أهدافها أو جزءًا كبيرًا منها على الأقل.

إن الجمعية قد مهدت الأرض للثورة، وذلك بجهودها في التعليم ونشر اللغة العربية، وإيقاظ الجزائريين في كل مكان والتصدي بحزم لكل ما من شأنه تدمير الوجود المستقل للجزائر، ويكفي أن نقول في هذا الصدد أن ٧٠ ألف طالب كانوا يتخرجون من مدارس الجمعية، كانوا هم أنفسهم قيادات الثورة وعناصرها النشيطة.

إن الثورة الجزائرية لم تكن لتظهر لولا التأكيد على خصوصية شعب الجزائر المتمثلة في الإسلام والعروبة،ولولا تأكيد الإسلام والعروبة في ضمير الجزائريين لما كان للثورة أن تظهر وتستمر أو تنتصر، وإذا كانت الجزائر الجاهدة المجاهدة قد خاضت المعارك ضد الاستعمار الصليبي الفرنسي منذ عام ١٨٣٠ تحت قيادة الباي أحمد، وعبد القادر الجزائري ثم المقراني والحداد وغيرهم، فإنه مع بداية القرن العشرين كانت الحركة الوطنية في الجزائر على شفا الهاوية بعد أن اتخذت شعار الولاء لفرنسا والمطالبة بالحقوق الجزائرية في إطار فرنسا الأم، ولولا جهود الجمعية لاستمر وتزايد هذا النهج الذي كان سيؤدي حتمًا إلى ضياع

الجزائر، أي أنه لولا المعارك التي خاضتها جمعية العلماء على أكثر من مستوى من أجل تأكيد طريقها في تحرير الجزائر في إطار إسلاميته وعروبته والتمسك بخط الكفاح المسلح ووصل ما انقطع منه، لما وجدت الثورة الجزائرية الكبرى أرضية للانطلاق والاستمرار والانتصار.

إن جمعية العلماء برفعها شعار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ قد وضعت يدها على الطريق الصحيح لتحرير الجزائر اعتمادًا على القدرات الذاتية للشعب الجزائري .

وعلى أساس هذا كله، فليس من العجيب أن يؤكد هذه الحقيقة كل الباحثين التاريخيين بلا استثناء، وكذا قيادات ثورة الجزائر أنفسهم حتى لو كانوا من ذوي الاتجاهات اليسارية أو اليمينية، يقول الأستاذ عبد الباقي محمد أستاذ التاريخ بجامعة قسنطينة « إن الدور الذي اضطلعت به جمعية العلماء في الجزائر، كان هو الدعامة التي قامت من خلالها، وفي إطارها الثورة الجزائرية الحديثة.

ويقول الدكتور أبو الصفصاف عبد الكريم في رسالته للدكتوراه : « إن جمعية العلماء هي التي أخرجت الجزائر من عزلتها الثقافية، وأعادت ربطها بالأمة الإسلامية وحطمت المقولات التي خلقها الاستعمار، وعمدت إلى إحياء اللغة العربية والتاريخ الوطني، وطهرت الإسلام من الشوائب التي علقت به، ووحدت الشعب الجزائري تحت راية الإسلام، وأحبطت حركة الاندماجيين الرامية إلى ربط الجزائر بفرنسا بواسطة جنسية المستعمر ولغته، وكونت الإطارات المخلصة التي فجرت ثورة ١٩٥٤، وكانت الدعامة الأساسية لعملية التعريب بعد أن استردت الجزائر سيادتها الوطنية سنة ١٩٦٢ ».

ويصف الدكتور محمود قاسم في كتابه « الإمام عبد الحميد بن باديس » بأنه الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية.

ويقول محمد على ديوز « أن الثورة الجزائرية قد تأثرت بأفكار حركات الإصلاح الإسلامي التي قادها جمال الدين الأفغاني في مصر والمشرق العربي عن طريق جمعية العلماء الذين كانوا بدورهم تلاميذ للأفغاني ومتأثرين به، وأن

الجزائريين كانوا باكورة القرن العشرين يترقبون بشوق ملتهب وصول بريد المشرق العربي الذي كان يحمل لهم كتب علمائه ومجلاتهم التي تنشر مقالات وأفكار مصطفي كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وغيرهم ».

ويقول عباس فرحات رئيس حكومة الثورة الجزائرية في المنفي « كان الجزائريون المتخرجون من جامعة الزيتونة في تونس والأزهر في مصر – وهم الذين شكلوا جمعية العلماء – يجعلون من نهضة الإسلام والعروبة الشرط الأول لنهضة الجزائر، وكان أنصارهم من جماهير الفلاحين يشكلون أعدادًا ضخمة فقد كان الشعب الجزائري ينطوي على نفسه ويتمسك بقوة بعقيدته الدينية في مواجهة القهر الاستعماري والعنصري، وكان لابد لهذا التيار أن يؤثر بقوته على كل التيارات السياسية في الجزائر باتجاه الثورة» .

المجاهد الليبي
عمر المختار

في إطار الموجه الصليبية المسماة بالاستعمار، قامت أوروبا الصليبية بعد أن حققت نهضتها بعملية غزو واسع لبلاد العالم عمومًا والعالم الإسلامي والعربي خصوصًا، واستطاعت أن تحتل الكثير من بلاد العالم العربي الإسلامي، وأن تسلم فلسطين لليهود، وكان المطلوب والهدف من هذه الموجه الصليبية الجديدة القضاء على الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية، وبرغم نجاح دول الاستعمار الأوروبي في السيطرة السياسية والعسكرية على بلاد العالم العربي والإسلامي فإنها فشلت في القضاء على دين الأمة وهويتها الحضارية والثقافية، وكان ذلك بفضل رجال قاموا بالجهاد العسكري والثقافي في مواجهة الاستعمار، إذ لولا جهاد هؤلاء لتحولنا إلى أمة من الهنود الحمر، أي انقرضنا حضاريًا، هؤلاء الرجال الذين حملوا مشعل المقاومة استطاعوا تعطيل المشروع الاستعمارى، وصحيح أنهم لم ينتصروا على الأعداء ولم ينجحوا في وقف الزحف الاستعماري إلا أنهم بصمودهم وجهادهم حافظوا على جذوة المقاومة تحت الرماد وحافظوا بالتالي على هوية الأمة، ولم ينظروا إلى ما تحت أقدامهم، بل نظروا إلى المستقبل وأدركوا أنها مجرد جهادهم ومقاومتهم مهما كانت النتيجة هي الضمانة الحقيقية للمستقبل واستمرار وجود الأمة وتواصل حضارتها وثقافتها، كانوا يمتلكون تفاؤل المستقبل رغم يأس المرحلة.

ومن هؤلاء الرجال عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي في المغرب، وأحمد باي قسنطينة، الأمير عبد القادر، ومحمد المقراني والحداد، ولالا فاطمة، وابن باديس في الجزائر،

وعبد العزيز الثعالبي في تونس، وعمر مكرم ومحمد كريم والأفغاني والنديم وعرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد وحسن البنا في مصر، وعز الدين القسام وأحمد ياسين وفتحي الشقاقي في فلسطين، وأيضًا كان من أبرز هم عمر المختار في ليبيا.

الحركة السنوسية

عمر المختار هو أحد أبناء الحركة السنوسية، وقائد المجاهدين السنوسيين ضد الاحتلال الإيطالي لليبيا، وكان عمر المختار معلم للقرآن الكريم في أحد الزوايا التي أنشأتها الحركة السنوسية، والحركة السنوسية هي حركة أسسها السيد محمد ابن على السنوسي سنة ١٨٣٧ وقد انتشرت الحركة فى لبيبا وأجزاء من مصر والسودان، ولكن المحور الأساسي للحركة كان في ليبيا وخاصة في واحه جغبوب، وقد استطاعت الحركة أن تؤسس عددًا كبيرًا من الزوايا كانت بمثابة مساجد للصلاة ودارا للعلم ومكاناً لإعداد المجاهدين والدعاة والنشاط الاجتماعي عمومًا، وقد لعبت الحركة السنوسية دورًا متميزًا في الجهاد ضد أعداء الأمة فقاومت الاستعمار الفرنسي في تشاد والسودان الغربي من ١٩٠١ حتى ١٩١١، وعندما احتل الإيطاليون ليبيا سنة ١٩١١ قام السنوسيون بدور هام في القتال والجهاد ضد الإيطاليين في كل أنحاء ليبيا ولمدة ثلاثين عامًا متصلة بدءًا من ١٩١١ وحتى ١٩٤٠م، وكان عمر المختار واحد من مقاتلي السنوسية ضد الاحتلال الإيطالي منذ عام ١٩١١ وحتى ١٩٢٢ م، ثم قائدًا للمقاومة من ١٩٢٢ وحتى ١٩٣١ م.

جهاد عمر المختار

كانت الفاشية قد وصلت على الحكم في إيطاليا عام ١٩٢٢، وقامت الحكومة الفاشية بإرسال عدد كبير من القوات إلى ليبيا بهدف القضاء على حركة المقاومة، واضطر المجاهدون إلى الانسحاب إلى الجنوب، وأنشأ عمر المختار الذي أصبح قائدًا للمجاهدين منذ عام ١٩٢٣ قاعدة في الجبل الأخضر، ومن هذه القاعدة شكل عمر المختار جيشًا قويًا، وشهدت أعوام ١٩٢٤،

١٩٢٥ نجاحات متعددة لقوات عمر المختار، ولمع اسم عمر المختار كقائد بارع يتيقن أساليب الكر والفر، واستطاع عمر المختار أن ينزل خسائرًا فادحة بالقوات الإيطالية وأن يقطع طرق مواصلات الإيطاليين في أنحاء واسعة من الشمال، واستمر عمر المختار صامدًا طوال أعوام ١٩٢٤، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ثم أنزل بالقوات الإيطالية هزيمة كبيرة سنة ١٩٢٨ مما جعل الحكومة الإيطالية تقوم بتغيير وزير المستعمرات الإيطالي وتغيير قيادات الإيطاليين في ليبيا وإعادة تشكيل الإدارة الإيطالية في ليبيا.

وفي عام ١٩٢٩ نفذ رجال عمر المختار الكثير من العمليات الناجحة ومنها الهجوم على قصر بنقدم والقبض على الدرك الإيطالي بها « نوفمبر ١٩٢٩ »، ومع استمرار نجاح عمر المختار قام الإيطاليون بإنزال كل أنواع القسوة والتعذيب بالشعب الليبي وحاولوا دائمًا قطع صلات المجاهدين بالجماهير الليبية، ووصل الأمر إلى حشد الأهالي في معتقلات كبيرة امتدت من العقيلة إلى السلوم، وقامت السلطات الإيطالية بإعدام أي شخص يتصل بالمجاهدين وإنشاء ما صار يعرف في تاريخ الاستعمار الإيطالي باسم (المحكمة الطائرة) في أبريل ١٩٣٠، وهي المحكمة التي كانت تنتقل من مكان إلى مكان لإصدار الأحكام السريعة وتنفيذها فورًا.

وعمدت القوات الإيطالية إلى إغلاق الحدود المصرية لمنع الإمدادات عن المجاهدين في الجبل الأخضر وفي الواحات.

واستمرت المناوشات والصدامات بين قوات عمر المختار وقوات الإيطاليين طوال عام ١٩٣٠، ثم قامت الإدارة الإيطالية في ليبيا بمد سور الأسلاك الشائكة على طول الحدود المصرية الليبية وبلغ طول هذا السور (٣٠٠ متر كيلو متر)، من (المساعد) إلى ما بعد (الجغبوب).

وبعد جهاد طويل استمر حتى عام ١٩٣١ سقط عمر المختار أسيرًا في يد القوات الإيطالية في ١١ سبتمبر ١٩٣١ م، وحوكم محاكمة صورية قضيت بإعدامه، ونفذ فيه الحكم في ١٦ سبتمبر ١٩٣١ فلقي ربه شهيدًا.

الشيخ المجاهد عز الدين القسام

* فلسطين قضية كل مسلم
* الإسلام والكفاح المسلح
* الطريق الصحيح لتحرير فلسطين

القسّام الرائد

بعد عشرات السنين من استشهاد الشيخ المجاهد عز الدين القسام على أرض فلسطين المباركة نجد أنفسنا نكتشف أن الطرح الصحيح للقضية هو ما طرحه ومارسه عز الدين القسام (الإسلام والكفاح المسلح)، بل نجد أن تجربة عزالدين القسام « وهو علم الدين – السوري المولد – المكافح ضد الاحتلال الفرنسي في سوريا – الراغب للجهاد ضد احتلال الطليان لليبيا – الرابط بين الكيان الصهيوني والاحتلال الإنجليزي – الذي يحرك الجماهير من خلال الإسلام – المنظم لخلايا الكفاح المسلح .. » نجد أن تلك التجربة تكشف عن فهم كل العوامل الصحيحة والمعاني الصحيحة في القضية الفلسطينية.

ترى كيف امتلك عز الدين القسام هذه الرؤية الصحيحة، وترى أين تعلمها، وترى كيف صاغها فكرًا وممارسة ؟ إنها عبقرية رجل الدين المجاهد، إنها عبقرية عز الدين القسام.

مولده وحياته :

ولد عز الدين القسام في قرية الأدهمية التابعة لمدينة

اللاذقية بسوريا سنة ١٨٨٢م، ووالده هو عبد القادر مصطفى القسام من علماء الأزهر الشريف، ووالدته هي حليمة قصاب من بيت نور الدين حملة العلم الكرام، تعلم عز الدين القسام في زاوية الإمام الغزالي بالقرية وحفظ القرآن الكريم والقراءة والكتابة، ثم الفقه، وسافر سنة ١٨٩٦ إلى مصر ليدرس بالأزهر الشريف حيث قضي بالأزهر دارساً لمختلف العلوم الشرعية حوالي عشرة سنوات، ثم عاد إلى سوريا سنة ١٩٠٦ م بعد أن حصل على شهادة الأهلية، وبعد عودته إلى مسقط رأسه في سوريا اشتغل بالتدريس وتولى الخطابة في مسجد المنصوري بالقرية.

وعندما اندلعت الحرب في ليبيا سنة ١٩١١ وحاول الإيطاليون احتلالها هب الشيخ المجاهد عز الدين القسام للدعوة للجهاد في ليبيا إدراكًا منه أن الدفاع عن أي بلد إسلامي واجب شرعي على كل مسلم وبالأخص على علماء الدين، واستجاب له الكثيرون في سوريا فاختار منهم ٢٥٠ متطوعًا وأعدهم للسفر إلى ليبيا عن طريق الإسكندرية للمشاركة في الجهاد ضد الطليان، ولكن السلطات في سوريا في ذلك الوقت منعته ومن معه من السفر.

وعندما اندلعت الثورة السورية الأولى ضد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩١٩ كان عز الدين القسام في طليعة دعاتها وقادتها والمجاهدين بأنفسهم فيها.

وعندما ظهرت الملامح الأولى للغزوة الصهيونية على فلسطين أدرك عز الدين القسام أن تلك الغزوة أخطر وأشد حلقات التآمر الصليبي اليهودي على العالم الإسلامي، وأن للجهاد في فلسطين الأولوية الأولى على كل القضايا رغم أهميتها جميعًا وعبر بذلك عن البادرة الأولى في وعي الأمة بأن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية، فتوجه سنة ١٩٢٠ إلى فلسطين مصطحبًا معه مجموعة من الشباب السوري المجاهد، واتخذ من مدينة حيفا مقرًا له وبدأ عز الدين القسام من حيفا في العمل على نشر الوعي الجهادي بين جماهير فلسطين والتنبيه المبكر على خطورة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقام الرجل بإلقاء الخطب في المساجد أو في المناسبات الاجتماعية كالأفراح أو الاجتماعات أو غيرها، كما أسس المدارس وفصول محو الأمية وتعليم

الصغار، وأسس جمعية الشبان المسلمين في فلسطين لتكون أداة في المواجهة على مستوى الوعي والتعليم والجهاد، ثم شكل الشيخ عز الدين القسام تنظيمًا مسلحًا أختار عناصره من الفلاحين والباعة الجائلين والصناع، وقام هذا التنظيم بالعديد من العمليات الفدائية ضد المستوطنات الصهيونية، وضد الاحتلال الإنجليزي إلى أن أستشهد الرجل في أحد العمليات ضد القوات الإنجليزية مع اثنين من المجاهدين هما الشيخ يوسف الزيباوي وعطيفة المصري يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٥، وكان لاستشهاده وكفاحه ودوره في نشر الوعي والثورة أثرًا هامًا في اندلاع الثورة الكبرى في فلسطين سنة ١٩٣٦م، واستمر التنظيم الذي شكله القسام يقوم بالعديد من العمليات الفدائية ضد اليهود والإنجليز بعد استشهاد الشيخ عز الدين القسام.

فلسطين هي القضية المركزية لأمة الإسلام

لماذا ترك عز الدين القسام ساحة الجهاد في سوريا ضد الاحتلال الفرنسي، وقد كان أحد قادة ثورة ١٩١٩ وهي الثورة السورية الأولى لماذا ترك موقعه الجهادي هنا إلى موقع آخر في فلسطين ؟! أليس هذا إدراكًا مبكرًا بأن جوهر الجهاد وأهم مواقعه هو بالتحديد على الساحة الفلسطينية باعتبار أن أخطر وأهم فصول التآمر الصليبي اليهودي هو بالتحديد على أرض فلسطين، وأن على أرض فلسطين يتحدد مصير الصراع الطويل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، أليس هذا وعيًا مبكرًا بأن القضية الفلسطينية هي القضية الأولى والأهم، وهي القضية المركزية للأمة الإسلامية ولذلك فضل الرجل أن يواجه التحدي الصليبي الغربي والتحالف مع اليهود في المكان الصحيح وفي الموقع الجوهري للصراع، وبذلك يكون عز الدين القسام السوري المولد والنشأة قد طرح وحفر بجهاده على أرض فلسطين أهم حقائق هذا العصر وهو جوهرية الصراع في فلسطين وكون القضية الفلسطينية هي قضية العرب والمسلمين الأولى، وفضلاً عن هذا المعني الهام فإن جهاد عز الدين القسام على أرض فلسطين يؤكد أهمية الجهاد في كل موقع يتعرض لخطر العدوان، ولعل

هذا درسًا بليغاً لكل المجاهدين الذين تركوا القضية الجوهرية « فلسطين » وراحوا يجاهدون في قضايا أقل أهمية وأحيانًا في المكان الخطأ !.

الإسلامية والكفاح المسلح ـ الجماهير الكادحة :

تعلم الجميع – ولكن بعد وقت طويل ضائع – أن عز الدين القسام قد وصل إلى لب المنهج الصحيح للمواجهة، فالذين تحركوا تحت شعارات مختلفة من وطنية وقومية وماركسية وغيرها قد فشلوا جميعًا في تحريك الجماهير ووصلوا بالقضية إلى أسوأ حالاتها أو سقطوا جميعًا إلا من رحم ربك في مستنقع التفاوض الآسن، ومنذ اللحظة الأولى وضع عز الدين القسام يده على الطريق الصحيح لتحريك الجماهير « الأيدلوجية الإسلامية » وهي الوحيدة القادرة على المواجهة والحشد، لأنها عقيدة الجماهير وبسبب طبيعة التحدي باعتباره صراعًا حضاريًا بين الإسلام والغرب المتحالف مع اليهود، صراعًا يمتد في الزمان والمكان في الجغرافيا والتاريخ، ولقد وعي الشيخ عز الدين القسام ذلك الارتباط بين اليهود الصهاينة باعتبارهم طليعة استعمارية عنصرية تستهدف أمة الإسلام وليس فلسطين وحدها، وبين الاستعمار الإنجليزي -- الوجه الآخر للتآمر الصليبي، وبالتالي فهم أنه لا طريق لمواجهة هذا التحدي الحضاري إلا بالإسلام وبالكفاح المسلح، لأنه ليست هناك أرضية للالتقاء وبالتالي فلا مجال للمفاوضات والحلول الوسط، ووصل الرجل إلى الأسلوب الصحيح للمواجهة، أما هؤلاء الذين فقدوا خيار الإسلام أو خيار البندقية فمازالت سقطاتهم تتوالى ومازالت الكوارث على فلسطين و على الأمة تتوالى بسببهم.

كان عز الدين القسام يدرك أيضًا أن الجماهير الكادحة هي القادرة على الجهاد والمواجهة فتوجه الرجل بخطابه إليهم وعاش بينهم وشكل تنظيمه المسلح منهم، أما الأسر الإقطاعية فقد كان يدرك عدم جدواها وعدم قدرتها على الكفاح المسلح وهكذا طرح عز الدين القسام الشعار الخطير وهو « المسلمون الكادحون على طريق الكفاح المسلح ».

ولم يغفل الشيخ عز الدين القسام الجوانب الأخرى في حركته فمارس

النضال السياسي كجناح آخر من أجنحة الحركة ومارس التعليم ومحو الأمية وألف لجانًا للدعوة والدعاية، فبحلول عام ١٩٣٥ كان عز الدين القسام قد نجح في تشكيل خمس لجان داخل تنظيمه هي « الدعوة والدعاية ـ التدريب العسكري ـ التموين ـ الاستخبارات ـ العلاقات الخارجية ».

***

هل كان عز الدين القسام يحلم بالانتصار ووقف الهجمة ودحرها ؟! بالطبع لا، ولكنه كان يدرك أن ظروف الأمة وظروف الهجمة لا تسمح إلا بحفر رافد للمنهج الصحيح من خلال الدم، رافدا للوعي والثورة،رافدا للإسلام والجهاد، يمكنه أن يكون أساسًا للبناء حتى لا تتوه معالم الطريق الصحيح فتضيع القضية برمتها.

صحيح أن الشيخ عز الدين القسام طلب من مفتي فلسطين في ذلك الوقت أن يعلن الثورة المسلحة في الجنوب في نفس الوقت الذي يعلنها فيه الشيخ عز الدين القسام في الشمال ولكن المفتي رفض، ومع ذلك، أي برغم الرفض الذي يعني بداهة أن إعلان الثورة في الشمال سيفشل حتمًا، استمر الشيخ عز الدين القسام وأعلن الثورة في الشمال رغم إدراكه بفشلها الحتمي، ولكنه أراد أن يخط ويحفر بدمه رافدًا عميقًا للتوجه الصحيح ونبعًا أصيلاً ونبراسًا للمستقبل، واستشهد الرجل مع رفاقه الذين قتلوا أو أسروا، ولكنه كان بالفعل قد وضع الطريق الصحيح وقطع الطريق الخطأ الذي يمكن أن يضيع القضية برمتها وإلى الأبد، وبعد ستين عامًا نجد أن كتائب عز الدين القسام هي نفسها التي تحمل عبء المواجهة وطريق عز الدين القسام هو الطريق الذي اختاره أبناء فلسطين « الإسلام والثورة والكفاح المسلح » في زمن سقط فيه الكثيرون في مستنقع التعايش مع اليهود.

كان عز الدين القسام يدرك حقيقة تفاؤل المستقبل رغم يأس المرحلة، وكان يعرف أن الاستشهاد وهو مفجر الوعي وأن الحسابات لا ترتبط باللحظة الآتية بل تنظر بعين المستقبل، كان عز الدين القسام قد انتصر في الحقيقة حين استشهد ونجح حين فشلت انتفاضته سنة ١٩٣٥م.

فتحي الشقاقي

تدخل حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين التاريخ العربي والإسلامي والفلسطيني المعاصر كاهم حركة نضال معاصرة، ذلك أنها جمعت بين الكفاح العسكري الاستشهادى، وبين النضال السياسي والإسهام الفكري لقادتها ومنكريها في مجمل المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر.

تأسست حركة الجهاد عام ١٩٧٨ م على يد الدكتور فتحي الشقاقي وعدد من زملائه المجاهدين، انطلاقًا من أن القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإسلامية وللأمة الإسلامية، وأنه لا طريق لتحرير كامل التراب الفلسطيني من النهر إلى البحر، ومن الجنوب إلى الجنوب إلا بحرب التحرير الشعبية والعقيدة الإسلامية، فالكيان الصهيوني برمته كيان غير شرعي ولقيط، ولا يجب الدخول معه في أي مفاوضات أو حلول وسط، وهو كيان عدواني لا يجدي معه سوى سلاح البندقية وهكذا أعادت حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين التأكيد على الثوابت الأساسية للقضية في وقت كانت تتساقط القوى العربية والفلسطينية تباعًا في فخ التفاوض والمساومات والحلول الوسط

وتعتبر حركة الجهاد الإسلامي نفسها امتداد لمجمل الكفاح الإسلامي والفلسطيني المعاصر، وتعتز بصورة خاصة بالشهيد عز الدين القسام الذي قاد الكفاح الفلسطيني المسلح في الثلاثينات ضد الوجود اليهودي في فلسطين وضد

الاحتلال الإنجليزي على حد سواء، وقد مزجت حركة الجهاد الإسلامي بين الكفاح الإسلامي المعاصر، والكفاح الفلسطيني المعاصر بطريقة فذة ووعي كبير، وقد قامت حركة الجهاد الإسلامي بالعديد من العمليات الأستشهادية ضد الكيان الصهيوني، وتعتبر الأوساط الإسرائيلية أن حركة الجهاد هي الأسوأ من كل ما سبقها ذلك أنها غير قابلة للاختراق السياسي بسبب تمسكها بالبعد الإسلامي والبعد الجماهيري في نفس الوقت، وترفض الحركة كافة أشكال التفاوض والحلول الوسط مع إسرائيل وتعتبر الصراع مع إسرائيل صراع حضاري يمتد في الزمان والمكان وأنه أحد محطات الصراع الطويل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية وأنه على أرض فلسطين سيتحدد مصير الحضارة الإسلامية ومصير العالم كله بالتالي.

ويعد الدكتور فتحي الشقاقي هو مفكر الحركة وواضع نظريتها السياسية وهو بالإضافة إلى تأسيسه حركة الجهاد الإسلامي، كان مفكرًا إسلاميًا كبيرًا له أطروحات سياسية وفكرية غاية في الأهمية على الصعيدين الإسلامي والفلسطيني.

ولد الدكتور فتحي الشقاقي عام ١٩٥١ في مخيم رفح الفلسطيني في قطاع غزة، كانت أسرته قد نزحت إلى هذا المخيم عام ١٩٤٨ عندما احتلت إسرائيل جزءًا كبيرًا من فلسطين في ذلك الوقت، ومن ضمنه قرية زرنوقة الغربية من يافا التي كانت تنتمي إليها أسرة الشقاقي حتى عام ١٩٤٨ م.

درس العلوم والرياضيات في بير زيت وعمل مدرسًا في القدس ثم درس الطب في مصر وعمل طبيبًا في القدس أيضًا، انخرط في العمل السياسي والنضالي منذ وقت مبكر من حياته، والتحق بالحركة الإسلامية في فلسطين عام ١٩٦٨ م، ثم أسس مع زملائه حركة الجهاد الإسلامي عام ١٩٧٨ كفكرة أولى، اعتقل عدة مرات في كل من مصر وفلسطين، وأبعد عن الأرض المحتلة عام ١٩٨٨ بعد اندلاع الانتفاضة المباركة في فلسطين عام ١٩٨٧، وأخذ يتنقل بين البلاد العربية والإسلامية لمواصلة كفاحه ، اغتالته أجهزة الموساد الإسرائيلية في مالطا يوم الخميس ٢٦ أكتوبر ١٩٩٥م.

بطل استقلال الشيشان

الشهيد جوهر داوودييف

١٩٤٤-١٩٩٦

دخل جوهر داوودييف التاريخ كبطل للمحاولة الاستقلالية لشعب الشيشان سنة ١٩٩١، وهو إحدى الحلقات المتميزة في سلسلة كفاح الشعب الشيشاني، الذي أصبح علمًا على الحرية وإرادة المقاومة والصلابة والصمود، ولعل ملحمة كفاح شعب الشيشان العنيد من أجل الحرية والاستقلال هي أروع الملاحم في التاريخ الإنساني قاطبة.

ولد جوهر داوودييف عام ١٩٤٤، وعاني مثل شعبه في ذلك الوقت من التشريد الذي فرضه ستالين على الشعب الشيشاني، ثم عاد إلى بلاده عام ١٩٥٧، وفي عام ١٩٦٦ تخرج طيارًا إلى أن أصبح لواء في سلاح الطيران، ثم استقال من منصبه سنة ١٩٩١، وعاد إلى بلاد الشيشان، وأجريت انتخابات رئاسية حرة بها في ٢٦ أكتوبر ١٩٩١، وتم انتخاب جوهر داوودييف كأول رئيس لجمهورية الشيشان، فأعلن استقلال الشيشان عن روسيا في الأول من نوفمبر ١٩٩١، إلا أن روسيا أرسلت قواتها في ٩ نوفمبر للقضاء على استقلال الشيشان فقاوم الشعب الشيشاني ذلك التدخل ببسالة شديدة فاضطرت روسيا لسحب قواتها، ثم عادت روسيا فأرسلت جيشًا كبيرًا إلى الشيشان عام ١٩٩٤ لإعادة احتلالها والقضاء على استقلالها، واستمرت المعارك حوالي ٢٠ شهرًا أظهر فيها الشعب الشيشاني بطولة نادرة نجح

بعدها في إجبار الروس على الانسحاب مرة أخرى عام ١٩٩٦، وفي أثناء تلك المعارك التي امتدت من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٦ م، استشهد الجنرال جوهر داوديف، الذي كان يقود بنفسه تلك المقاومة، ولكن المقاومة استمرت من بعده أيضًا .

وفي الحقيقة فإن شعب الشيشان الذي يبلغ عدد سكانه حوالي ١,٥ مليون نسمة يعد نموذجًا فذا في المقاومة والصلابة وعدم الاستسلام مهما كانت الظروف، ويصف المؤرخ الروسي سولجنستين صلابة أهل الشيشان قائلاً « لك أن تكسر ظهورهم ولكن أحدا لا يستطيع النيل من روحهم المعنوية العالية، لقد ظلت نفوسهم نمرًا مقيدًا بالسلاسل، لأنهم كانوا من الشيشان الذين لا يرهبون الموت ».

ومقاومة الشعب الشيشاني للاحتلال الروسي ملحمة متصلة لم تنقطع قط، يتعرضون للمذابح والإبادة والتهجير الجماعي ولكنهم يظلون متمسكين بخيار المقاومة المسلحة والهوية الإسلامية، ومنذ أن وطأت أقدام الغزاة الروس أرض الشيشان فإن المقاومة لم تنقطع أبدًا تخبوا أحيانًا ولكنها تعود وتتأجج، وهناك العديد من رموز المقاومة الشيشانية الذين أصبحوا رموزًا عالية للحرية والفداء منهم الإمام منصور الذي فجر المقاومة ضد الاحتلال الروسي منذ عام ١٧٨٥، ومنهم الإمام غازي محمد الذي فجر المقاومة في بدية القرن التاسع عشر ثم الإمام شامل الذي يعد أهم الرموز في هذا الصدد، فقد قام الإمام شامل عام ١٨٥٦، كان الشيخ شامل أحد علماء الدين تخصص في الفقه والشريعة، كما أنه أحد أبناء الطريقة النقشبندية وهي طريقة صوفية تنتشر في بلاد القوقاز، كما كان ينتمي إلى المذهب الشافعي، ولد الإمام شامل عام ١٧٨٧ م وانضم للجهاد عام ١٨٣٠ وخاض الكثير من المعارك وانتصر على الروس في العديد منها خاصة عام ١٨٤٣، ١٨٤٤ م، ويكفي أن نعرف أن الروس حشدوا لقتاله حوالي ٤٠٠ ألف جندي واستطاعوا أخيرًا أن يأسروه عام ١٨٥٦ م حيث لبس في السجن ٥ سنوات ثم أفرج عنه ١٨٦١ م، حيث ذ هب إلى الحج ومات في المدينة المنورة.

وبعد الشيخ شامل استمرت المقاومة على يد كل من « تاشو حجي »

والشيخ «مادالي » و « بشير الكوميكي » و « نجم الدين غوتسو » طوال الفترة القيصرية، ثم خلال الحكم الشيوعي لروسيا الذي بدأ عام ١٩١٧، وقام الديكتاتور الشيوعي «جوزيف ستالين » بعملية « تهجير قسري » لشعب الشيشان إلى سيبيريا عام ١٩٤٤ حيث مات ربع مليون شيشاني في تلك العملية بسبب البرد والتعذيب في معسكرات النفى، أي أن الشعب الشيشاني تمسك بهويته وروحه العالية ونجح عدد كبير منهم في لعودة إلى بلادهم الشيشان على مدى سنوات طويلة بدءًا من عام ١٩٥٧ وحتى عام ١٩٩١ حيث تم إعلان جمهورية الشيشان برئاسة الجنرال جوهر داوديف.

نجم الدين أربكان

بركة النضال السياسي

الزعيم التركي نجم الدين أربكان، هو أحد أهم زعماء الإصلاح الإسلامي في عالمنا المعاصر، ولا يرجع ذلك فقط للدور الهام الذي أسهم به في الدفاع عن تركيا المسلمة في وجه العلمانية والتغريب، ولا في نجاحاته المتواصلة في زرع الحركة الإسلامية التركية في قلب التركيبة السياسية التركية المعقدة فقط، ولكن أيضًا لانفراده بأسلوب وفكر متميز وأطروحته السياسية الفذة التي انفرد بها، والتي تعد نموذجًا وتجديدًا في الفكر الإسلامي السياسي المعاصر، ويمكن أن تطلق على تلك الأطروحة بركة النضال السياسي ، أو زرع الزهور الخضراء رغم العاصفة أو شجرة الزيتون تطرد أشجار الشوك والزقوم، ولا شك أنها تجربة تستحق الدراسة، وأربكان أيضًا كشخص يستحق الاهتمام.

ولد نجم الدين أربكان عام ١٩٢٦ في مدينة سينوب التركية، والده هو محمد صبري ناظر زادة أحد كبار القضاة والمتفقهين في الشريعة، أما أجداده فهم من كبار الموظفين والوزراء في الدولة العثمانية، ويعود نسبه القديم إلى أمراء القبائل السلمونية التي أسست أول دولة تركية إسلامية في أسيا الصغرى قبل ظهور آل عثمان بمئات السنين، درس نجم الدين أربكان في مدينة اسطنبول، وكان شديد التفوق فأدخل إلى السنة الثانية من كلية الهندسة الميكانيكية مباشرة، وتخرج فيها وعمره ٢٢ عامًا، وعين فيها معيدًا، ثم أرسل إلى التخصص في جامعات ألمانيا فنال فيها الدكتوراه، وعمل في

بعض المصانع الألمانية للسيارات وسجل عدة اختراعات باسمه في مجال المحركات وخصوصًا محركات الدبابات، وعندما عاد إلى تركيا عمل أستاذًا مساعدًا في كلية الهندسة في إسطنبول ثم مديرًا لأحد أكبر المصانع التركية، وفي عام ١٩٦٧ انتخب رئيسًا لغرفة التجارة والصناعة في تركيا، ثم بدأ العمل السياسي المكثف فأسس جمعية نشر العلم، ثم رشح نفسه للانتخابات البرلمانية في مدينة قونية بصفة مستقلة عن الأحزاب عام ١٩٦٩ م ففاز بغالبية كاسحة واعتبر فوزه حدثًا بارزا لتفوقه على كبار الشخصيات السياسية التقليدية، وفي يناير ١٩٧٠ م، أسس حزب النظام الوطني، وكان شعاره سياسة في هيئة التشهد، وجاء في بيانه التأسيسي أن الحزب سيعيد على الأمة أمجادها العظيمة، وبعد ١٨ شهر من تأسيس الحزب أي في منتصف عام ١٩٧١ لفقت له الحكومة التركية قضية وأحالته إلى محكمة أمن الدولة بتهمة التناقض .

مع الدستور، وصدر قرار بحل الحزب، وبعد الانقلاب العسكري في أواخر عام ١٩٧١ م أسس حزبه الثاني « حزب السلامة » ودخل به الانتخابات وحصل على نسبة من الأصوات أهلته للمشاركة في ائتلاف حكومي، فأصبح نائبًا لرئيس الوزراء عام ١٩٧٤م، واستمر ذلك لفترة قصيرة «تسع شهور فقط » كانت كافية لتظل آثاره ماثلة على الخريطة التركية حتى الآن، فقد كان وراء القرار الخطير عام ١٩٧٤ م بإرسال الجيش التركي إلى قبرص، و على الغرار نفسه استغل أربكان المناصب الوزارية العديدة التي شغلها بفضل تحالفات حزبه مع الأحزاب التقليدية التركية في السبعينات لينجز انقلابات صغيرة وتكتيكية لكنها خطيرة مثلما فعل عندما كان وزيرًا للداخلية فأدخل آلاف الإسلاميين إلى الشرطة وأجهزة الأمن، وعندما تسلم وزارة الاقتصاد كشف الضغوط الأمريكية وشروط البنك الدولي وصندوق النقد الدولي لتقليص النفقات العسكرية وتحجيم مشاريع التصنيع وشن حملة واسعة على تلك الجهات، معلنًا أن تركيا ستستمر في بناء جيشها القوى وتطوير صناعاتها الحربية بما في ذلك التعاون مع باكستان في مشروعها النووى، وقد استمر أربكان في نضاله السياسي وتحالفاته مع الأحزاب الأخرى وإنجازاته التكتيكية إلى أن وقع

الانقلاب العسكري الجديد في تركيا عام ١٩٨٠، وتم حل حزب السلامة واعتقال أربكان لمدة عامين، خرج بعدها لينشأ حزبا جديدا عن طريق شخصيات إسلامية غير معروفة حتى يتجاوز اعتراض المؤسسات العسكرية والدستورية، ودخل بهذا الحزب انتخابات عام ١٩٨٣م فحصل على حوالي ١٥٪. من الأصوات، ثم دخل بحزبه الانتخابات البلدية أكثر من مرة واستطاع الفوز في العديد من البلديات وتحقيق إنجازات ملموسة أحس بها الشعب التركي في تلك البلديات على مستوي محاربة الفساد وتحسين ظروف المعيشة وتقديم العديد من الخدمات، ولا شك أن ذلك كله أهله وحزبه للفوز في الانتخابات البرلمانية التركية عام ١٩٩٥ م بالمركز الأول فحصل على ٢١٪. من الأصوات، وحاولت الأحزاب العلمانية والمؤسسة العسكرية استبعاده من التشكيل الوزارى، إلا أنه نجح في النهاية من تشكيل الحكومة بالتحاف مع حزب تانسو تشيلر، وأصبح أول رئيس وزراء إسلامي لتركيا منذ عام ١٩٢٤، واستطاع أربكان أن يقدم في فترة رئاسته للوزارة العديد من الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية لتركيا والعالم الإسلامي مما أثار حفيظة القوى الكبرى عليه فتمت الإطاحة به من الوزارة عام ١٩٩٧، ثم حل الحزب عام ١٩٩٨م بمؤامرة واضحة اشترك فيها العسكر والعلمانيون وقوي الفساد الداخلي والخارجى، وبرغم أن حل الحزب والإطاحة بأربكان قد يبدو أمرًا سلبيًا إلا أنه من ناحية أخرى قد كشف زيف دعاوي الديمقراطية الغربية، وكذب العلمانية وأثبت أن العلمانية لا تقبل في حقيقة الأمر بالتعددية على حين يقبل الإسلاميون بذلك، ولعل هذا واحده كان إنجازًا كافيًا لأربكان، حيث حقق المعنى الكثير من المكاسب الإعلامية والسياسية للاتجاه الإسلامي في العالم كله وليس في تركيا وحدها، بل ووضعت العلمانيين خاصة في العالم الإسلامي في مأزق حقيقي وأنهت مصداقيتهم .

ولا شك أن مسيرة أربكان تمثل نوعًا من الأداء السياسي المتميز والذكاء المنقطع، سواء قبل حل حزب الرفاه أو بعد حل هذا الحزب، ثم إصراره على الاستمرار بطرق مختلفة إدراكًا منه للظروف التاريخية والجغرافية والاستراتيجية

المعقدة التي تحكم تركيا.

ولكي نفهم عبقرية أربكان وأداءه السياسي الفذ، ينبغي أن ندرك شيئا من حقائق التاريخ والجغرافيا والاستراتيجية، فلا شك أن تركيا تمثل أحد محطات الصراع الإسلامي الأوروبي، وعندما ظهرت الخلافة العثمانية استطاعت أن توقف انهيارا كان محتوما للأمة الإسلامية، وأن تصعد بهذه الأمة إلى الأمام، فوحدت المسلمين وحققت المزيد من المكاسب الإسلامية في قلب أوروبا ذاتها، ففتحت القسطنطينية في عهد محمد الفاتح ١٤٥٣م، وتوسعت في أوروبا فوصلت إلى أسوار فيينا وحاصرت روما فأجلت المشروع الاستعماري الأوروبي عدة قرون، وهكذا لم يكن الحقد الأوروبي والصليبي على تركيا إلا أمرا طبيعيًا، تآمرت القوى الصهيونية واليهودية على تركيا حتى أسقطت الخلافة عام ١٩٢٤، وبدأت محاولات ضرب الإسلام في تركيا، بل محاولة استئصال جذوره ومنع شعائره التعبدية ذاتها، وبالطبع كانت هناك محاولات إسلامية لمنع الانهيار تمثلت في العديد من حركات المقاومة والصمود مثل حركة الشيخ سعيد النورسي وغيره، ولكن جاء أربكان ليكون القائد السياسي والتاريخي لمحاولة استعادة الوجه الإسلامي لتركيا الذي غاب طويلا، ولم يكن هذا سهلا بالطبع، فهناك أحزاب ومؤسسات وقوى علمانية قوية داخل تركيا، وهناك أوروبا الساهرة الخائفة من نهضة إسلامية في تركيا والمستعدة لضرب هذه النهضة بأي ثمن، وهناك حلف الأطلنطي وأمريكا التي ترى أن تركيا من أهم المناطق الاستراتيجية في العالم ولن تفرط فيها بسهولة، وهناك مشاكل تركيا الاقتصادية والاجتماعية خاصة مشكلة الأكراد التي باتت تهدد الكيان التركي بأسره، وهناك قبل هذا وبعده أننا كأمة إسلامية ومنها تركيا في حالة هزيمة حضارية أمام الغرب المتفوق علينا عسكريًا واقتصاديًا وعلميًا وإعلاميًا، والعلاقات معه معقدة وقد نجح في اختراق مؤسسات وقوى وهو مستعد لتحريكها عندما يلزم الأمر.

كان أربكان يدرك هذا كله، كان يدرك أن خطوات غير محسوبة قد تؤدي إلى تمزيق تركيا، ولذا رفض طريق العنف والانقلابات العسكرية واختار طريق

النضال السياسي رغم مصاعبه العديدة، ورغم أن هذا الطريق يحتاج إلى كوادر قادرة وذكية ومرنة ومعاصرة، و على حين فشلت العديد من حركات الإصلاح الإسلامية في تبني هذا الطريق نظرًا لرؤيتها الضيقة وعدم اتخاذها القرار المناسب في الوقت المناسب، فإن أربكان استطاع بوعيه السياسي وذكائه المنقطع النظير أن يفز كل مرة في اللحظة المناسبة التي تكون فيها الظروف لا تسمح بمنعه أو ضربه، ينظم حزبًا سياسيًا ويدخل الانتخابات ويحصل على النجاحات التكتيكية المتواصلة، رغم أن هذا لن يحقق بالطبع مشروعه الحضاري الكامل،ولكنه خطوة على الطريق وزرع لجيل آت كما يقول هو، ورغم ما قد يبدو من تنازلات عن برنامجه، إلا أن إدراك أربكان للظروف الموضوعية لتركيا وإقليميا ودوليًا جعله يحقق أقصي استفادة ممكنة لمشروعه في ظل تلك الظروف.

اجتهد أربكان – سواء نجح أو فشل – وقدم تجربة مشاركة الإسلاميين في الحياة السياسية واختيار صندوق الانتخابات كطريق للسلطة أو بعضها، واستطاع أن يعبر العديد من الحواجز الخطيرة، وأن يختار في كل مرة اللحظة المناسب التي تكون فيها القوى الأخرى كالجيش أو القوى الخارجية أو الأحزاب والمؤسسات العلمانية غير قادرة على منعه بحكم ظروف معقدة داخلية وخارجية، ولا شك أن هذه التجربة ككل تجربة لها سلبياتها وإيجابياتها والأمر متوقف بالطبع على الأداء السياسي والمرونة والذكاء التي تدير بها الحركة الإسلامية معاركها وتحالفاتها ، ولكن من المؤكد أنه في ظل الدعاية والإعلام العالمي المعادي للمسلمين، وفي ظل الهزيمة الحضارية لأمتنا حاليًا، وتفوق الغرب وتدخله في شئوننا في كل مجال، فإن أربكان أستاذ الهندسة، الأنيق في ملبسه نجح في تغيير الصورة الإعلامية النمطية عن المسلم الإرهابي الذي يرفض الانتخابات ولا يحمل إلا قنبلة، ونجح في أن يثبت بالدليل العمل أن الإسلاميين يحترمون إرادة الناخبين، وأنهم يحترمون التعددية الفكرية والسياسية وأنهم قادرون على التفاهم مع الآخرين المخالفين لهم في الرأي أو الفكر أو العقيدة، بل يشتركون في ائتلاف حكومي مع حزب علماني، وأن احترام الآخر الفكري والسياسي العقائدي، وهو أحد سمات الحضارة الإسلامية إبان

ازدهارها هو أيضًا أسلوب الأحزاب والقوى والحركات الإسلامية المعاصرة وليس العكس كما يروج البعض.

اختار أربكان منذ البداية أسلوب العمل السياسي العلني والقانوني ولم يتورط يومًا في العنف، اختار أن يؤسس حزبًا تلو الحزب وأن يخوض انتخابات بعد انتخابات، وصبر على الطريق الصعب برغم كل الظروف والملابسات والضغوط والاضطهاد التي تعرض لها هو وحزبه، ولا شك أن هذا الأسلوب ملائم لتركيا لظروفها وتركيبتها المعقدة داخليًا وخارجيًا، ولا شك أيضًا أن النضال السياسي هو الوسط الجدلي بين أسلوبين، أسلوب العنف وأسلوب التربية، وقد أثبت هذا الوسط صحته في حين فشلت الأطروحتان الأخريان (العنف ـ أو التربية) على الأقل حتى الآن.

الشيخ محمد الغزالي
(١٩١٧ ١٩٩٦)

شغل الشيخ محمد الغزالي حيزًا كبيرًا من الفعل على مستوى الحركة الإسلامية ، من حيث معاركها الفكرية والسياسية، بل وخلافاتها الداخلية أيضًا، و على مستوي أطروحاته المتميزة والتي تعكس روح البرنامج السياسي والاقتصادي والاجتماعي للحركة الإسلامية المعاصرة .

ولد الشيخ محمد الغزالي في قرية (نكلا العنب) بمحافظة البحيرة في ٢٢ أيلول « سبتمبر » سنة ١٩١٧، حيث حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية وأكمل حفظه ولم يتم عشر سنوات من عمره، ثم تلقى تعليمه الإبتدائي والثانوية في معهد الإسكندرية الدينى، ثم التحق بكلية أصول الدين عام ١٩٣٧ وحصل منها على درجة العالمية سنة ١٩٤١، ثم حصل على إجازة الدعوة والإرشاد من كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٣، وعمل واعظًا بالأزهر الشريف إلى أن أصبح مديرًا للدعوة والإرشاد سنة ١٩٧١ م.

اعتقل الشيخ محمد الغزالي مرتين : مرة في ١٩٤٩ م ثم مرة أخرى سنة ١٩٦٥ بسبب انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين.

عمل الشيخ محمد الغزالي محاضرًا في عدد من الجامعات الإسلامية مثل الأزهر ـ جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ثم رئيسًا للمجمع العلمي لجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية في الجزائر.

ارتبط الشيخ محمد الغزالي منذ شبابه المبكر بجماعة الإخوان المسلمين حيث عاصر هذه الحركة منذ بداياتها الأولى ومارس النضال السياسي والفكري في عهد الملكية ثم عهد الجمهورية (عبد الناصر ـ السادات ـ حسني مبارك)

وبقدر ما أثار الشيخ محمد الغزالي من قضايا حيوية أو من خلال مقالاته الكثيرة في الدوريات المختلفة أو من خلال محاضراته الهامة بقدر ما أثار من خلافات معه أو حوله أو ردود فعل مؤيدة أو معارضة، وهذا شأن أي مفكر يقرر أن يناقش القضايا الحية المطروحة على الساحة والتحديات التي تواجه الأمة الإسلامية ولا يلوذ بالقضايا الميتة أو التي لا رصيد لها في الواقع وهكذا فإن دراسة حياة الشيخ محمد الغزالي هي دراسة في الوقت نفسه لجزء هام من تاريخ الحركة الإسلامية في مصر وحركة الإخوان المسلمين خصوصًا بدءًا من الإمام الشهيد حسن البنا حتى الآن.

كانت أفكار الشيخ الغزالي وكانت اجتهاداته الفقهية مرتبطة دائمًا بأحوال المسلمين في وقتها، سواء أصاب أم أخطأ فإنه اختار الطريق الصعب، ولم يتدثر بعباءة السكون والاكتفاء بطرح القضايا الكلية دون الخوض في الواقع الذي تعيشه الحركة الإسلامية أو الذي تعيشه جماهير المسلمين.

ففي مواجهة الأوضاع الاقتصادية المتردية والاجتماعية الظالمة التي كانت تعيشها مصر قبل ١٩٥٢ من رأسمالية زراعية بشعة وظلم مستمر للفلاحين والعمال وتفاوت طبقي رهيب كانت كلمات ومقالات ودراسات الشيخ محمد الغزالي التي تدافع عن حقوق الفلاحين الفقراء والعمال المطحونين في مواجهة الرأسمالية والملكية وهكذا جاءت دراساته الهامة مثل (الإسلام والأوضاع الاقتصادية ـ الإسلام المفترى عليه بين الرأسمالية والشيوعية).

وفي مواجهة الاستعمار الإنجليزي الجاثم على صدر مصر في ذلك الوقت والاستعمار عمومًا الجاثم على صدور جماهير الشعوب المستضعفة في العالم الثالث كان كتابه (الاستعمار أحقاد وأطماع).

وفي مرحلة الستينات – حيث تزايد المد الاشتراكي في العالم الإسلامي – مع ما ارتبط به من قمع هائل للحركة الإسلامية جاءت دراسات الشيخ محمد

الغزالي لتؤكد هوية الأمة، وأن خلاصها ليس إلا في الإسلام مثل كتابه: (الإسلام والمناهج الاشتراكية) وكذلك مجموعة دراساته عن سيرة الرسول ﷺ أو دراساته التي تدعو إلى الصبر والصمود في مواجهة المحنة وتحدد أبعادها مثل (كيف نفهم الإسلام)، (من معالم الحق).

وفي المرحلة التالية حيث انتشرت مفاهيم القشرية والجمود والاهتمام بالقضايا الجانبية جاء كتابه الهام (السنة النبوية) الذي وصفه البعض بأنه بيروسترويكا إسلامية، وقد أثار هذا الكتاب ردود فعل حادة ومنتقدة لدى بعض قطاعات الحركة الإسلامية التي تميل إلى الأخذ بالأصعب والأشد في أمور الإسلام إلا أن ذلك لم يفت في عضد الشيخ بل زاده تصميمًا على خوض المعركة ضد الجمود والشكلية والاهتمام بالقضايا الجانبية على حساب القضايا الجوهرية للأمة.

وقد كان الشيخ محمد الغزالي دائمًا كمفكر يبادر إلى الرد على كل هؤلاء الذين يحاولون النيل من الإسلام كدين شامل أو يروجون للمذاهب المادية مثل الشيوعية وغيرها، فقد أصدر كتابه (من هنا نعلم) ردًا على الأستاذ خالد محمد خالد الذي حاول أن يدعي أنه لا سياسة في الدين ولا دولة في الإسلام في كتابه (من هنا نبدأ) وقد تراجع الأستاذ خالد محمد خالد عن هذه الأقوال فيما بعد، كما أصدر الشيخ محمد الغزالي كتابه (الإسلام في مواجهة الزحف الأحمر) كرد على الترويج للشيوعية في مصر والعالم الإسلامي.

وإذا حاولنا أن نكون رؤية في فكر الشيخ محمد الغزالي من خلال كتبه ودراساته المنشورة نجد أنه يميل دائمًا إلى فتح باب الاجتهاد والاهتمام بالقضايا الحيوية المطروحة، وينحاز صراحة إلى مدرسة الرأي في الفقه الإسلامي على اعتبار أن الفقه الإسلامي قدانقسم منذ البداية إلى مدرستين هما مدرسة الحديث ـ ومدرسة الرأى،وكان الغزالي يرى ضرورة التقريب بين المذاهب المختلفة ويرى أن التعصب هو نقيض التدين وأنه لم يكن من أخلاق مؤسسي المذاهب ذاتهم.

والشيخ الغزالي يربط الدعوة بالعمل الاجتماعي والسياسي عمومًا وهو يرى أن الحرية هي أهم مبادئ الإسلام، ومن هنا فإنه دائمًا يدافع عن الحريات

باعتبار أن ذلك فريضة إسلامية وينعي على الاستبداد والمستبدين، ويرى أنهم أشد فتكًا وخطرًا على الإسلام من الكفار، ومن النادر أن نجد مقالاً أو كتابًا يخلو من الهجوم على الاستبداد والمستبدين، وقد أفرد لهذا الموضوع دراسة خاصة هي:(الإسلام والاستبداد السياسي).

ويرى الشيخ محمد الغزالي أن العدل مع الكفر أدوم وأبقى من الإسلام مع الظلم وبداهة فإنه لا يتفق الإسلام مع الظلم، كما أن العدل لا ينبع إلا من الإسلام لأنه منهج الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ولكن الشيخ محمد الغزالي يقصد أنه يرفض الاستبداد والظلم ولو كانت اللافتة المرفوعة هي لافتة الإسلام لأن الأمر هنا يكون كذبًا وادعاءً.

ويرى الشيخ محمد الغزالي أن على المسلم أن يناضل من أجل الحرية بأوسع مدلولاتها وأنه مع التعددية السياسية سواء في إطار الإسلام أو حتى في خارج الإطار،لأن الجماهير قادرة على لفظ كل ما هو غير إسلامي في حالة سيادة الحريات وفي جو الانفتاح الفكرى، وفي هذا الصدد يحرص الشيخ محمد الغزالي على التأكيد على حق تشكيل الأحزاب وغيرها من الحريات.

ولم تقتصر رؤية الشيخ محمد الغزالي على الحريات السياسية، بل دعا صراحة إلى ضرورة النضال من أجل الفقراء وضد كل ظلم اجتماعي أو اقتصادى، ويرى الشيخ محمد الغزالي أن المنهج الإسلامي هو منهج المستضعفين في مواجهة المستكبرين، وأن الإسلام يوفر حق الحياة الكريمة لكل إنسان بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو لونه وأن على المسلم أن يعمل من أجل تعديل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لصالح الفقراء والمستضعفين.

وينعي الشيخ محمد الغزالي دائمًا على القومية عمومًا والقومية العربية خصوصًا لأنها دعوة جاهلية من ناحية، ولأنها استنبات استعماري من ناحية ثانية، ولأنها تفرق المسلمين من ناحية ثالثة، وخاصة هؤلاء الذين يعيشون في البلاد العربية مثل البربر في المغرب العربي والزنوج في السودان والأكراد في العراق والنوبيين في مصر وغيرهم الذين لا يجمعهم إلا الإسلام وحده.

ولا يفتأ الغزالي في صراحة وشجاعة يقول أن المسلمين حاليًا متخلفون،أن هذا

يسيء إلى الإسلام ويسيء إلى المسلمين أنفسهم، وأنه يجب على كل مسلم أن يعمل بكد ودأب لتحصيل العلم والمعرفة والتفاني في عمله حتى لا نصاب بالمزيد من التخلف على اعتبار أن التقدم العلمي والصناعي هو تراث إنساني وأن علينا أن نحوز فيه السبق لا أن نكتفي باستهلاك منتجات غيرنا أو فتات موائدهم العلمية والصناعية، وفي الوقت نفسه علينا أن ندرك أننا أمة صاحبة حضارة متميزة ومتفوقة وأخص ما ندعو إليه هو العلم والتعلم والإيجابية في الحياة الدنيا وتعميرها.

إذن فالشيخ محمد الغزالي يمثل مشروعًا فكريًا متكاملاً مستمدًا من الإسلام بصورة أصيلة وواعية ومجتهدة في نفس الوقت فهو يؤكد على تميزنا الحضاري ويتصدى لمحاولات التغريب والتذويب الحضاري الذي نتعرض له، وهو أيضًا يقدم برنامجًا اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا مستمدًا من الإسلام ومراعيًا ظروف الواقع الذي نعيشه في نفس الوقت.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن أكثر التهم والانتقادات التي وجهت ومازالت توجه إلى الحركة الإسلامية هو غياب برنامج تفصيلي لتلك الحركة وبالطبع فإن هذه التهمة باطلة من أساسها لأسباب كثيرة ليس هنا مجال مناقشتها وهي تهمة تستخدمها العلمانية لمجرد ذر الرماد في العيون، إلا أنه على كل حال فإن مواقف وكتابات الغزالي تشكل برنامجًا سياسيًا متكاملاً فهو قدم أطروحة حضارية ناقشت طبيعة مجتمعاتنا وطبيعة تركيبتها الحضارية والإنسانية، كما قدم أطروحة في الانتماء رافضا الانتماء القومي الضيق ومنحازًا إلى الانتماء العالمي كمسلمين وكأمة إسلامية تستوعب في داخلها بدون قهر أو تعصب وبمنتهي الاحترام وتأكيدًا لذاتية كل المذاهب والأديان والآراء الأخرى وعلى المستوي الاقتصادي قدم أطروحاته الاقتصادية التي ناقشت أوضاع المسلمين، وحددت طرق علاجها، بل وطرق التصدي للظلم الاقتصادي والتفاوت الطبقي، و على المستوى ذاته جاءت أطروحاته السياسية والاجتماعية والتربوية وإن مجرد قراءة في عناوين كتبه وأبحاثه ومقالاته تعطيك برنامجًا متكاملاً، برنامجًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ومن خلال مواقفه العلمية نجد أنه مارس النضال

السياسي داخل، ضد الاستبداد، وضد الظلم الاقتصادي، وضد هؤلاء الذين حاولوا الإساءة إلى الإسلام أو رسول الإسلام محمد ﷺ، ودفع الغزالي الثمن من حريته مرتين : مرة سنة ١٩٤٩ وأخرى سنة ١٩٦٥، ثم ثالثة حيث أجبر على الهجرة عام ١٩١٣ بعد أحداث الكلية الفنية العسكرية (١٩٧٣).

كان الشيخ محمد الغزالي من أكثر الذين حرضوا الفلاحين للثورة ضد ظلم كبار ملاك الأراضي ودافع بعلمه ونفسه عن هؤلاء الفلاحين الذين انتفضوا ضد كبار ملاك الأراضي في كفور نحم وبهوت وميت فضالة وغيرها من قرى الريف المصري سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥١ م.

وقاد الشيخ محمد الغزالي المظاهرات من الأزهر الشريف ضد تطاول رسام الكاريكاتير المعروف (صلاح جاهين) على الرسول الأعظم محمد ﷺ وفضل الهجرة إلى خارج مصر، وبعد عودة الشيخ محمد الغزالي قاد الرجل بنفسه المظاهرات الأسبوعية التي كانت تخرج من مسجد الفسطاط بضاحية مصر القديمة حيث كان الشيخ الغزالي يخطب ضد كامب ديفيد أو المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية أو التصدي لتغيير قانون الأحوال الشخصية بما يلائم هوى السيدة جيهان السادات حرم الرئيس المصري الراحل أنور السادات، ولم ينقطع الشيخ الغزالي عن حركته النضالية حتى بعد أن تم إبعاده قسرًا عن منبر مسجد الفسطاط في الثمانينات ومازال ينتهز الفرصة للخطابة من خلال (صلاة العيد) في الخلاء أو خلال الدعوات التي تأتيه من طلاب الجامعات أو التجمعات الحزبية والسياسية المختلفة وفي كل مرة يناقش الشيخ محمد الغزالي أوضاع الشعب المصري وكل الشعوب العربية والإسلامية ولا يترك فرصة إلا واستغلها للتنديد بالاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي وحتى ممارسة النقد الذاتي للحركة الإسلامية، وظل الرجل مدافعًا حتى آخر يوم في حياته، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة، وفي أوائل مارس ١٩٩٦، رحم الله الرجل وجزاه عن أمته خيرًا.

محمود نافع
مدرسة في العمل السياسي والنقابي والبرلماني

شكل المرحوم محمود نافع سبيكة فذة، قل أن تتكرر من العمل السياسي والنقابي والبرلماني والالتحام بالجماهير، وفي نفس الوقت امتلاك التواضع والزهد وحب الناس بلا حدود، بحيث أصبحت شخصية محمود نافع مدرسة كاملة في النضال السياسي وفي العمل في كل الظروف وفي القدرة على الاستمرار بلا كلل ولا ملل.

كيف استطاع هذا الإنسان البسيط الشديد البساطة، المتواضع بلا حدود أن يجمع حب الوالدين، وحب الأقارب، وحب زملاء المهنة، وحب أهل بلده، وحب أهل مركزه وأهل محافظته، حب الناس في كل مكان يذهب إليه .. الغني والفقير .. القوى والضعيف .. ومع ذلك وفوق كل ذلك قدرة هائلة على العمل السياسي والبرلماني والنقابي فكان النقابي الفذ والبرلماني البارز والسياسي القدير ولأن المعاني المتمثلة في شخصية هذا الرجل، أكثر من أن يحاط بها، ولأن عاطفة من الحب تربطني به فوق وقبل عاطفة القرابة فإن من الصعب الكتابة عن هذا الرجل وإعطائه حقه، وتجسيد أعماله وسلوكه وحياته كنموذج يقتدي.

عرفته عن قرب، وكيف كان يسأل عن الصغير والكبير، كيف كان يرعى الأيتام، كيف كان يواسي الناس في مصائبهم ويستطيع بكلمات قليلة أن ينتزع منهم الابتسامة رغم المأساة، ولعلها قدرة هائلة تلك التي امتلكها في هذا الصدد، ولعل الحديث إذا خرج من القلب يدخل إلى

القلب، كيف كان باراً بوالديه وبرغم كل مشاغله السياسية والبرلمانية والنقابية لابد أن يذهب يومياً إلى والديه ويسأل ماذا أكلا وماذا شربا، ليس والداه فقط بل أخاه وأخته وأبناء الأخ والأخت والأقارب من جميع الدرجات، بل وأهل بلده ومحيطه ومحافظته، وكنا نتعجب من هذا الرجل ومن أين يأتي بكل هذا الوقت وكأنه ألف إنسان في جسد واحد.

تراه في الصباح مستيقظاً قبل الفجر، يقوم الليل، ثم ينزل إلى الصلاة في المسجد، ثم يبدأ في استقبال الناس ذوي الحاجات فيحملها عنهم ويذهب إلى المصالح الحكومية لقضائها، وفي اليوم الواحد يمكن أن يمر على المصالح لقضاء حاجات الناس في ميت غمر والمنصورة والقاهرة بلا كلل ولا ملل . بحيث يستطيع في اليوم الواحد إنجاز عشرات المصالح، ثم تراه يعود ليذهب إلى والديه ثم أخوته، ثم يعود المرضى، أو يهنئ ويبارك في فرح أو يواسي في مأتم .. وبين كل هذا تراه ينجز أعماله النقابية كنقيب للمعلمين في محافظة الدقهلية، أو ينجز أعماله البرلمانية، وبالإضافة إلى كل هذا تراه يلقي الدروس الدينية ويخطب في الناس حيث امتلك ناصية الخطابة بصورة مذهلة فقد كانت نبرات صوته ومعاني كلماته من نوع نادر يعطي للأشياء شحنة من الصدق تصل إلى القلوب بلا عناء .

أذكر انه في إحدى الجولات الانتخابية، قام أحد الوجهاء بقرية كفر الشيخ هلال مركز ميت غمر، بإقامة وليمة تكريماً له. وكان ذلك في شهر رمضان المبارك فإذا به ومع أذان المغرب يصلي بالناس في المسجد ثم يذهب إلى تلك الوليمة فيأكل منها لقمة واحدة، ثم يصطحبني مستأذناً من صاحب الوليمة ويذهب إلى أحد البيوت في تلك القرية، وهو بيت رجل فقير شديد الفقر، فيطرق الباب ويستأذن ويقول للرجل جئنا لنفطر معك .. ويتناول طعام الإفطار في منزل هذا الرجل .. ويقول لي هذا الرجل : إن النائب محمود نافع يعتبرني أهم أصدقائه في تلك القرية.

ولم يكن هذا الرجل وحده، بل كل إنسان تصادفه وتأتي معه على سيرة محمود نافع تفاجأ به يقول لك، إنه أهم أصدقاء محمود نافع، فكيف استطاع هذا

الرجل أن يجعل من كل إنسان الصديق الأول له ؟ .

هذا الرجل الذي رفض إغراء المال والجاه، وظل لا يمتلك سيارة ولم يغير شقته المتواضعة رغم كل المناصب التي حصل عليها من خلال ثقة الجماهير، كيف استطاع أن يصمد أمام إغراء المال وهو الذي كان يستطيع أن يغرف منه بلا حدود كعادة الوجهاء وأصحاب المناصب أذكر أنه في عام ١٩٧٥ مـ، تقدم الحاج محمود نافع بمشروع قانون تحريم إنتاج الخمر وتحريم بيعه وتداوله وشربه وفقًا للشريعة الإسلامية الغراء، وبالطبع فإن مثل هذا القرار يضر بمصالح مصانع الخمور وتجارها أيما ضرر، وأرسلوا إليه أحدهم يقول له إن منتجي الخمور وتجاره يعرضون عليه مبلغ ١,٥ مليون جنيه إذا ما تخلي عن هذا المشروع، ويقول الرجل بتواضع وهدوء : إن الكفن بلا جيوب، فيقول التاجر هذا ما توقعته ولكنني أقوم بمهمة كلفني البعض بها، رغم أنني قلت لهم إن هذا الرجل من طراز لا ينفع معه هذا الإغراء، فقالوا لي – لو لم يقبل سنتصرف ونجهض الموضوع بطريقتنا ولن نعدم وسيلة .

ومع حرب ضاحنة داخل مجلس الشعب، في لجنته التشريعية وفي المجلس ذاته تقوم القوى المعروفة بمحاولة عرقلة المشروع دون جدوي لأن الرجل أصر على موقفه، ويصلون في النهاية إلى تحريم الخمر وقصره على الأماكن السياحية،ويقول الرجل إن شاء الله، سوف أستمر ثم يذهب إلى بعض المحافظين في محافظتهم والذين توسم فيهم الخير ليقنعهم بتحريم الخمر داخل محافظتهم وينجح في ذلك في بعض المحافظات مثل بني سويف والفيوم والدقهلية وغيرها .

بدأ محمود نافع، وهو خريج كلية التجارة جامعة القاهرة .. سنة ١٩٥١ م .. عمله كمدرسًا للمحاسبة في المدارس التجارية .. وقد اختار العمل بالتدريس لأنه مهنة الأنبياء كما كان يقول، وفي عام ١٩٥٧م بدأ العمل النقابى، كان منذ أن تم تعيينه مدرسًا قد فرض شخصيته النقابية من خلال مواقفه المتميزة بالرجولة، ومن خلال خطبه البليغة ودروسه الدينية التي كان يلقيها في المساجد، ودخل عضوية نقابة المعلمين في عام ١٩٥٧ م ثم أخذ يسلك طريق العمل

النقابي حتى أصبح نقيباً للمعلمين منذ عام ١٩٦٩ م وحتى مماته ١٩٩٢ م حيث مات وهو مازال نقيبًا للمعلمين بالدقهلية برغم خروجه على المعاش، ولعل هذا في حد ذاته دليل على الثقة التي نالها من المعلمين بلا منازع حيث انتخب وهو على المعاش كنقيب للمعلمين وهذا معناه أن أحدًا لم يحامله بسبب وظيفته بل لمجرد شخصه حيث كان بالمعاش، ولعلك تجد أن المعارك الانتخابية كنقابة معلمين الدقهلية، كانت تدور دائمًا مع التسليم من الجميع بأن محمود نافع هو النقيب، يتفق على هذا الجميع بكل طوائفهم ومصالحهم واختلافاتهم، وكان الجميع يزعم أنه في قائمة محمود نافع حتى يفوز برضا المعلمين .

أذكر أن كثيرا من المعلمين كان يظنه مدرسًا للغة العربية ، أو خريجًا من الأزهر، وذلك لأنه كان يحفظ القرآن الكريم، ويلقي الدروس العلمية والفقهية في المساجد ويستشهد دائمًا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في أحاديثه، وكنت أؤكد لهؤلاء أنه لم يكن خريجًا من الأزهر، بل كان خريجًا من كلية التجارة جامعة القاهرة .. وأنه حفظ القرآن الكريم وتفقه في علوم الشرع بمبادرة شخصية من نفسه، وكان هذا يثير عجب هؤلاء .

وقد ختم محمود نافع حياته كقائدًا للمعلمين على مستوي الجمهورية حيث شارك في الدعوة والإعداد لانتفاضة المعلمين من أجل مطالبهم المشروعة في تحسين ظروفهم الوظيفية والمعيشية ومع صبره ودأبه وحركته التي لا تهدأ وسفره في الدعوة إلى هذه المطالب في الفيوم والإسكندرية والشرقية وغيرها، ولأنه كان خير من صاغ مطالب المعلمين في خطبه وأحاديثه، اعتبرته هذه الانتفاضة القائد الفعلى لها .. لأن النقيب على مستوي الجمهورية وهو الدكتور مصطفى كمال حلمي رئيس مجلس الشوري وبحكم موقعه السياسي لم يكن متجاوبًا مع تلك الانتفاضة، ومع صعود محمود نافع كزعيم لتلك الانتفاضة شعرت الحكومة بأشد الحرج، لأنها تعرف أنه شخصية قادرة على الحشد والتعبئة وأنه طاقة هائلة وأنه شخص يمكن أن ينال ثقة المعلمين بلا استثناء، وأن أحدا لن يجد طريقًا إلى تشويهه أو الإساءة إليه فضلاً عن إغرائه أو تخويفه، وأنه كذلك يحظى باحترام النقيب مصطفى كمال حلمي الذي كان يذكر محمود نافع بكل خير

دائمًا، ويذكر الأستاذ صلاح شلبي نقيب المعلمين بالشرقية، أن موت محمود نافع المفاجئ كان خسارة كبيرة للانتفاضة لدرجة أن مدير المباحث بالشرقية هو الذي أخبر الأستاذ صلاح شلبي بموت محمود نافع قائلاً له : الآن فقدتم زعيمكم !

مدرسة في العمل البرلماني :

دخل محمود نافع مجلس الشعب المصري عام ١٩٧١ م، من خلال برنامج انتخابي ينص على المطالبة بالشريعة الإسلامية وكان صادقًا وقادرًا في نفس الوقت على شرح برنامجه الانتخابى، وقد استطاع أن يتحرك في دائرة ميت غمر من خلال الخطب في المساجد وحظي على ثقة الناخبين ودخل إلى البرلمان المصري وبدأ نضاله البرلماني المتميز، فقدم مئات- وليست هذه مبالغة -.. من المشروعات لقوانين تتصل بتطبيق الشريعة الإسلامية،أو بالإصلاح الوظيفي واستطاع أن يحصل على موافقة المجلس على العديد من تلك المشروعات منها على سبيل المثال لا الحصر القانون ٨٣ الخاص بالإصلاح الوظيفى، ومنها تخصيص نسبة من العمل للمعوقين، ومنها إنشاء قناة تليفزيونية للقرآن الكريم، ومنها جعل نسبة ١٠٪ لطلاب الإعدادية الحافظين للقرآن الكريم، و٥٪ لطلاب الثانوية العامة، ومنها قانون حظر الخمور وقصره على الأماكن السياحية، ولكن أهمها كان تعديل المادة الثانية من الدستور المسماة بحرب الألف واللام .

حرب الألف واللام

كان الدستور المصري ينص على أن تكون الشريعة الإسلامية مصدرًا رئيسيًا للتشريع، وتقدم محمود نافع بتعديل للدستور يجعلها المصدر الرئيسي للتشريع، وكان يحتاج لمجرد مناقشة الاقتراح إلى إمضاء ثلث أعضاء المجلس «١٢٠ عضوًا » واستطاع بعلاقاته الشخصية وصبره أن يحصل على توقيع ١٤٠ عضوًا من المجلس، ثم طرح الموضوع للمناقشة داخل المجلس ووقف محمود نافع مهددًا الأعضاء الذين يرفضون المشروع بأنه سيذهب إلى دوائرهم الانتخابية ويفضحهم فيها، وكان لهذا التهديد أثره في قبول المشروع بأغلبية الثلثين اللازمة، ثم طرح المشروع للاستفتاء الشعبي وتم إقراره ونجحت حملة الرجل في تغيير الدستور ولعله

أول وآخر من غيَر الدستور من غير رؤساء الجمهوريات في مصر .

منظمة سيناء الفدائية :

وقف محمود نافع عام ١٩٧١ م في مجلس الشعب المصري، مطالبًا بإطلاق العمليات الفدائية في سيناء، وعدم تجميد الجهاد الشعبي انتظارًا لمعركة المصير و على أثر ذلك تكونت منظمة سيناء العربية الفدائية التي قامت بالعديد من العمليات خلف خطوط العدو .

أول من قام بإنشاء حزب إسلامي في مصر :

في عام ١٩٧٤ م ظهرت فكرة المنابر في مصر، وكان محمود نافع أول من أقام المنبر الإسلامي وقدم برنامجًا تفصيليًا لهذا المنبر، ثم مع تحويل المنابر إلى أحزاب قام بإنشاء الحزب الإسلامى، وأرفق بطلب إقامته البرنامج السياسي والاقتصادي والاجتماعي للحزب سنة ١٩٧٥ م وكان بذلك أول من قام بإنشاء حزب إسلامي في مصر، ولكن هذا الحزب لم ير النور لأسباب كثيرة ليس هنا مجال ذكرها، ومع دخول الإخوان المسلمين لانتخابات مجلس الشعب دخل المرحوم محمود نافع على قوائم الإخوان ونجح في الانتخابات، وعندما قاطع الإخوان الانتخابات سنة ١٩٩٠ م التزم الرجل بقرار المقاطعة رغم قدرته التي لا شك فيها على النجاح على أية قائمة كانت، وكان هذا موقفًا عظيمًا من الرجل ختم به حياته ونال تقدير الجماهير والإخوان على حد سواء .

الشيخ عبد الحميد كشك

(١٩٣٣-١٩٩٦م)

الخطاب الجماهيري

لا شك أن الشيخ عبد الحميد كشك يمثل ظاهرة هامة على أكثر من مستوى، وهو نموذج فذ لعالم الدين المرتبط بقضايا أمته والقادر على التعاطي الواسع والمؤثر مع أوسع الجماهير، بل أبسطها أيضًا، فالشيخ عبد الحميد كشك استطاع أن يوصل صوته إلى الملايين وربما عشرات الملايين، وربما لم يتفوق عليه في هذا الصدد إلا الإمام الخوميني رحمه الله، وهو قادر على تحريك هذه الملايين وقادر على مخاطبتها بلغة سهلة وبسيطة ومفهومة ومؤثرة، وعاطفية وعقلية في نفس الوقت،إنه شيخ جماهيرى بكل معنى الكلمة، والأخطر في المسألة أن جماهيره كانت من الفلاحين الفقراء والعمال الكادحين، وأصحاب الحرف وفي نفس الوقت من الموظفين والمهنيين وسكان المدن، بل وكبار المثقفين أحيانًا.

وإلى جانب هذا فهو رجل دين لم يركع لحاكم قط، ولاراعي مصالحه الشخصية، ولا خاف يومًا في الله لومة لائم، وهو منذ بدء حياته وحتى مماته تعرض لمحطات كثيرة من الاضطهاد بدءًا من السجن مرتين وانتهاء بمنعه من الخطابة على منبره في مسجد عين الحياة بحدائق القبة بالقاهرة حتى يوم موته!.

والطريف أيضًا أن الشيخ عبد الحميد كشك امتلك لغة ساخرة ومثيرة للابتسامة وفي نفس الوقت شديدة القسوة على ما يراه فسادًا أو استبداد.

ولا شك أن مدرسة الشيخ كشك في العمل الدعوى والجماهيرى تستحق الدراسة، باعتباره رمزًا كبيرا أولاً، وباعتبار قدرته الفذة على الوصول إلى أوسع الجماهير الشعبية مهما كانت درجة ثقافتها، بل وقدرته على إقناع وحشد الملايين وتعبئتهم من أجل قضايا الإسلام.

ولا شك أن الشيخ عبد الحميد كشك قد قدم للإسلام والمسلمين خدمات ضخمة من خلال خطبه وأحاديثه ودروسه وكتبه، ولا شك أنه تمتع بموهبة خطابية نادرة، وأنه كان شيخا مناضلا ومجاهدا وشريفا، وليس غريبًا أن تجد أشرطة الشيخ عبد الحميد كشك تذاع ليل نهار في حواري المدن والقري وفي الأزقة والنجوع، وفي المناطق الأرستقراطية على حد سواء، بل وأن تسمعه من ميكروفونات معلقة فوق المساجد، أو من محلات العصير أو الكباب، أو حتى من المسجلات على عربات الباعة الجائلين أو سيارات نقل الركاب، وأن تجده في كل مكان في مصر، وأيضًا يمكن أن تجده في أمريكا وأوروبا وآسيا، وأيضًا في المغرب والجزائر أو الأردن وسوريا والعراق أو داخل الأرض المحتلة وهكذا، حتى لقد أطلق عليه البعض ظاهرة « كشك فون »، ليس هذا فحسب، بل إن شخصا ما مصريًا أو عربيًا أو أجنبيًا لو جاء إلى مكان في القاهرة وسأل عن عنوان الشيخ عبد الحميد كشك لوجد على الفور من يعرف هذا العنوان، ويدله عليه، ولو أنك أرسلت خطابًا مثلاً على المظروف كلمات الشيخ عبد الحميد كشك ـ القاهرة، لوصل الخطاب إليه بلا أي معاناة، ولهذا الأمر دلالته على كل مستوى

ولد الشيخ عبد الحميد كشك عام ١٩٣٣ م في قرية شبراخيت بمحافظة البحيرة، في مصر، أصيب بالرمد الحبيبي في طفولته وفقد بصره تمامًا في سن الثانية عشرة، حفظ الشيخ عبد الحميد كشك القرآن الكريم مبكرًا، ثم التحق بالمعهد الابتدائي الأزهري بمدينة الإسكندرية، ثم التحق بالمدرسة الثانوية الأزهرية، ثم بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وحصل على الليسانس في أصول الدين وعين في وظيفة إمام وخطيب بوزارة الأوقاف المصرية، وأخذ يتنقل من مسجد إلى مسجد حتى استقر بمسجد عين الحياة بحدائق القبة بالقاهرة

١٩٦٤م، واستطاع بفضل أسلوبه المتميز في الخطابة وبفضل شجاعته في نقد المسئولين والتصدي للفساد والاستبداد، أن يشكل المعارضة العلنية الوحيدة في مصر في تلك الفترة، مما جعل الجماهير تتوافد على مسجده بكثرة، وقد أزعج هذا السلطات المصرية وقتها فاعتقلته سنة ١٩٦٦ م بتهمة الإثارة ! وظل معتقلا حتى عام ١٩٦٨، ثم تم الإفراج عنه، إلا أنه لم يعد إلى منبره إلا في عام ١٩٧٢، وتصاعدت شهرة الشيخ عبد الحميد كشك بدءًا من هذا العام وطوال السبعينات، فتصدي للكثير من قضايا الفساد الأخلاقي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي بأسلوب متميز ساخر وقوى، وكان يخطب الجمعة مركزا على القضايا العامة كما يقوم بإلقاء الدروس في مساء كل يوم تقريبًا في المسجد، وكانت مئات الألوف من البشر تتوافد على مسجده لسماعه، ورغم توسيع المسجد عدة مرات في السبعينات ليسع هذه الأعداد المتزايدة، إلا أنه لم يسعها بالطبع رغم التوسعات فكانت تلك المنطقة كلها تتحول إلى مسجد، مما يعطل حركة المواصلات تمامًا في كل يوم جمعة، ليس هذا فحسب، بل آلاف المسجلات كانت تلتقط خطبة الشيخ عبد الحميد كشك، لتعيد إذاعتها في كل مكان من العالم، وكان البريد يحمل الأشرطة إلى المصريين المغتربين، لأن تلك الأشرطة كانت طلبًا ثابتًا في خطاباتهم لذويهم، ليحملها المسافرون معهم إلى خارج مصر حتى أصبحت جزءًا تقليديًا في حقيبة كل مسافر.

وقد نجح الشيخ عبد الحميد كشك منذ عام ١٩٧٢ وحتى عام ١٩٨١ في تحقق نوع منتشر وفعال من التثقيف الديني النضالي والانتقادي مما أسهم في زيادة رصيد الصحوة الإسلامية في ذلك الوقت وتوصيلها إلى أعمق الطبقات الشعبية وأوسعها، بل وأصبح هناك عدد كبير من الخطباء الذين ساروا على منهج الشيخ عبد الحميد كشك في الخطابة شكلاً وموضوعًا، فتصدى الكثيرون منهم لقضايا الفساد والاستبداد والاهتمام بقضايا العالم الإسلامي عمومًا مثل القضية الفلسطينية وغيرها، وقد نبع من هؤلاء الشيخ أحمد المحلاوي الذي شكل في مسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية صورة أخرى من مسجد عين الحياة بالقاهرة، وفي عام ١٩٨١ م تم اعتقال الشيخ عبد الحميد كشك وعدد من

الخطباء الذين ساروا على منهجه في إطار اعتقالات ٥ سبتمبر ١٩٨١ التي قام بها الرئيس الراحل أنور السادات، وكانت تهمة الشيخ عبد الحميد كشك في ذلك الوقت وتهمة تلاميذه من الخطباء هي معارضة كامب ديفيد، والازدراء بدولة صديقة هي إسرائيل، ومن الملفت للنظر هنا، أن المظاهرات لم تخرج في ذلك الوقت احتجاجا على تلك الاعتقالات، إلا من ثلاثة مواقع فقط، وكلها للشيخ وتلاميذه في مسجد عين الحياة بالقاهرة (مسجد الشيخ عبد الحميد كشك) ومسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية (مسجد الشيخ أحمد المحلاوي) ومسجد النور بالعباسية بالقاهرة (مسجد حافظ سلامة)، في حين غابت المظاهرات والاحتجاجات تمامًا من مساجد الإخوان المسلمين مثلاً، وهذا يدل على العمق الجماهيري لمدرسة الشيخ عبد الحميد كشك.

وبعد مصرع السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١، تم الإفراج عن الشيخ عبد الحميد كشك في يناير ١٩٨٢، إلا أنه كان قد صدر قرار بعدم رجوع الشيخ عبد الحميد كشك إلى مسجده ومنبره في مسجد عين الحياة بحدائق القبة، ورغم كل الضغوط الشعبية فإن هذا القرار ظل ساريا حتى وفاة الشيخ عبد الحميد كشك في ٦ سبتمبر سنة ١٩٩٦ م.

مالك بن نبي

نحات المفاهيم والأفكار

تستطيع أن تقرأ مالك بن نبي عدة مرات، وفي كل مرة تكتشف جديدًا، تستطيع أن تقرأ مالك بن نبي ثم تنسى كل ما قرأت، ومع ذلك تتأثر بالرجل وبأفكاره بشكل عميق، ذلك أنه لا يضيف إلى معارفك جديدًا متميزًا فقط، بل يحدث تغيرًا نوعيًا في ثقافتك وفي طريقة تفكيرك، وتكتشف دائمًا أنك متأثر بما طرحه الرجل دون أن تدرى، وربما ظننت أنك نفسك الذي وصلت إلى هذه المفاهيم الصحيحة، ثم تعرف أنها من تأثير مالك بن نبي غير المنظور عليك وعلى ثقافتك.

فكر مالك بن نبي متجدد دائمًا، ذلك أنه طرح أوجاع الأمة وأمراضها التي مازلنا نعاني منها، وضرب في جذور أسباب التخلف وطرح أسباب النهضة بشكل عميق متجدد.

ذلك هو مالك بن نبي الذي كان الأكثر تأثيرًا على الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة، ولأنه كان من العمق والاتساع بمكان فإن أحدًا لا يستطيع أن يوفيه حقه أو يدرك ملامح هذا التأثير أو يحيط بها.

مالك بن نبي هو نحات في عالم الثقافة، ذلك أنه نجح في أن يحت بصورة عبقرية مجموعة من المفاهيم والمصطلحات كانت كلها معالم في طريق الثقافة ومحطات في طريق البحث الثقافي العربي المعاصر.

مولده وحياته :

ولد مالك بن نبي سنة ١٩٠٥ في مدينة « تبسة » وهي

مدينة جزائرية صغيرة تابعة لولاية قسنطينة في الجزائر، حفظ مالك بن نبي أجزاء من القرآن الكريم في كتاب المدينة، ثم التحق بالمدارس الابتدائية، ثم الثانوية بالجزائر، ثم توجه إلى باريس فدرس الهندسة الكهربائية، حيث تخرج مهندسًا كهربائيًا سنة ١٩٣٥ م.

اختلط في باريس بالشباب العربي والإسلامي المغترب وعاش معهم نضالهم من أجل الاستقلال واهتم اهتمامًا خاصًا بحركة الاستقلال في المغرب العربي حتى أطلق عليه البعض زعيم الوحدة المغربية.

وانخرط مالك بن نبي في أتون الحركة الجزائرية من أجل الاستقلال من خلال عمله السياسي والنضالي كناتب لرئيس نادي الشبيبة الإسلامية في باريس والذي كان يرأسه المجاهد الجزائري الشيخ العربي التبسي، وكان مالك بن نبي ينوب عن الشيخ العربي التبسي في رئاسة النادي عند غيابه.

ثم انتخب مالك بن نبي مديرا لمركز المؤتمرات الجزائري الإسلامي للثقافة في فرنسا ومن خلال المركز قام بتثقيف العمال الجزائريين في فرنسا، كما انتخب ممثلاً للطلبة الجزائريين في جمعية الوحدة المغربية.

عاد مالك بن نبي إلى الجزائر بصورة نهائية واستقر بها عام ١٩٦٣، وتولى عددًا من المناصب مثل مستشار التعليم العالي، ومدير جامعة الجزائر، ومدير التعليم العالي، وفي هذه الفترة كان مالك بن نبي ينظم ندوة ثقافية دينية بالعاصمة الجزائرية وهي الندوة التي عرفت باسم " ملتقى الفكر الإسلامي " .

وفي عام ١٩٦٧ م استقال مالك بن نبي من جميع وظائفه وتفرغ للعمل الفكري وتنظيم الندوات الثقافية وإصدار الكتب، وتوفي مالك بن نبي في ٣١ / ١٠ / ١٩٧٣م .

وأهم كتب مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ـ بين الرشاد والتيه ـ تأملات ـ دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ـ شروط النهضة ـ الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ـ فكرة الأفرو آسيوية في ضوء مؤتمر باندونج ـ في مهب المعركة ـ المسلم في عالم الاقتصاد ـ مشكلة الثقافة ـ ميلاد مجتمع ـ وجهة العالم الإسلامي .

المسألة الحضارية

اختار مالك بن نبي عنوانًا واحدًا لكل كتبه وإسهاماته الفكرية هو «مشكلات الحضارة » فوضع يده بذلك على جوهر المشكلة وهي أن المسألة حضارية وثقافية في المقام الأول وأن الاستعمار، والتخلف – النهضة وغيرها والتي شغلت العالم في ذلك الوقت ليست إلا مسألة حضارية في المقام الأول، حيث هناك محاولة لإخضاع العالم للقيم الحضارية الغربية، وأن الانعتاق من الاستعمار والتخلف مرتبط بالتأكيد على القيم الحضارية الإسلامية وفهم المسألة في إطار الصراع الحضارى، ولا شك أن هذا الوعي المبكر بالمسألة الحضارية والثقافية، وهو الأمر الذي أصبح فيما بعد محور العمل الفكري والسياسي للقوي السياسية والثقافية بل والعسكرية في العالم شمالاً وجنوبًا يدل على عبقرية الرجل، ولعل المثقفين الإسلاميين والوطنيين قد فهموا هذه المسألة فيما بعد فعملوا على إثرائها وقتلوها بحثًا ولكن كان هناك رائدًا هو مالك بن نبي الذي وضع يده على مفتاح المسألة منذ وقت مبكر.

أدرك مالك بن نبي أن التأكيد على الخصوصية الحضارية الإسلامية هو أول شروط التحرر وأول شروط النهضة، وأدرك أن القرآن الكريم هو بمثابة القلب في تلك المعركة فكان أول كتاب أصدره الرجل هو كتاب الظاهرة القرآنية كنوع من التحصين الفكري الذي يحول دون الخضوع أو الاندماج في حضارة الغرب وأكد مالك بن نبي دائمًا على أن الإسلام هو مفتاح التحرر والنهضة على المستوى السياسي والثقافي والاقتصادي وفي تحليله لعناصر النهضة لخصها الرجل في «الإنسان ـ التراث ـ الزمن » وهي عناصر موجودة في كل مجتمع ولكن الذي يخلق شرارة التفاعل بين هذه العناصر ويحولها إلى نهضة هو «الشرارة » وهو بالنسبة لأمة المسلمين « الإسلام » وبدون هذا الشرط فإن العناصر تظل خامدة بلا تفاعل، وأكد مالك بن نبي أن لكل مجتمع الشرارة الخاصة به، ولذلك فإن أندونسيا مثلاً التي تمتلك كل الثروات والأقاليم المناخية والمعادن والمزارع والإنسان لن تنهض بنفس الطريقة التي نهضت بها ألمانيا أو أمريكا ، رغم تفوق أندونسيا من حيث الثروات على ألمانيا وأمريكا،ولكن تنهض إذا وضعت « الإسلام » أي الشرارة في

معادلة النهضة وهذا يرجع بالطبع إلى أن العوامل المحركة للطاقة والحركة والإبداع ترتبط بالتكوين الثقافي والوجداني للإنسان، وفي حالة أندونسيا وغيرها من بلاد العالم الإسلامي فإن الإسلام هو ثقافة ووجدان الناس.

أدرك مالك بن نبي مبكرًا جدًا قبل سقوط الشيوعية بعشرات السنين، أن التقسيم العالمي الموجود وقتذاك بين كتلة غربية وكتلة اشتراكية لا يعبر عن الحقيقة، بل التقسيم الصحيح يكون من محورين هما « محور طنجة جاكرتا ـ ومحور واشنطن موسكو» وها نحن اليوم ندرك مدى صحة هذا التقسيم الذي يعبر عن توجهين حضاريين مختلفين، أي أن الحضارة – وليس الأيدلوجية السياسية – هي التي تتحكم في تقسيم العالم.

نحت مالك بن نبي الكثير من المفاهيم والمصطلحات الرائدة والتي أصبحت اليوم مدخلاً لكل العمل الفكري أو معظمه فهو الذي نحت مصطلح القابلية للاستعمار، والذي عبر به عن أن هناك حالة اجتماعية واقتصادية وثقافية سمحت للاستعمار باحتلال بلادنا، وأن التخلص من الاستعمار دون التخلص من هذه الحالة لن يجدي شيئًا، ولعل تجارب البلاد العربية والإسلامية بعد مرحلة الاستعمار المباشر قد أكدت هذا الأمر، فمع استمرار عوامل وأسباب القابلية للاستعمار فشلت مشاريع النهضة، بل وعاد الاستعمار بصورة أو بأخرى.

وهو الذي نحت مصطلح « مشكلات الحضارة » والذي أكد به أن المسألة في جوهرها مسألة حضارية.

وهو صاحب مفهوم « محور طنجة جاكرتا في مواجهة محور واشنطن موسكو» الذي أثبتت الأيام مدى صحته، وهو صاحب عبارة « الإقلاع الحضاري » وشروط هذا الإقلاع أي شروط النهضة والذي أكد به أن غياب الإسلام كشرط أساسي يعني الفشل الحتمي لأي مشروع للنهضة والتحرر.

مالك بن نبي ذلك المفكر الرائد، هو الذي فتح أعيننا جميعًا على المفاهيم الصحيحة، وهو الذي وضعنا جميعًا على الطريق الصحيح للثقافة والحضارة وبالتالي التحرر والنهضة .

روجيه جارودي
الفارس المبارز

لعلنا لا نبالغ حين نقرر أن روجيه جارودي كمفكر كصاحب موقف، ومناضل هو أحد أهم رجال القرن العشرين، وقد تمتع جارودي طيلة حياته الخصبة والممتدة بضمير نزيه وشجاعة فارس وإقدام مبارز وأخلاق قديس، ومن الطريف أن جارودي حين اختار رياضة يمارسها اختار رياضة الشيش « المبارزة بالسيف »، وقد تفوق فيها حتى أصبح بطل الجامعات الفرنسية في رياضة الشيش عام ١٩٣٢، وكان هذا نوعًا من الانطباق بين الفكرة والرياضة أو التعبير عن تكوينه النفسي المبارز بطبعه والمقتحم لحقول الألغام والمخاطر .

جارودي المولود في ١٧ يونيه سنة ١٩١٨ بمدينة مرسيليا والذي اعتنق المسيحية أولاً، ثم دخل الحركة الشيوعية الفرنسية دون أن يكون ملحدًا، ثم مارس الكثير من النقد على مفاهيم وسلوك الشيوعية في العالم، ثم اهتدي بالبحث والتفكير إلى الإسلام، ودخل الإسلام عام ١٩٨٦، وطوال حياته الفكرية والسياسية قبل دخول الإسلام وبعده كان جارودي مدافعًا دائمًا عن حقوق الإنسان، ومن المدهش حقًا أن الرجل الذي دخل الإسلام متأخرًا استطاع أن يصل إلى جوهر القيم الإسلامية وأن يقدمها بلغة عصرية ملائمة للثقافة الأوروبية، وهذه قيمته وأهميته، بل يكتشف عددًا من نقاط الضعف والخلل في الفكر الإسلامي المعاصر، وأن ينبه عليها، ويجب ألا تأخذنا العزة بالإثم تجاه هذه المنطقة، فليس عيبًا أن يهدي رجلاً اهتدي إلى الإسلام حديثًا عيوبنا

إلينا كمسلمين أو كمفكرين إسلاميين أو دعاة أو علماء، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها، والحكمة جاءت هذه المرة من فم رجل يمتلك خبرة وعقلاً ثريين، وكذلك فإن المواقف والأفكار التي فجرها جارودي أفادت القضية العربية والإسلامية أيما إفادة، وهو بمثابة رجل مثل أمة في هذا الصدد.

علاقة جارودي بالإسلام ليست حديثة، ولا تبدأ من يوم إعلانه دخول الاسلام فقط، بل تمتد في حياته مبكرًا لأنه رجل رفض التعصب والانغلاق دائمًا، وأطلق لعقله العنان ليفكر بدون مسلمات سابقة، وهكذا فإن الرجل اطلع على الإسلام، وكتب عن الإسلام وهو لا يزال شيوعيًا أو مسيحيًا.

ويحكي جارودي عن نفسه أن الإسلام أنقذ حياته، فأثناء إقامته بالجزائر وقع غزو في المعسكر الفرنسي الذي كان موجودًا به في ذلك الوقت، وأصدر قائد المعسكر أمر بإطلاق النار على جارودي، وكان المنوط بتنفيذ هذا الأمر سرية من الجنود المسلمين، فرفضوا تنفيذ هذا الأمر، وعندما سأل قائد السرية الجزائري المسلم عن سبب هذا التصرف، أجابه بأن الدين الإسلامي يمنع قتل الأسير الأعزل، وكان هذا بمثابة الشرارة التي فجرت التفكير في الإسلام في عقل جارودي.

واللقاء الثاني لروجيه جارودي بالإسلام كان بعد إطلاق سراحه من معتقلات النازي، وكان هذا اللقاء بالثقافة الإسلامية، فألقي روجيه جارودي محاضرة عن دور الثقافة الإسلامية في الثقافة العالمية، عام ١٩٤٦ في مدينة الجزائر، قرر بعدها الجنرال ماس طرده من الجزائر، وكان السبب أن جارودي استشهد في تلك المحاضرة بمقولة « أناتول فرانس » التي يقول فيها « أن أسود عام في التاريخ الأوروبي هو العام الذي حدثت فيه معركة بواتييه التي اندحرت فيها الحضارة العربية أمام البربرية الفرنسية ».

ثم قدم جارودي عددًا من الكتب عن الثقافة الإسلامية – قبل أن يكون مسلمًا منها « الإسلام يسكن مستقبلنا »، « وعود الإسلام ».

ويقرر جارودي أن لعلوم الحضارة الإسلامية فضل كبير على النهضة الأوروبية خاصة في الطب والرياضيات والفلك والبصريات.وأن الغزو العربي لم يكن غزوا عسكريًا وإنما فتح للحضارة والثقافة، أو بتعبير أدق « ثورة ثقافية »،

وينقل جارودي في هذا الصدد عن ملك أسبانيا « خوان كارلوس » قوله « إن فترة الخلافة الإسلامية في الأندلس هي فترة عظيمة في التاريخ الأسباني » ويعلق جارودي على ذلك بقوله « بل هي حقبة عظيمة في التاريخ الأوروبي كله ».

يقول جارودي « لقد تدرجت من الإعجاب بالثقافة الإسلامية إلى روحية الإسلام إلى أن أصبحت مسلمًا ».

ويرى جارودي المفكر المسلم أن الإسلام في خدمة الإنسان وليس لتدميره، وأن الثقافة والعلم في الإسلام لخدمة الإنسان بينما تستخدم الحضارة الغربية العلم والثقافة لتدمير الإنسان، ويقول جارودي أن من دواعي إعجابه بالإسلام أن النظام الاجتماعي في الإسلام ينحاز إلى الفقراء، وأن الإسلام أيضًا دين للحوار والحرية والاعتراف بالآخر . ويرى جارودي أنه رغم عظمة قيم الإسلام قد تراجع لأن المسلمين تركوا الفضائل التي جاء بها الإسلام وخلطوا بين القوانين المقدسة «الشريعة » وبين التطبيقات التاريخية.

ويلفت جارودي نظرنا إلى أن هناك حملة تشويه للإسلام وأن ذلك يأتي في إطار محاولة أمريكا والغرب استمرار سيطرتهم العالمية ودوران آلة الحرب والسيطرة .

يعد موقف جارودي ونضاله ضد الصهيونية أحد أهم معالم حياة الرجل، وقبل إسلام جارودى، كان الرجل أيضًا يناهض الصهيونية فألف كتاب «القضية الإسرائيلية »، ثم بعد اعتناق الإسلام ألف كتابين « فلسطين أرض الرسالات »، و«الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية »، ويرى جارودي أنه لا حق للهيود في فلسطين، وأن الصهيونية خروج عن الدين اليهودي ذاته، وأن إسرائيل ليست إلا ذراع لأمريكا تولت بدلاً منها إشعال خمسة حروب في الشرق الأوسط بغرض إدماج كل دول الشرق الأوسط في السياسة الأمريكية وأن إسرائيل هي جزء من مشروع الهيمنة الغربى، فهذه دولة خلقت في هذه المنطقة من العالم لتكون قلعة وحصنًا متقدمًا للحضارة الغربية ضد البربرية على حد اعتراف هرتزل أبو الصهيونية العالمية الذي نشر كتابًا قدم فيه التبريرات لإقناع الغرب بإنشاء هذه الدولة اليهودية وأن كل الأساطير التي قدمتها إسرائيل لتبرير وجودها مثل أسطورة الأرض الموعودة،

وأسطورة الشعب المختار وأسطورة الأرض بلا شعب لشعب بلا أرض وغيرها من الأساطير المؤسسة للسياسة الصهيونية ما هي إلا مغالطات وأكاذيب، وليس لها أساس ديني أو تاريخي أو سياسي.

وقد تعرض جارودي بسبب موقفه من الصهيونية للكثير من الاضطهاد، ففي عام ١٩٨٢ أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان والذي تسبب في قتل ٢٠ ألف لبناني، نشر جارودي في صحيفة لوموند الفرنسية بيانا وقعه مع كل من الأب ميشال لولونج والقس ماتيو أدانوا فيه السياسة الإسرائيلية فقامت الجمعيات الصهيونية في فرنسا برفع دعوى على الثلاثة إلا أن المحكمة برأتهم، وعندما ألف جارودي كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية » قامت الجمعيات اليهودية أيضًا برفع دعوى عليه أمام المحاكم الفرنسية مستندة على قانون جديد هو قانون فابيوس جيسو الذي صدر عام ١٩٩٠ م والذي جعل من محكمة نورمبرج المرجع النهائي للحقيقة التاريخية بخصوص مذابح هتلر لليهود في أفران الغاز، واعتبر هذا القانون أن أي تشكيك في رقم ٦ مليون يهودي الذين تزعم الدعاية الصهيونية مصرعهم في غرف الغاز النازية بمثابة جريمة تستحق المحاكمة.

كما تعرض جارودي لتهديدات بالقتل، وكذلك تعرض للحصار الإعلامي في فرنسا وأوروبا وأمريكا، ولم يسمح له بالدفاع عن نفسه في الصحف أو التليفزيون الفرنسي، كما تعرض ناشرو هذا الكتاب و أي ناشر آخر أو موزع يوزع كتب جارودي للحرب سواء بالاعتداء عليهم أو على مكتباتهم أو بإفلاسهم، والحقيقة أن محاكمة جارودى، وكذلك دفاعه، وفضحه لقانون جيسو قد كشف عددًا من الحقائق، ربما تزيد على أهمية فضحه لإسرائيل وأكاذيبها في كتابه، فقانون جسو الذي يجعل أي مؤرخ أو مفكر أو باحث أو حتى كاتب مقال يتعرض للمحاكمة إذا ما شكك في واقفة تاريخية معينة أو ما أحاط بها من شبهات أو حقيقة الأرقام والوقائع يؤكد على أن الديمقراطية الغربية المزعومة ما هي إلا أكذوبة كبرى، فيمكنك مثلاً أن تشكك في وجود الله في فرنسا ولا تشكك في رقم الـ٦مليون ضحايا النازية من اليهود ! وقانون جيسو وكذا محاكمة جارودي أثبتت أن الحضارة الغربية برمتها مزدوجة المعايير، وتضطهد ا لعرب والمسلمين وكل ما هو غير أوروبي

وفي فرنسا بلد الثورة الفرنسية والحرية والثوار ! تتم محاكمة مفكر على كتاب يصدره، إن قانون جيسو أسس للتمييز العنصري لصالح ضحايا هتلر من اليهود فقط مستثنيًا ضحايا البربريات الأخري الاستعمارية والاستعبادية والأنظمة الشمولية ضاربا عرض الحائط شرعية حقوق الإنسان، بل وبالدستور الفرنسي المزعوم.

وفي الواقع فإن محاكمة جارودي وكذا صدور قانون جيسو يؤكدان على حقيقة قال بها جارودي من قبل ألا وهي أنه لا يوجد هناك شيء اسمه ديمقراطية في الغرب، إن الديمقراطية الأثينية كانت ديمقراطية الـ ٢٠ ألف سيد في مواجهة ١٠٠ ألف من العبيد الذين لم يكن لهم أي حقوق، والولايات المتحدة الأمريكية التي أعلنت ميثاقًا لحقوق الإنسان والمواطن عند الاستقلال وأن كل البشر متساوون، ولكنها أبقت مائة عام على نظام العبيد للزنوج، فالديمقراطية كانت إذن للبيض وليست للسود وميثاق حقوق الإنسان الفرنسي يقول كل البشر متساوون أمام القانون بينما الدستور يقول إن شروط الترشيح أن يكون مالكًا لثروة معينة، أي أنها ديمقراطية للأغنياء وليست للفقراء، لذلك ليس عجيبًا أن يكتب فليسوف كبير من فلاسفة الثورة الفرنسية « هو ديدرو » إن المواطن هو فقط من يملك.

في الجزائر مثلاً نادي كل الديمقراطيين في الغرب بانتخابات حرة في الجزائر، فلما حدثت انتخابات حرة وجاءت على غير هواهم أوقفوا العملية الانتخابية، ثم قبل كل هؤلاء الديمقراطيين الغربيين بالديكتاتورية العسكرية.

ويتوقع روجيه جارودي انهيار الحضارة الغربية لأنها سببت للبشرية مآس ضخمة على مستوى النهب والظلم والقمع، ولا يمكن لنظام مثل هذا أن يستمر، فهناك مثلاً أقلية لا تتعدي خمس سكان العالم تسيطر وتستهلك ٨٠٪ من الموارد الطبيعية للعالم، والنموذج الغربي للتنمية يكلف العالم الثالث حياة ٤٥ مليون شخص سنويًا منهم ١٥ مليون طفل دون السنوات الخمس، أي ما يعادل عدد قتلي هيروشيما مرة كل يومين، ووحدانية السوق التي سميت الحداثة تأخذ شكل انهيار للعلاقة الاجتماعية لصالح منظور داروني اجتماعي وتتلخص في الحرية المحتومة للأقوى لالتهام الأضعف.

وفي رأي جارودي أن أمريكا هي الأسوأ في التاريخ، فزعماء أمريكا هم أكبر

إرهابيون في العالم وليسوا حماة حقوق الإنسان، وهي تسعي للهيمنة على العالم بقوة المدفع، وهي تدعم إسرائيل لهذا الغرض، وهي تعطي إسرائيل كل شيء البندقية والطعام، ولذلك فإن المواجهة مع إسرائيل هي مع أمريكا أولاً، ولذلك يدعو جارودي أن يقاطع العرب والمسلمين أمريكا وإسرائيل مقاطعة شاملة، وهذه المقاطعة بدءًا من السجائر والبيبسي كولا وانتهاءً بالسيارة والآلة والكمبيوتر سوف تؤثر على أمريكا تأثيرًا شديدًا لأن الاقتصاد الأمريكي – على عكس ما يشع –يحتاج المزيد من الكسب والهيمنة، وهي لا تستطيع أن تعيش بدون حروب ويمكن أن تقود هي وإسرائيل العالم إلى حرب عالمية ثالثة، والعدوان الأمريكي على العراق مثلاً هو رسالة أمريكية إلى كل من يريد أو يفكر في الخروج من بيت الطاعة الأمريكي.

ولم يقتصر جارودي على القتال الفكري والسياسي ضد الصهيونية وضد الهيمنة الأمريكية، بل إنه قدم اقتراحات عملية لمواجهة الاستكبار الأمريكي والغربي والصهيوني وإنقاذ دول العالم الثالث والعرب والمسلمين، فيقترح جارودي عددا من المقترحات لهذا الغرض منها :

رفض تسديد الديون المزعومة للبنك الدولي، وتكوين صندوق تضامن يعوض بنسبة كبيرة المساعدة المزعومة التي كان مستغلينا يقدمونها.

رفض قرارات الحظر التي تتخذها الأمم المتحدة على بعض الدول وخرقها

إنشاء سوق مشتركة لشعوبنا، وأن يكون نظام التبادل بالمقايضة حتى لا نضطر إلى المرور من طريق العملات الأجنبية لدول الشمال وبصفة خاصة الدولار، والحرص على القضاء على المضاربة.

القضاء على الهيمنة الثقافية الغربية والهيمنة الاقتصادية أيضًا.

الانسحاب الجماعي من كل المؤسسات التي تدعي العالمية، والتي أصبحت أدوات لسيطرة دولة واحدة، وتغطية عمليات العدوان العسكرية والاقتصادية والثقافية، أي الانسحاب من كل من الأمم المتحدة، صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، منظمة التجارة العالمية.

أن نواجه جميعًا ومتحدين أي تهديد أو عدوان ضد واحد منا.

عادل حسين
سيرة مناضل

تعد حياة عادل حسين التي حفلت بالعديد من المعارك السياسية والمراجعات الفكرية واحدة من أخصب التجارب في الحياة السياسية المصرية المعاصرة، حيث ولد وعاش عادل حسين في بيت يمتلأ بالسياسة والنضال والثورة، حيث كان أخوه المرحوم أحمد حسين مؤسس ورئيس حزب مصر الفتاة الذي نشأ في النصف الأول من القرن العشرين، وكان من أكثر الأحزاب معارضة للملك والإنجليز وأكثرها ضمنيًا وحيويًا، ولد عادل حسين في هذا البيت في ٢٤/ ١١/ ١٩٣٢، في جزيرة الروضة بالقاهرة، والتحق عادل حسين بهذا الحزب.

ثم انتقل بعد ذلك في إطار تطوراته الفكرية والسياسية إلى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) والتي كانت أحد أهم التشكيلات اليسارية المصرية، وبرز عادل حسين كمفكر ومناضل يساري صلب، ودخل السجن عدة مرات في هذا الإطار – أولها عام ١٩٥٣ ثم عام ١٩٥٥، ثم في عام ١٩٥٩ واستمر خمسة سنوات في السجن إلى أن أفرج عنه عام ١٩٦٤ .

وقد حصل عادل حسين على بكالوريوس علوم قسم الجيولوجيا، إلا أنه عمل بالصحافة والكتابة، فأصدر مبكرًا سلسلة كتب عن اقتصاديات النفط في الفترة من ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩، وعمل صحفيًا ورئيس قسم في مؤسسة أخبار اليوم، ثم رحل من مصر عام ١٩٧٨ بعد أن تم فصله من العمل بأخبار اليوم، حيث عمل في مركز دراسات الوحدة العربية وفي

مجلة المستقبل العربي، ثم عاد إلى مصر وبدأت سيرة المراجعة الفكرية التي انتهت به وبعدد آخر من الرموز اليسارية مثل الدكتور محمد عمارة، والمستشار طارق البشري، والصحفية صافي ناز كاظم إلى اعتناق فكر الإسلام السياسي، ولا شك أن ذلك كان حدثًا هامًا يرجع إلى العديد من الأسباب منها ما هو خاص وما هو عام وبالنسبة لعادل حسين فإن تيار الإسلام السياسي لم يكن غريبًا عنه، حيث كان أخوه أحمد حسين أحد رموز هذا التيار، ولا شك أن هناك مراجعات وحوارات تمت بين الرجلين أثمرت إلى حد كبير في تفكير ومراجعات عادل حسين. ولكن هذا لا ينفي وجود عقلية خلاقة ومبدعة لدى عادل حسين وفي الإطار العام فإن بوادر إفلاس اليسار فكريًا وسياسيًا كانت بدأت تتضح على مستوى العالم، ولا شك أن القدرات الفكرية لعادل حسين كانت قادرة على رؤية ذلك على البعد وقبل حدوثه، وكذا فإن إفلاس التجارب اليسارية العربية ووصول معظم القوي السياسية والفكرية إلى ما يشبه المأزق في نهاية السبعينات، وبداية الثمانينات وخاصة في أطروحاتها بخصوص القضية الفلسطينية وتآكل مواقفها في هذا الصدد، أدى في النهاية إلى أن يراجع الأستاذ عادل حسين مواقفه الفكرية والسياسية، ويبدأ مرحلة جديدة من مراحل نضاله الفكري والوطني من خندق الإسلام السياسي، فالتحق بحزب العمل الذي كان قد أسسه كل من المهندس إبراهيم شكري وهو أحد رموز حزب مصر الفتاة، وأحد تلاميذ أحمد حسين، مع الدكتور محمد حلمي مراد أحد الرموز السياسية البارزة ووزير سابق، وأسند إلي الأستاذ عادل حسين رئاسة تحرير جريدة الشعب منذ عام ١٩٨٥ ـ ١٩٩٣ – حيث بدأ الخط الإسلامي يأخذ مسافته الواسعة داخل الجريدة والحزب، ولا شك أن عادل حسين كمفكر وسياسي استطاع أن ينقل الخطاب الإسلامي من خانة خطاب العموميات إلى خانة الاشتباك مع الحالة السياسية والاجتماعية، ودعا عادل حسين في هذا الصدد إلى مواجهة أمريكا وإسرائيل ورفض مسيرة السلام المزعوم، ووقف بصلابة ضد التطبيع مع الكيان الصهيوني وضد بيع القطاع العام والخصخصة، ودعا إلى وحدة التيارين الإسلامي والقومي على قاعدة مواجهة إسرائيل وأمريكا.

ثم عمل عادل حسين أمينا عامًا لحزب العمل منذ عام ١٩٩٣ وحتى وفاته وفي إطار تواجده داخل الحزب سواء كرئيس تحرير لجريدة الشعب أو أمينًا عامًا، فإنه كان أحد رموز وقواعد التحالف الإسلامي الذي تحقق بين كل من جماعة الإخوان المسلمين وحزبي العمل والأحرار منذ عام ١٩٨٧ – وحتى وفاة عادل حسين ، وإذا كان البعض وخاصة في الدوائر الحكومية كان يرى عادل حسين هو مهندس هذا التحالف، إلا أن الحقيقة أن المهندس إبراهيم شكري رئيس الحزب كان الأكثر تمسكا بهذا التحالف، أما عادل حسين فكان يميل إلى فتح الحزب أمام رموز وجماهير الجماعات الإسلامية !

على أساس أنهم الأكثر صلابة، وأن ذلك يفيد المجتمع حيث يعطي هؤلاء فرصة النضال السياسي بعيدًا عن العنف، وقد استطاع عادل حسين بالفعل أن يحدث تغييرًا واسعًا في صفوف حزب العمل وهيئاته ومؤسساته باتجاه تقليص دور غير الإسلاميين وغير الموالين له شخصيا، وأمسك بخيوط اللعبة داخل الحزب.

كان عادل حسين مثيرًا دائمًا للصخب، ويتعاطى مع السياسة والنضال بشكل جاد وصلب في نفس الوقت، وسواء في فترته اليسارية أو الإسلامية فإنه كان معارضًا شرسًا ويدخل السجن عادة، وقد اعتقل في إطار نضاله الإسلامي عام ١٩٩٤، وخرج من السجن ليعاود جهاده ضد الفساد في إطار حملة طالت رموز كبيرة مثل وزير الداخلية المصري وقتها السيد حسن الألفي، ثم وزير الزراعة ونائب رئيس الوزراء والأمين العام للحزب الوطني الحاكم الدكتور يوسف والي، وقد أدت هذه الحملة إلى صدور أحكام بالسجن على عدد من الصحفيين والرسامين بالصحيفة وإلى أحكام بالغرامات على عادل حسين شخصيًا، ثم جاءت حملة الصحيفة على ما أسمته التطاول على العقائد والإسفاف في إصدارات وزارة الثقافة المصرية وخصوصًا وليمة لأعشاب البحر، جاءت هذه الحملة التي أدت إلى اندلاع مظاهرات واسعة في جامعة الأزهر، لتكون الذريعة التي اتخذتها الحكومة وبالتالي لجنة الأحزاب لتعطيل

الصحيفة وتجميد الحزب عام ٢٠٠٠م، واستمر هذا الأمر - وربما كان سببًا في إصابة عادل حسين بنزيف في المخ ليسلم الروح إلى خالقها في ١٥/٣/٢٠٠١م بعد حياة حافلة بالكفاح والتحولات والسجون.

ويعد موقف عادل حسين إبان الأزمة وحرب الخليج الثانية من أهم المحطات السياسية في حياته وحياة تيار الإسلام السياسي، حيث وقف الرجل وجر معه التيار الإسلامي فيما عدا بعض الاستثناءات مع العراق، وكان حزب العمل وصحيفة الشعب أكثر الأصوات العربية تقريبًا رفضًا للتدخل الأمريكي وتأييدًا للعراق، وهو الأمر الذي استمر بعد ذلك في صورة الدعوة إلى المصالحة مع العراق والتنديد بالحصار عليها.

مؤلفات عادل حسين

من أهم مؤلفاته « الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية »، « نحو فكر عربي جديد »، « الإسلام دين وحضارة »، « الخليج الأمريكي العربي سابقًا »، وكذا عدد كبير من المقالات والدراسات التي تؤسس للنضال الإسلامي المعاصر وتهاجم الفساد وتقف بجوار قضايا الأمة.

ولعل من المفيد هنا أن نذكر أن عددًا كبيرًا من اليساريين المصريين كانوا قد تحولوا باتجاه خدمة المشروع العولمي الأمريكي عن طريق تأسيس ما يسمى بجماعات المجتمع المدني التي يتم تمويلها من جهات أمريكية وكندية وأوروبية، في حين أن عادل حسين ورموز يسارية أخري قد تحولت إلى الإسلام السياسي الذي أصبح رمزًا على مقاومة أمريكا، ورفض مشروع العولمة، ومواجهة التدخل الأمريكي في المنطقة والعالم.